A
956.9405
Gh 427f

اميل الغوري

فلسطين عبر ستين عاما

B. U. C. LIBRARY
15 MAY
RECEIVED

دار النهار للنشر ش م ل

جميع الحقوق محفوظة

دار النهار للنشر ش.م.ل
بيروت لبنان
١٩٧٢

المحتويات

مقدمة

حفزني الى وضع كتابي هذا «من الذاكرة والمذكرات» شعوري بالواجب نحو الوطن العزيز ، ومسقط رأسي فلسطين ، ونحو الشعب الحبيب ، لا سيما أبناء جيله الصاعد ، لاخاطبهم فيه ، عبر خمسين عاما من العمل السياسي والخدمة العامة ، وعلى ضوء احداثها وظروفها ، وتطوراتها وتجاربها ، عن قضية فلسطين المقدسة التي كان لي شرف خدمتها ، والدفاع عنها ، والدعاية لها ، والثبات في ميدانها ، والتي سأكرس في سبيلها ما بقي لي من حياتي ٠

والواقع أنه من حق الشعب،أي شعب،على الذين يتولون الاعمال السياسية والشؤون العامة ، ويضطلعون بمسئوليات قومية ، ويساهمون في قيادة حركاته الوطنية ووثباته النضالية ، ويشتركون في الدفاع عن قضاياه ومعالجتها ، انه من حق الشعب على هؤلاء الاشخاص ، أن يصارحوه بالاحداث والتطورات التي لازمت قضاياه ، وأن يكاشفوه بالحقائق والوقائع المتعلقة بها ، وأن يشرحوا له التجارب التي اختبروها ، والظروف التي اجتازوها ، والادوار التي مروا بها ، خلال دفاعهم عن قضاياه ومعالجتهم لها ٠ فيجب أن يعرف الشعب كل شيء عن قضاياه ، وأن يعلم الاسباب والعوامل التي أدت الى النتائج التي بلغتها هذه القضايا ٠

أما ما يشتمل عليه هذا الكتاب من حقائق ومعلومات ، ووقائع وملاحظات ، وبحوث وتعليقات ، وأحداث وتطورات ، فمرجعها الى الذاكرة من ناحية ، ومن ناحية اخرى الى ما دأبت على تدوينه في مذكراتي الشخصية منذ عام ١٩٢٩ ٠

وقد رأيت اصدار هذا الكتاب في أجزاء ، أقدم اليوم جزءه الاول هذا تتبعه الاجزاء الباقية فيما بعد ٠

والله الموفق الى سواء السبيل ٠

عمان ... ١٥ كانون الاول ١٩٧١

اميل الغوري

١٠

ايام طفولتي

استميح القراء عذرا اذا ما حدثتهم ، بالاقتضاب المستطاع ، عن ايام طفولتي والاعوام التي تلتها ، الى اليوم الذي تم فيه انخراطي في الحركة الوطنية الفلسطينية وانهماكي بالحياة السياسية ، استميحهم عذرا لاني لست ادري الى اي مدى يهمهم الاطلاع على هذه الايام والاعوام .ولكن الامر الذي يحفزني الى الكتابة عن ايام طفولتي هو انها كانت الميدان الذي تجمعت فيه عدة عوامل وظروف ، وعناصر واسباب ، فألقت بي في خضم — العروبة — وتقذفت بي الى صميم المعترك الوطني والميدان السياسي . ان الاحداث والتطورات التي سيطرت على شعوري وتفكيري خلال الاعوام العشرة الاولى من عمري ، تكون الصورة الخلفية لحياتي السياسية والعامة التي ما زلت اعيشها منذ خمسين عاما .

القدس : مسقط راسي

ولدت في « بيت المقدس »في الرابع والعشرين من شهر اذار ١٩٠٧ حسب ما هو مسجل في دائرة النفوس التابعة للبطريركية الارثوذكسية في القدس ، وفي هذا البلد المقدس الخالد نشأت ، وفي جوه البهي ترعرعت ، وفي ظل عبير روحانيته وعطر قدسيته رأيت براعم الحياة .

والحقني المرحوم والدي ، عام ١٩١٠ بروضة اطفال تابعة لمعهد « ضابيطا قومي » الالماني ، وانتقلت منها عام ١٩١٢ الى مدرسة ابتدائية تدرس اللغة الانكليزية وتديرها معلمات من عائلة « حنوش » كن يعملن في السابق معلمات في المدرسة الامريكية ، وبقيت في هذه المدرسة حتى عام ١٩١٦ ، ولما كانت المدارس الاجنبية قد اغلقت ابوابها عند بداية الحرب العالمية الاولى في ١٩١٤ ولم يكن في البلاد غير مدارس الحكومة الواقعة تحت السيطرة والادارة التركية فقد التحقت بمدرسة دير الروم الارثوذكس التي لم تلبث ان اغلقت ابوابها بسبب العجز المالي الذي تعرضت له البطريركية الارثوذكسية ، واني لاذكر اننا معشر الطلبة الاطفال فرحنا لاغلاق المدارس .. لننطلق الى اللعب والتسلية ... ولكن والدي قطع علي فرحتي حيث عين مدرسة خصوصية لتعليمي واخوتي في البيت .

الشعور بالطائفية

على الرغم من قيام « الحركة العربية » في اواخر القرن التاسع عشر ، وانتشارها في مطلع القرن العشرين ، فان التحسس بالطائفية والتمسك بالاعتبارات المحلية والاقليمية الضيقة ، كان لا يزال يهيمن ، على ما اذكر ، على القدس ، وكان المظهر الوحيد للمواطنية في البلاد هو اطار الدولة العثمانية . فكان المسلمون — وهم اكثرية سكان القدس — يعتبرون انفسهم مسلمين بالدرجة الاولى ، والمسيحيون مسيحيين . ولما كان هؤلاء يتألفون من شيع وطوائف متعددة مختلفة ، فان كل فريق منهم كان يطلق على مجموعته اسم الطائفة التي ينتمي اليها ، لذلك لم يكن المسيحيون يطلقون على انفسهم اسم « المسيحيين » بل اسماء الطوائف التي ينتمون اليها ، فكان هناك الروم « الارثوذكس » والافرنج « اللاتين » والكاثوليك والارمن والسريان والاقباط والبروتستانت ...

لكن العلاقات بين المسلمين وبين الطوائف المسيحية كانت ودية واخوية وحسنة للغاية ، لا سيما بين المسلمين وبين الروم الارثوذكس وكانوا يؤلفون اكثرية المسيحيين العظمى ، ولم يشكل التقسيم الطائفي والشعور بالطائفية مانعا للاختلاط والتعامل ، في شتى مجالات الحياة ، بين اهل المدينة ، في حين ان الاعتبارات المحلية ، والتمسك بها ، كان في معظم الاحيان يقوض الروح الطائفية ويجعلها غير ذات موضوع ، فقد كانت القدس ، من الناحية المحلية الضيقة ، مقسمة الى احياء — شبه مستقلة — تعرف باسم — الحارات — وكان المسلمون والمسيحيون من سكان الحي الواحد يعتبرون انفسهم مجموعة قائمة بنفسها ، وفي حال حدوث خصام او اقتتال بين حي واخر ، فان جميع سكان الحي ، من مسلمين ومسيحيين ، كانوا يقفون جبهة موحدة ضد مسلمي الحي الاخر ومسيحييه ، وكانت حارات القدس الرئيسية هي : باب حطة ، وباب العامود ، والواد ، والنصارى ، والمغاربة ، والارمن ، والنبي داود ، وانشأ العرب احياء جديدة في خارج اسوار القدس ، ولكنها لم تتسم بما اتسمت به الاحياء الانف ذكرها من صفات ...

اليهود في القدس

وكان لسكان القدس اليهود حي خاص بهم داخل الاسوار هو — حارة اليهود — اما خارج اسوار المدينة فانهم انشأوا عدة احياء جديدة خاصة بهم، عرفت منها ايام الطفولة مياشيرم ، والبخارلية ،والمنتفيوري . وعلى عكس ما يردده بعض العرب اليوم — لاغراض الدعاية — فأن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين وبين اليهود لم تكن ودية .. وكان بين الفريقين ما يشبه القطيعة باستثناء بعض العلاقات التجارية ، وعلاقات شخصية محدودة قامت بين افراد من الجانبين ... واني لاذكر تماما أن أهل القدس كانوا يكرهون اليهود

ويمقتونهم ، ويعتبرونهم — اجانب — ... وكنا معشر الاطفال نكره ان يمر يهودي في حي من احيائنا فنضايقه ونلاحقه ونطلق عليه من الاوصاف والاسماء ما تنطوي على الاهانة والنقمة فضلا عن رشقه بالحجاره .

اما الذي لا استطيع انكارهـ فهو ان اليهود لم يتعرضوا ، كمجموعة ، لاي اضطهاد او اعتداء او اذى على ايدي المسلمين والمسيحيين ، الذين كانوا يستضعفونهم ... ويعتبرونهم — مساكين — ويسمونهم — ابناء الميتة — .

الشعور بالعروبة

ولقد كان من المفروض ، وبحكم البيئة ، ان اتأثر ، كطفل ، بالجو الذي كانت القدس تعيش في ظله ... فأنشأ — طائفيا — كما نشأ الكثيرون من اترابي الاطفال ... لكن هذا المحظور لم يقع حيث ان البيت الذي ترعرعت فيه كان من البيوت القليلة التي تسرب اليها الشعور بالعروبة ، ووجدت « الوطنية العربية » طريقها اليها .. وكان ذلك بسبب علاقات متينة قامت بين والدي وبين زعماء المسلمين في القدس ، ابعدت الطائفية عن اجواء محيط بيتنا ، ومساهمته معهم في — الحركة العربية — التي غزت فلسطين بعد ١٩٠٨ ، الامر الذي ادنى « العروبة » من هذه الاجواء. ولكنني اعتقد أن الفضل الاكبر في نمو الشعور بالعروبة والوطنية العربية في نفسي ، وتأثري بهما ايام طفولتي الى مدى بعيد ، يعود الى — الحركة الارثوذكسية — التي قامت في القدس، ثم امتدت الى سائر انحاء فلسطين وشرق الاردن . وبالنظر لان هذه الحركة كانت عربية محضة ، وشكلت بحقيقتها وواقعها وتطوراتها ، قاعدة رئيسية من القواعد التي انطلقت منها الحركة الوطنية في فلسطين في القرن العشرين ، فانه من الحق والواجب التحدث عنها في هذا المجال .

الحركة الارثوذكسية

ان الملة الارثوذكسية هي اقدم الطوائف المسيحية في فلسطين واكثرها عددا وينحدر معظم ابنائها — خاصة في القدس والناصرة وعكا — من اصل عربي صميم يجد جذوره في ارومة الغساسنة والتغالبة وغيرهم من نصارى العرب في الجزيرة العربية وبادية الشام . وكانت الرياسة الروحية والدينية «والزمنية الى مدى بعيد» لهذه الطائفة تتمثل في البطريركية الارثوذكسية واكليروسها في القدس ، وكانت هذه الرياسة وطنية محلية « عربية » منذ القرن الاول للميلاد حتى الاحتلال العثماني لفلسطين في القرن الخامس عشر .

فعلى اثر هذا الاحتلال جاء القدس عدد من الرهبان « اليونان » من تركيا والجزر اليونانية نفسها ، للانخراط في سلك الاكليروس لخدمة المسيح والكنيسة ونظرا لما اظهره هؤلاء الرهبان من — الورع والتقى — ولاصالة الشعور

الديني في ابناء الطائفة المحلية واكليروسها ، فانهم رحبوا بالوافدين ترحيبا عظيما ، واعتبروا مجيئهم تعزيزا للارثوذكسية والكنيسة ، لا سيما بعد ان نزل بها ما نزل من المصائب والاضرار على ايدي الصليبيين ، وبعد ان اخذت الارساليات الافرنجية « اللاتينية » يتوالى وصولها الى القدس بعد الاحتلال العثماني لها ، الامر الذي كان يعتبره الروم خطرا على كيان الكنيسة الارثوذكسية وحقوقها التاريخية في الاماكن المقدسة المسيحية ، لا سيما في كنيستي القيامة والعذراء في القدس ، وكنيسة المهد في بيت لحم ، فما زال الغربيون يطمعون في السيطرة على هذه الاماكن المقدسة .

وعلى مر الايام تضاعف وفود هؤلاء الرهبان اليونانيين على القدس وانضمامهم الى الاكليروس والبطريركية ، وكان لهم برنامج خاص للسيطرة على البطريركية وصبغها بالصبغة اليونانية ، لم ينتبه له الارثوذكس الوطنيون. فلما اشتدت شوكة الوافدين ، استطاعوا ، في غفلة من الطائفة الوطنية ، وبمساعدة السلطات العثمانية « التركية » ايصال احدهم الى منصب البطريرك فعمل والبطاركة الذين جاؤوا بعده « وكانوا كلهم من اليونان » على صبغ البطريركية بالصبغة اليونانية ، وازالة كل اثر للوطنيين في الاكليروس والبطريركية ، فغدا ابناء الكنيسة الارثوذكسية ــ الطائفة ــ تابعين لسلطة روحية اجنبية الجنسية واللغة ، تتألف من قلة ضئيلة من اليونانيين ، وكان هؤلاء يعتبرون مواطنين عثمانيين ...

وبعد فترة طويلة من الزمن ، تنبه الارثوذكس الوطنيون الى ما دبر ضدهم، وعز عليهم ان تزول الصبغة الوطنية عن البطريركية ، فحاولوا مرارا استعادة مكانتهم وحقوقهم فيها ، ولكن الرياسة الروحية ــ اليونانية ــ احبطت هذه المحاولات ، بتأييد السلطات العثمانية ، وشددت سيطرتها على الطائفة ثم راحت تسعى الى صبغها بالصبغة اليونانية ايضا .

وعلى مر الايام والاعوام ، ضاق الارثوذكس العرب ذرعا بتحكم هذه الرياسة بهم ، وتسلطها على شؤونهم الروحية واحوالهم الشخصية ، فانطلق بعض قادتهم واعيانهم يجددون المحاولات للتخلص منها واستبدالها باخرى وطنية .

وكان مما شجعهم على الاقدام على هذه المحاولات فوز اهل دمشق وسورية في القرن الماضي بالتخلص من رياستهم الروحية الاجنبية « اليونانية » التي كانت قد فعلت بدمشق وبطريركيتها مثل ما فعلت بالقدس وبطريركيتها ، واستقلال بطريركية روسيا وبعض الكنائس الارثوذكسية في البلقان عن البطريركية الارثوذكسية ــ بطريركية الفنار ــ اليونانية في استامبول .

واتخذت انطلاقة الارثوذكس الوطنيين شكل تمرد وعصيان على الرياسة الروحية عام ١٨٦٠ ، وانجلى عنها قيام الحركة الارثوذكسية العربية ، لكن هذه الحركة لم يكتب لها النجاح في تحقيق اهدافها ، لعدة اسباب واعتبارات، كان في طليعتها مقاومة السلطات العثمانية للوطنيين وتأييدها المطلق للرياسة الروحية الاجنبية ، واخذ « الروم الارثوذكس » منذ قيام حركتهم الانف ذكرها، يعتبرون انفسهم عربا « وهم كذلك في الحقيقة » وليس مجرد طائفة من المسيحيين كما كان الحال قبل وثبتهم ، واعربوا عن شعورهم هذا بان وصفوا الحركة بأنها حركة « عربية » . وانطلاقا من هذه الحركة وذيولها ، تسللت « العروبة » الى عدد من بيوت الطائفة في القدس ، واستبد بها الشعور العربي. وكان بيت عائلتي واحد من هذه البيوت ، بل من اكثرها اندفاعا بالتحسس بالعروبة والمناداة بها ، حيث كان احد اجدادي « وهو عميد العائلة حينئذ » في طليعة قادة هذه الحركة « العربية »عام ١٨٦٠ وقد ناله ، كما نال عددا من زملائه ، الشيء الكثير من اضطهاد الحكام الاتراك الضالعين مع الرياسة الروحية اليونانية ، فساد العائلة جو عربي نشأت في ظله ، وقد نما واتسع، فيما بعد . وكان جدي هذا احد زعماء ثلاثة ابعدتهم السلطات العثمانية الى بيروت ــ مركز ولاية بيروت العثمانية ــ لمدة عام واحد وهم « سابا الغوري ــ حنا زخريا ــ موسى الصوابيني ــ » .

استئناف الحركة

لم يقبل الارثوذكس العرب بالنتيجة التي اسفرت عنها انطلاقتهم عام ١٨٦٠ فواصلوا مقاومتهم « ولو بشكل محدود » للسيطرة الروحية الاجنبية ، ثم رأوا في الانقلاب العثماني واعلان الدستور عام ١٩٠٨ فرصة مؤاتية للعمل فاستأنفوا نشاطهم وتشددوا في وجوب تحقيق مطالبهم العربية ، واصطدم ابناء الملة برجال الرياسة الروحية ومن كانوا قد جلبوه الى القدس من العائلات اليونانية ... وقاموا بمظاهرات عنيفة ضد «الاجانب» واحتلوا دار البطريركية والكنائس والاديرة وفرضوا عليها اللغة العربية والصلاة بها . وقد وجدت الحركة الارثوذكسية العربية تأييدا صادقا من المسلمين ، باعتبارها حركة وطنية عربية ، وحاولت السلطات العثمانية اخراج الارثوذكس العرب من البطريركية والكنائس والاديرة التي احتلوها بشتى الوسائل ومختلف الاساليب فلما فشلت مساعيها ، انزلت قواتها العسكرية الى المدينة مهددة باستعمال القوة ضدهم ، فهب المسلمون لاعلان تأييدهم لاخوانهم الارثوذكس ، وقاموا بمظاهرة ضخمة ، يقودها مفتي القدس نفسه المرحوم الشيخ كامل الحسيني وزعماء القرى المجاورة ، ضد اجراءات السلطة « المسلمة » ، مما حملها على العدول عنها ، واحالة الخلاف الناشب بين العرب الارثوذكس واليونانيين الى استامبول العاصمة ، التي اوفدت لجنة رسمية من كبار رجال الدولة

للتحقيق برئاسة « ناظم باشا » . وجاء تأييد المسلمين لاخوانهم الارثوذكس اكبر دليل على نمو الروح العربية والشعور بالعروبة في فلسطين .

وكان المرحوم والدي — وقد اصبح عميد عائلتنا — احد قادة الحركة الارثوذكسية بعد ١٩٠٨ ، واكثرهم اتصالا بجمهور الشعب وعملا في محيطه ... ونظرا للدور الرئيسي الذي قام به في تزعم المظاهرات واحتلال البطريركية والكنائس والاديرة ، فقد اتهمه الاتراك بالتمرد واثارة الفتنة ، فابعدوه الى بيروت « مركز الولاية » لبضعة اشهر ، عاد بعدها الى بيت المقدس يواصل جهوده في سبيل تعريب البطريركية الارثوذكسية حتى نشوب الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ . وكان من الطبيعي ان يسود البيت الذي نشأت فيه الشعور بالعروبة ، وان تدور الاحاديث فيه حول الصراع بين العرب والاجانب وحول حقوق العرب ووجوب تعريب البطريركية ، ومع اني لم اكن عندما بلغت « الحركة الارثوذكسية » ذروة قوتها في عام ١٩١٣ ، قد تجاوزت الاعوام السبعة من عمري ، الا ان جو « العروبة » الذي ظلل بيتنا كان له اكبر الاثر في تحسسي باني عربي، وفي دخول الشعور العربي الى نفسي .

الحرب العالمية الاولى

اذكر جيدا أن المرحوم والدي عاد من المجلس البلدي (وكان عضوا منتخبا فيه) في احد الايام الى البيت ، وكان قلقا ووجهه متجهما . فلما سأله اهل البيت عما به قال ان الاتراك دخلوا الحرب الى جانب المانيا (وان الطبل سيدق في اليوم الثاني .

ولم افهم معنى دق (الطبل) فافهمني والدي أن معناه اعلان حالة الحرب ، ودعوة الشعب الى (العسكرية) والاستعداد للقتال ، وقال : سآخذك معي غدا الى المدينة (وكنا نقطن ونتخذ حيا جديدا على مسافة بعيدة من المدينة القديمة) لتتفرج على ما يجري فيها . ولم أنم تلك الليلة من شدة الفرح والابتهاج توقعا للفرجة التي وعدت بها . واذكر أن والدي اصطحبني معه الى (دار المتصرف) ، فرأيت الاعيان والزعماء والوجهاء ورجال الدين و (الافندية) يملأون الدار ، ثم خرجوا وحولهم عدد لا يحصى من اهل القدس والقرى في موكب كبير ، يجوبون شوارع المدينة ، يهزجون ويغنون ، ويهتفون بحياة السلطان... ووصلوا ساحة(المسكوبية) خارج السور حيث جرت (عراضات) وتشكلت حلقات من لاعبي (السيف والترس) ... وكان الناس متحمسين ومبتهجين ... وفي اليوم الثاني (لدق الطبل) تبدل جو المدينة وفهمت من الاحاديث التي كانت تدور في البيت أن الناس جعلوا يتمونون .. وان الضباط

الاتراك أخذوا يجمعون الرجال والشبان لالحاقهم بالجيش العثماني .

وبعد ايام شاهدت بنفسي المئات من الرجال من القدس وقراها يساقون الى عمارة تقع امام القلعة كان يطلق عليها اسم (البخورة) كانت تجري فيها الفحوصات وسائر الاجراءات الطبية والصحية قبل تسفير الجنود الى المراكز المخصصة لهم . (هذه العمارة هي ملك لجمعية « لندن اليهودية » وهي جمعية بريطانية تبشيرية ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا) .

شعور الناس

لم اكن افهم معنى الحرب واهداف المتحاربين فهما حقيقيا صحيحا ، ولكني اذكر اننا معشر الاطفال كنا نعلم (أن الجيش العثماني) يقاتل الانكليز والمسكوب (الروس) والفرنسيين وأن (الجيش الالماني) يساعد العثمانيين. وكنت المس ، من خلال الاحاديث التي كانت تدور في البيت وبين الناس ، أن اهل القدس كانوا بوجه عام متحمسين للدولة العثمانية ، وكانوا يعتقدون بأنها ستنتصر على اعدائها ، ولا سيما أن الجيش الالماني (الذي قيل لنا ان القيصر (الامبراطور) غليوم يقوده بنفسه) يقاتلهم ايضا . وكذلك اذكر أن بعض المسيحيين ، وربما عدد كبير منهم ، لم يكونوا متحمسين للاتراك ، وان عواطف كل طائفة من طوائفهم كانت متجهة بوجه عام نحو اعداء الدولة ، الارثوذكس نحو روسيا واللاتين نحو فرنسا والبروتستانت نحو انكلترا ...

ثم لاحظت وفهمت من الاحاديث ، وكانت الحرب قد دخلت عامها الثاني ، أن حماس الاهلين للدولة العثمانية اخذ يخبو ويتضاءل ، وأن الكثيرين من المطلوبين للجندية كانوا يختفون عن عيون السلطات فرارا من الالتحاق بالجيش (وكان هؤلاء يطلق عليهم اسم « فرارات ») .

وأخذت تطرق مسامعنا ، نحن معشر الصغار ، اقوال يرهص بها الكبار ويهمسون ، تدل على انهم غدوا يتمنون النصر للانكليز ... وفهمنا — بقدر ما كانت عقولنا تستطيع استيعاب المفاهيم — أن الاهلين جعلوا يرون في الانكليز اصدقاء واحباء ، وأنهم يريدون طرد الاتراك من بلادنا ثم تسليمها لاهلها !

على الرغم من اليقظة التي وجدتسبيلها الى فلسطين نتيجة لقيام الحركة العربية الاستقلالية من ناحية ، والحركة الارثوذكسية العربية وذيولها من ناحية اخرى ، على الرغم من هذا فان الحديث بين العامة عن العربوالعروبة كان محدودا جدا ، وقلما كنا نحن الصغار نسمع به .

لكن هذا الوضع اخذ يتبدل ويتغير في مطلع ١٩١٦،وكنتحينئذ قد دخلتفي العاشرة من عمري ، حيث اصبحنا ، معشر الاطفال والفتيان الصغار ، نسمع آباءنا وكبارنا يتحدثون كثيرا عن « العرب والعروبة » ، ويتهامسون فيمابينهم حول وجوب التخلص من الحكم التركي وفصل البلاد العربية عن الدولـــة العثمانية . ولم نكن في الواقع ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لاعمارنا حينئذ ،نقدر معنى هذه الاحاديث والاقوال .. وكنا كل ما نعلمه من دروس الجغرافيـــا أن الاقطار الحجازية والعراقية والشامية « ومنها فلسطين » كانت اجزاء من الدولة العثمانية . وجعلنا نحن الصغار ، بالبداهة ، نكرر مثل اقوال الكبار ... وننظر الى الاتراك كاعداء وليس كأصدقاء ...

معـــارك الحـــرب

لم نكن نعلم أو نفهم شيئا عن المعارك الطاحنة المريرة التي كانت تدور في أوروبا بين المتحاربين .. بل لعل الكبار انفسهم كانوا يجهلونها ولا يعلمـــون عنها الا النذر اليسير جدا . فلم يكن (الراديو) موجودا حينئذ ... ولم تكـــن الصحف القليلة جدا التي كانت السلطات العثمانية تسمح لها بالصـــدور لتستطيع أن تذكر شيئا عن سير الحرب الا ما كانت تصدره المانيا أو تركيا من بلاغات عنها . واذكر أن السلطة العثمانية انشأت مكتبا للاعلام بالقرب مـــن باب الخليل في القدس ، كانت تنشر فيه صور المعارك التي كان النصر فيهـــا حليف الالمان ... وتعلق على ابواب المكتب بيانات بالخسائر الفادحة التي كانت تنزل بالروس والانكليز والفرنسيين ...

ولكننا سمعنا كثيرا عن معركة عسكرية كبيرة جرت على مقربة من بلادنا ، وهي معركة الترعة (الاسم الذي كان يطلق على قناة السويس حينئذ) ،وكان اهتمام الناس بها عظيما ...

فقد اعد احمد جمال باشا حملة عسكرية ضخمة ، قادها بنفسه لعبـــور (الترعة) واحتلال الاراضي المصرية ، وعلمنا ، من كبارنا وآبائنا أن هـــذه الحملة فشلت وعادت على الجيش العثماني بهزيمة كبيرة . وشعرنا ، بعـــد الذي سمعناه ، أن الانكليز اقوى بكثير من العثمانيين ...

النقمـــة والكراهيـــة

وتبين لنا في ١٩١٦ أن الاهلين كانوا يزدادون نقمة على الاتراك وكراهيـــة لجمال باشا (أحمد جمال باشا الذي عينته الدولة العثمانية حاكما عسكريـــا عاما لبلاد الشام ، وقائدا للجيش العثماني الرابع فيها وهذا الجيش هو الذي فشل في اقتحام قناة السويس) وكان السبب في هذه النقمة ما كان يطرق اسماعنا نحن الصغار من اقوال الكبار عن طغيان جمال باشا وجبروتـــه ، وظلمه للشعب واضطهاده للعرب ... وعن شنقه للكثيرين من اعيان البلاد الشامية وزعمائها وقادتها ، في ميادين دمشق وبيروت ..

وأذكر ، فيما أذكر عن ايام الحرب العالمية الاولى ، أن الناس كانوا يخافون جمال باشا ويرهبونه ... ويبذلون كل جهد مستطاع للابتعاد عنه وعـــدم التعامل معه وتجنب كل عمل يؤدي الى اغضابه ، فيزداد بطشه وجبروته . وانتقل هذا الشعور الينا معشر الصغار ، فاشتدت نقمتنا على جمال باشـــا وكراهيتنا له ، لا سيما بعد أن كنا نشاهد العشرات من ابناء القدس وقراهـــا معلقين على المشانق في ساحة باب الخليل او ساحة باب العمود ، لفرارهـــم من الجندية ، أو لاتهامات كانت توجهها اليهم المخابرات التركية ..

وكان جمال باشا شخصية قوية مخيفة ، وكان كثير التردد على القدس ، ويقيم خلال وجوده فيها في القصر العظيم الذي كان الامبراطور الالماني غليـــوم قد بناه على جبل الزيتون ، (اسمه أوغسطا فيكتوريا وقد جعل مستشفى بعد ١٩٥٢) . وكان جمال باشا يتجول في القدس في سيارة حمراء اللون ، تحيط بها سيارات تحمل حراسا مدججي السلاح .. وكان الناس يخلون الشوارع ويبتعدون عن موكب جمال باشا خوفا منه ورهبة !

كذلك كان الناس يكرهون أنور باشا ، وزير الحربية العثمانية ، ويخافونه كخوفهم من جمال باشا ، وينسبون اليه اصدار الاوامر لجمال باشا للقيـــام بأعمال البطش والارهاب ! واذكر أن انور باشا زار القدس خلال الحـــرب

(تمت الزيارة في اوائل عام ١٩١٦) فاقام له المسؤولون استقبالا حافلا ضخما في الشيخ بدر ، غربي مدينة القدس ، وقد اصطحبني المرحوم والدي الى المكان المعد لاستقبال انور باشا ، والمكان عبارة عن سرادق ضخم ازدان بالاعلام الالمانية والتركية ، وامتلأ على رحبه بالاعيان والوجهاء ورجال الدين وغيرهم من الذين « امرتهم» السلطة باستقبال أنور باشا . ودخل انور باشا السرادق ، وبعد أن صفق له المجتمعون ورحبوا به ، تفرس في وجوههم وغادر السرادق (ومعه جمال باشا) وركب سيارته (الالمانية) دون أن يصافح احدا ... ودون أن يرتشف شيئا مما اعد له من قهوة ومرطبات...وضاعفت هذه الزيارة (وعجرفة) انور باشا من كراهية الشعب له ولزميله جمال باشا، بل للاتراك عامة ...

٢. من الذكريات

العرب ... العرب

اتسع نطاق الحديث عن العروبة والعرب في جميع الاوساط ، ولكنه كان بصورة سرية وهمسا ، كما لا زلت اذكر ، خوفا من الاتراك ورهبة ، بصورة خاصة ، من جمال باشا وجواسيسه ، فقد كان من أيسر الامور عليهم اسناد تهمة الخيانة العظمى لمن يريدون ، لاسيما لمن يقبضون عليه « متلبسا » بجرم التحدث عن العرب والعروبة !

وكنت أسترق السمع ، الى ما كان يدور من أحاديث في مجالس الكبار ... وكان الجيران يقضون السهرة في أكثر الليالي في دارنا ، ولا حديث لهم الا الحرب وسيرها .. وكنت ، عندما يحين وقت انصرافنا الى الفراش ، احتج بالدرس والقراءة ، لارجاء موعد النوم ، وذلك لعلي أستطيع ان اسمع أطرافا من أحاديث السهرة ... وكان أكثر ما يهمني سماعه ما يقال عن العرب ... وكنا ، خلال الاوقات التي كان والدي يسمح بها لي ولاخوتي ، للعب مع أولاد الجيران ، كان الواحد منا ينقل الى الاخر ما طرق مسامعه من أنباء وأقوال .. وأذكر أننا فهمنا منها ان العرب قد (تحركوا) ضد الاتراك .. وكانت كلمة (العرب) تطلق في محيطنا على العرب البدو ، فتصورنا أن شبابهم ورجالهم ، وكانوا في نظرنا دائما (قبضايات) و (خيالة) أشداء ، جعلوا يهجمون على الاتراك ويغزونهم ... فالغزو كان صفة ملازمة لمفهومنا عن البدو والاعراب ..

الثورة العربية

كنا نعلم أن للقبائل العربية في شرق نهر الاردن ، (مشايخ) ورؤساء مشهورون بالفروسية والشجاعة ، ولكننا لم نكن نعرف أسماءهم ، باستثناء ما كنا نسمعه عن أسماء بعض مشايخ (الصخور) (والعدوان) (والحويطات) .. فانصرفت أذهاننا الى هؤلاء المشايخ ، وتخيلناهم وهم يقودون عشائرهم للهجوم على الاتراك ...

ولكن هذه الصورة للعرب ٠٠ وللبدو ٠٠ أخذت تتبدل شيئا بعد شيء ، حيث أخذنا نعلم أن هناك عشائر وقبائل كثيرة غير (الصخور) و (العدوان) و (الحويطات) وانها منتشرة في بلاد عربية أبعد بكثير من شرق الاردن ، وأوسع منه ٠٠٠ وجاء هذا التبدل بعد أن أخذت تطرق مسامعنا أنباء وأقوال عن حركات عربية في الشام (دمشق) وبيروت ، ضد الاتراك ٠٠ وعن أسماء (لمشايخ) كبار من العرب لم نكن نسمع بها ، أو نعرف عن أصحابها شيئا، قبل هذا ٠

ثم صرنا نسمع على ألسنة الاباء والكبار ، بل أيضا على ألسنة النسوة والامهات ، أحاديث (تكاد تكون علنية ٠٠) عن «ثورة» قام بها (الحجاز) ضد الاتراك ، يقودها زعيم اسمه الشريف حسين ، وأولاده علي وعبد الله وفيصل وزيد ٠ ولم نكن نعلم في الحقيقة معنى (الثورة) الصحيح ، ولا نعرف شيئا عن الشريف حسين واولاده ، وان كنا نعلم ـ من دروس الجغرافية ـ ان (الحجاز) قطر يقطنه المسلمون ، وان فيه أماكن دينية يقدسها المسلمون كما يقدس أهل القدس كنيسة القيامة وكنيسة المهد !

واشتدت بي الرغبة لمعرفة الحقيقة عن هذه «الثورة» وعن الشريف حسين واولاده ٠٠ وفي احدى الامسيات تجرأت على والدي وسألته عن معنى الثورة ٠٠ وعن الشريف حسين وأولاده ٠ وانتهرني والدي لسؤالي قائلا : بعدك صغير ٠٠ ولا تستطيع أن تفهم مثل هذه الامور ٠٠ ولكنني ألححت على والدي ، وقد انست منه عطفا على سؤالي ورغبة في محادثتي ، ان يشرح لي هذه الامور ،وقلت له اني لم أعد طفلا ٠٠ واني أستطيع أن أستوعب الامور وأن أحافظ على السر! فرأى والدي ، بعد تردد شديد ، أن يحدثني وأن يشرح لي معنى الثورة ! وأحسب أنه فعل ذلك حتى لا نشتط نحن الصغار في الاحاديث والتكهنات ، فيسمعها الاتراك ، ومن ناحية أخرى فاني كنت أشعر بأن والدي يحسن الظن بي ، ويعتقد أني قادر على الكتمان ، وأنه يعتمد علي (كما قال لي فيما بعد) ٠

ونبهني والدي بصراحة الى أن كل كلمة تصدر مني أو(من اترابي) تصل الى جواسيس جمال باشا ، فتكون نتيجة ذلك ضررا كبيرا ينزله الاتراك بابائنا ٠ ثم أفهمني والدي ما هو معنى الثورة ، وقال لي ان العرب دخلوا في حرب ضد الاتراك ، لاجل اخراجهم من بلاد العرب وجعل الحكم فيها لهم ٠ واذكر انه قال ايضا ، ان الشخص الذي يقود العرب في الحرب ضد الاتراك هو رجل

محترم وشيخ وقور ، اسمه الشريف حسين ، وانه يقيم في مكة وان هذه المدينة هي عاصمة الحجاز ٠ ولما استزدته ايضاحا عن هذا الشريف ، قال انه رجل مسلم متدين ، ومن أحفاد النبي محمد وانه امير الحجاز ، وانه كان صديقا للاتراك ، وهم مسلمون مثله ، ولكنه غضب منهم ونقم عليهم لانهم كانوا يهينون العرب ويعتدون عليهم ويشنقون أعيان ديار الشام ويسجنون رجال العرب البارزين ٠

وكان هذا الحديث الابوي هو العامل الاول الفعال الذي فتح عيني بصورة جدية على العرب وثورتهم وزعيمها الشريف ٠ فانصب اهتمامي على الوقوف على انباء الثورة ، وغدوت أتصور فرسان العرب الصناديد ، وهم على خيولهم الاصيلة يشنون هجماتهم على الاتراك ٠٠ وكنا نبتهج لكل نبأ نسمعه عن الثورة وصرنا نكره الاتراك بعمق ونعتبرهم اعداء لنا ٠٠

واتسعت الاحاديث عن الثورة ، في شتى الاوساط ، وانتقلت الى مدى بعيد من السرية والهمس الى العلانية ، ومن الاحاديث والانباء التي سمعتها ، على ما أذكر ، وتركت أثرا قويا في نفسي وشعوري ، ان الانكليز يساعدون الثورة العربية ويؤيدون الشريف حسين ، وان العرب اخرجوا الاتراك من الحجاز ، وانهم يتقدمون الى شرق الاردن في طريقهم الى فتح الشام ٠ وتركزت الاحاديث العامة على الشريف (الامير) فيصل بن الشريف حسين ، وبطولاته وغزواته ، وانه غدا للثورة العربية «جيش كبير جرار» يقوده فيصل لتحرير بلاد الشام من حكم الاتراك ، وان بعض الضباط البريطانيين بقيادة ضابط اسمه لورنس يعملون مع فيصل ٠ ومما زاد من اهتمام الناس بأنباء الثورة نشرات باللغة العربية ألقتها حينئذ الطائرات البريطانية على القدس والبلاد ، تعلن قيام الثورة وتقدمها ، وان الانكليز يناصرونها ، وتدعو العرب الى الفرار من الجيش العثماني والالتحاق بها ٠ وأذكر أن أهل القدس كانوا ، بوجه عام ، متحمسين للثورة وللامير فيصل ، وأخذ الكثيرون منهم يطلقون اسمه على مواليدهم الجدد ولكنهم كانوا يتحفظون ويكتمون هذه التسمية ، حتى لا يثيروا المزيد من غضب الاتراك عليهم ٠ وبالفعل فان الكثيرين من أبناء العرب في الجيش العثماني أخذوا يفرون منه بأسلحتهم وينضمون الى جيش فيصل ٠

وانطلقنا ، معشر الاطفال الكبار والفتيان الصغار ، نتحدث بشيء كثير من المفاخرة والمباهاة ، عن الثورة والشريف حسين والامير فيصل ، كما صرنا نعتبر أن الانكليز هم اخوان للعرب ، وجعلنا نتمنى لهم النصر في الحرب

ونرجو أن يأتوا الى القدس ليخلصونا من الاتراك وينقذونا من جمال باشا ٠

كذلك أذكر (وكنت قد تجاوزت العاشرة من عمري حينئذ) أن أهل القدس كانوا ينشدون – في حلقات خاصة كانوا يعقدونها في خفية عن الاتراك – أهازيج وأناشيد عربية عن الثورة والشريف حسين والامير فيصل واخوته ، وقد استطعنا بدورنا أن نستظهر بعض هذه الاناشيد والاهازيج ، واندفعنا ننشدها (أو ندندن بها ٠٠٠) دون أن نخافَ من الاتراك ، وأحسب أن حماس الناس للثورة وتوارد الانباء عن انتصارات الانكليز وهزائم الاتراك ، أطمع الاهلين بهم وأزال بعض الخوف من قلوبهم ٠٠٠

وفهمت أن هذه الاناشيد والاهازيج العربية الجديدة تسربت الى القدس من دمشق ، حيث كانت الحركة العربية على أشدها ٠ وأذكر أننا كنا نغني ،بصورة خاصة وبشكل حماسي ، نشيدا مطلعه :

أيها المولى العظيم فخر كل العرب
ملكك الملك العظيم ملك قحطان الاب

وهذا (المولى العظيم) هو الشريف حسين ٠ وكان من أسباب تحمسنا لهذا النشيد ما قيل لنا ، كما أذكر ، أنه من نظم المرحوم الاستاذ خليل السكاكيني، وهو مقدسي (ويقال ان أهل القدس متعصبون لكل ما هو مقدسي !) وكان الاتراك قد قبضوا على خليل السكاكيني (وهو من رجال الحركة العربية البارزين) ونفوه الى دمشق وزجوا به في أحد سجونها ٠ واستطاع بعض رجال الحركة العربية في دمشق تهريبه من السجن واخفاءه عن أنظار الاتراك ٠ وبعد أيام غادر السكاكيني دمشق سرا ، واتجه ، ومعه عدد من رجال الحركة العربية (المطلوبين) للاتراك ، نحو البادية ، وقضى عدة أسابيع يجوب الفيافي والقفار حتى وصل الى معسكر الامير فيصل قرب معان ٠ وأذكر أنه قيل لنا أن السكاكيني نظم هذا النشيد خلال رحلته هذه ٠

ومن الاناشيد والاهازيج التي لا أزال أذكر اننا كنا نرددها ، أغنية مطلعها : فيصل دخل الشام ، وزيد دخل معان ، يا عيني ٠ واخرى مطلعها : خط القتال ممدود ٠٠ ممدود عيني ممدود للبصرة ٠٠ وثالثة مطلعها : فيصل يا بن الرسول ٠٠ خلص بلاد الاسلام ٠

هذه أمور أذكرها تماما ، وأعتقد أنها ساهمت في تكوين الصورة الخلفية لحياتي السياسية والعامة ٠

الانكليز في القدس :

كثرت الاخبار عن تقدم الجيش البريطاني ، بقيادة قائد اسمه الجنرال اللنبي ، في فلسطين ، وعن انتصارات هذا الجيش على الاتراك ٠ ثم علمنا أن الانكليز وصلوا الى اللد والرملة واحتلوا منطقة باب الواد (وهي على مسافة ٢٥ كيلومترا تقريبا من القدس) ٠ ومما أذكره جيدا أن أهل القدس كانوا متحمسين للجيش البريطاني وباتوا يتوقعون قرب وصوله الى القدس ٠

وبعد مدة (شهر تشرين الثاني ١٩١٧) صرنا نسمع أصوات مدافع الانكليز وهي تطلق من جبال القسطل وبتير والنبي صموئيل وغيرها من المناطق غربي القدس ، على القوات العثمانية والالمانية ، وكنا نشاهد الجنود والضباط الاتراك بين قتلى وجرحى يصلون الى القدس ، فيدفن القتلى في مقبرة مأمن الله وأرض مجاورة لها ، وينقل الجرحى الى أريحا وشرق الاردن ٠

وكانت عائلتي ، ونحو عشرين عائلة عربية أخرى ، تقطن حي راتزبون (سمي الحي هكذا نسبة لاسم دير فرنسي كبير بني فيه منذ ١٨٧٥) وهي تبعد عن مدينة القدس القديمة نحو كيلومترين ٠٠ وكان بعض القرويين الذين يزورون الحي يقولون أن الانكليز أصبحوا قريبين من القدس ، وان طلائع جيشهم وصلت قرى قالونيه وعين كارم ولفتا ٠٠ غربي القدس ٠٠ وكنا في حي (راتزبون) نسمع حينئذ أصوات المدافع والرشاشات (كنا نسميها متراليوزات) والبنادق ، الامر الذي يؤكد اقتراب الانكليز من القدس ٠

وأذكر جيدا أنه في احدى أمسيات الشتاء (علمت فيما بعد أن ذلك كان في مطلع كانون الاول ١٩١٧) حضر الى حي راتزبون مدير بوليس القدس (وهو تركي) ممتطيا صهوة جواد أبيض جميل ، وقد أعجبنا بشجاعته لانه جاء وحده في وقت كانت الطائرات البريطانية تصطدم باستمرار بالطائرات الالمانية ٠٠ وطلب المدير المذكور مقابلة والدي الذي كان يلازم الفراش لعلة كان يشكو منها ٠٠ فسادنا خوف شديد حيث اعتقدنا أنه قادم لابلاغ والدي أمرا باعتقاله ونفيه من القدس ٠٠ فلما اجتمع بوالدي طلب اليه بكل رقة ولطف وأدب ، أن تنتقل عائلات الحي الى داخل المدينة ، لان الانكليز قد يقصفون الحي وان معركة كبيرة ستنشب معهم على مقربة منه ، والدولة تريد أن تجنب السكان كل ضرر وأذى ٠

وشكر والدي للمدير اهتمامه بسلامة الاهلين ، ووعده بتلبية طلبه ليلا خوفا على السكان من الاغارات الجوية خلال النهار ٠ ولما جاء الليل انتقلنا ، سيرا على الاقدام ، ونحن نحمل بعض المتاع ، الى حي مأمن الله القريب من أسوار القدس ٠ (كانت هذه أول هجرة لي من بيتي ٠٠ عقبتها هجرات أخرى كما سيأتي الحديث عنها فيما بعد) ، وتوزعت العائلات على بيوت الاهل والاصدقاء ٠٠ وأذكر اننا قضينا في حي مأمن الله أربع ليال ٠٠ قضينا الليلة الاخيرة منها ونحن في خشية من تصدع ابنية الحي لشدة قصف المدفعية البريطانية الذي كنا نسمعه ٠ وعند منتصف الليل توقف القصف ، فزال خوفنا لتحل مكانه خشية أخرى ٠ فقد جاء شرطي الى البيت الذي نزلنا فيه يطلب من والدي التوجه فورا ، رغم مرضه ، الى دار المتصرف ٠٠ فذهب اليها ونحن نعتقد انه لن يعود الينا ٠٠ وبعد نحو أربع ساعات قضيناها في قلق وتوتر ، عاد والدي وأنبأنا أن الاتراك قرروا الانسحاب من القدس ، لتجنيبها ويلات القتال والحفاظ على سلامتها وصيانة المقدسات من كل أذى ٠٠ وانهم كلفوا رئيس البلدية حسين سليم الحسيني وأعيان المدينة الذين اجتمعوا في دار المتصرف ، أن يسلموا المدينة الى الانكليز ، فيدخلونها سلما ٠

وأذكر جيدا اننا قابلنا هذا النبأ بسرور عظيم وحبور كبير ، وجعل الواحد منا يهنيء الاخر ، وأخذ الكبار يتبادلون القبلات ، ثم يقبلون اطفالهم بفرح ملحوظ ٠ ولكن والدي ظل واجما باهتا ومنكمشا على نفسه ، ثم امتلأت عيناه بالدموع ، فظننا انها دموع الابتهاج ٠٠ فسألته والدتي ، رحمها الله ، عما به فقال : لقد عشنا مع الاتراك قرونا وأجيالا ٠٠ وعرفناهم وعرفونا ٠٠ ولست أدري ماذا يخبيء الغد لنا ٠٠ وكيف يكون الامر مع الحاكمين الجدد (الانكليز)٠

وفي صباح اليوم التاسع من كانون الاول ١٩١٧ ذهب رئيس البلدية وبعض الاعيان الى حي الشيخ بدر (بالقرب من لفتا ٠٠ وتقوم على اثاره اليوم مستعمرة روميما اليهودية ٠٠) يحملون العلم الابيض ٠٠ وسلموا المدينة رسميا لضابط بريطاني جاء الى الشيخ بدر باسم القيادة العامة للجيش البريطاني ، وبعد برهة قليلة دخل الجيش البريطاني مدينة القدس من شمالها وجنوبها وغربها ٠٠ وخرج أهل المدينة والقرى المجاورة لها على بكرة أبيهم يستقبلون الانكليز بحماس عظيم ، وكان هتافهم وتصفيقهم يشق عنان السماء ترحيبا بالاصدقاء الانكليز ٠٠ الذين اعتبر الاهلون انتصارهم العظيم فوزا كبيرا للعرب ٠٠

ورجعنا ظهر ذلك اليوم الى حينا (راتزبون) فوجدنا بيوتنا كما تركناها ، لم تتعرض لاي أذى ، ولا لاي سلب أو نهب ، وذلك بفضل سهر السلطات التركية ٠٠ على الرغم من انهماكها بالحرب ٠٠

وأذكر أن مفرزة من الجنود الاسكتلنديين ، على رأسهم ضابط يتقن اللغة العربية ، طرقوا منزلنا يطلبون ماء ٠٠ فدعاهم والدي لشرب الشاي ، فلبوا طلبه ، ولما لم يكن عندنا (سكر) فقد قدم منه الضابط ، ما يكفي للشاي ٠٠ وتحدث الضابط ،بلغةعربية فصحى ، عن فرح بريطانيا لانقاذ القدس ، وقال ان الامير فيصل سيدخل قريبا الى دمشق ، وسوف يرسل نائبا عنه لاستلام القدس من الانكليز وجعلها العاصمة الثانية للدولة السورية العربية ٠٠ ولكن نائب فيصل لم يصل اطلاقا ٠٠ وكان كلام هذا الضابط أول كذبة رسمية عرفناها عن الانكليز ٠٠ منذ دخولهم لبلادنا (١) ٠

١ ـ حدث ان طلبة القدس قاموا بمظاهرة في ٢ تشرين الثاني ١٩٢٢ ضد الانكليز احتجاجا على صدور تصريح بلفور ٠٠ فانهال رجال البوليس البريطاني على المتظاهرين بالضرب ، ثم اطلقوا عليهم الرصاص ٠٠ وكان قائدهم هو نفس الضابط البريطاني الانف ذكره ٠٠ ولم اعد اتذكر اسمه ٠

٠٣

اللنبي يدخل القدس

انقضت بضعة ايام على دخول الانكليز الى مدينة القدس ، ظل الاهلون خلالها تائهين في أمواج الابتهاج ، لا ينغص عليهم سوى اصوات المدفعية البريطانية تقصف من مراكزها الجديدة في جبل الزيتون (الطور) القوات العثمانية والالمانية المنسحبة الى اريحا وشرق الاردن . وبعد مدة قصيرة سكتت اصوات المدفعية ... وعلمنا أن الانكليز وصلوا الى اريحا واحتلوها ونقلوا مدفعيتهم اليها استعدادا لاجتياز نهر الاردن واحتلال مدينة السلط التي جعل الالمان والاتراك يركزون قواتهم فيها .

واعلنت السلطات المسئولة ان الجنرال اللنبي ، القائد العام للقوات البريطانية التي زحفت على فلسطين من مصر عبر الترعة (قناة السويس) ، سيدخل مدينة القدس في موكب رسمي في يوم حددته هذه السلطات ، ففرح اهل القدس ، ومنطقتها ، لهذا النبأ وراحوا يستعدون لاستقبال القائد الكبير.

وفي اليوم المحدد لهذه الزيارة غصت الشوارع والساحات بافراد الشعب، فلما اقبل اللنبي ورهطه انطلق الناس يصفقون بحرارة وحماس . وقد حشرت نفسي بين جماهير الشعب على مقربة من مدخل القلعة . واني لاذكر ان الجنرال كان شخصا عظيم البنية (او هكذا هيء لي) وكان يمتطي جوادا (استراليا) ضخما ، وحوله عدد من كبار الضباط الانكليز ، وخلفه عدد من الضباط والجنود الفرنسيين والايطاليين ، على صهوات جيادهم . وكان هؤلاء يمثلون فرنسا وايطاليا حليفتي بريطانيا وارتفعت فوق الموكب اعلام الدول الثلاث .

وكما هي العادة في مثل هذه المناسبات ، انطلقت التعليقات والملاحظات على ما كان يجري . وسمعت احد الشبان العرب يسأل الذين حوله : لماذا لا يوجد

العلم العربي بين الاعلام الاجنبية المرفوعة ؟ اليس العرب حلفاء لبريطانيا ؟ فرد عليه شاب آخر يقول : انظر ... انه لا يوجد في الموكب ضابط عربي واحد ! فالتفت احد المتفرجين — واظن انه اجنبي يتقن اللغة العربية — وقال للشاب : الا ترى الضابط الكبير الذي يمتطي جواده ويسير الى يمين الجنرال ؟ انه ضابط عربي ، اسمه جبرائيل باشا حداد ، فهو يمثل العرب ! والعجيب أن الشاب لم يرد على التفسير السخيف . صحيح أن جبرائيل حداد هو رجل عربي (من اصل لبناني) ولكنه لم يكن يمثل العرب .. فهو موظف قديم في الحكومة البريطانية ، خدم في مصر والسودان ، وقيل انه كان يعمل في دوائر المخابرات . وانضم الى الجيش البريطاني ، ثم الحق بجيش الجنرال اللنبي واعطي فيه مركزا رفيعا ، ربما ليستطيع عن طريق استغلاله لهذا المنصب القيام بالواجبات المنوطة به !

الجنرال الصليبي

كانت الجهات المسئولة قد دعت ، بموجب بطاقات خاصة رؤساء الاديان والمجلس البلدي والوجهاء والاعيان وكبار الموظفين وممثلي القرى ، للاجتماع في الساحة الواقعة بين (القلعة) و (القشلة) قرب باب الخليل بالقدس لاستقبال الجنرال والسلام عليه والاستماع الى خطاب يلقيه من فوق منصة اقيمت له أمام مدخل (القلعة) الرئيسي .

فلما وصل موكب الجنرال الى الساحة انطلقت الاكف بتصفيق كان له هدير عظيم . وترجل اللنبي ورهطه عن خيولهم ، وصافح مفتي القدس الشيخ كامل الحسيني ، ورئيس بلديتها حسين سليم الحسيني ، وبطاركة النصارى وحاخام اليهود ... وبعد أن لوح بيده الى جمهور المجتمعين ، صعد الى المنصة واخذ يلقي خطابه المرتقب ، وكان (الجنرال حداد باشا) يترجمه الى اللغة العربية .

ولما كنت قريبا من الساحة ، فقد استطعت مشاهدة المجتمعين ، وما يجري فيها . فلما بدأ اللنبي خطابه قابله المجتمعون بالتصفيق والهتاف ، ولكنهم لم يلبثوا أن توقفوا عن التصفيق . ولما انهى اللنبي خطابه ساد الساحة هرج ومرج ، ورأينا مفتي القدس يغادرها غاضبا ، دون أن يصافح الجنرال ، ويتبعه الكثيرون من الحضور .. جرى هذا كله ولما يكن الاحتفال قد انتهى ولما يكن اللنبي قد غادر منصة الخطابة .

ولم ادر لماذا وقع الهرج والمرج ولماذا انسحب المفتي غاضبا متهيجا .. ولكني فهمت فيما بعد ، من حديث والدي لنا ونحن نتناول طعام الغداء ، ان المفتي وبعض الاعيان العرب استاؤوا من « الغطرسة » التي ظهرت على اللنبي وهو يلقي خطابه ، ومن لهجته القاسية ، ومن عدم اشارته بكلمة واحدة الى العرب وثورتهم .. وكظم المفتي والزعماء غيظهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن انفجروا بالغضب عندما تحدث اللنبي في خطابه عن الحروب الصليبية في القرون الوسطى واحتلال الصليبيين للقدس .. ولما انهى كلمته بقوله : « واليوم انتهت الحروب الصليبية » انسحب المفتي وعدد من الزعماء احتجاجا على هذا الكلام الذي تصفه الدبلوماسية السليمة بالرعونة والحماقة .

(واذكر اننا معشر الطلبة في الصف الرابع الثانوي في مدرسة المطران استظهرنا في احد الايام من عام ١٩٢١ قصيدة للمرحوم شوقي كان مطلعها :

يا فاتح القدس خل السيف ناحية
ليس الصليب حديدا كان بل خشبا

وشرح لنا استاذنا المرحوم خليل بيدس هذه القصيدة وقال ان احمد شوقي كان يخاطب فيها الجنرال اللنبي (فاتح القدس) وانه نظمها عندما بلغته انباء زيارة اللنبي للقدس ، وما جاء في خطابه عن الحروب الصليبية .. وما بدا على اللنبي من عنجهية وغطرسة وهو يلقي كلمته .

الابتهاج يستمر

ظل الاهلون ، على ما اذكر ، مبتهجين مسرورين لسقوط القدس بأيدي الانكليز ، على الرغم من حادث خطاب الجنرال اللنبي الانف ذكره ، الذي يبدو أن اثره اقتصر على فئة العلماء والزعماء والاعيان . (ولعل ابناء الطوائف المسيحية كانوا اشد ابناء القدس وبيت لحم حبورا بوجود الانكليز بالقدس) .

ثم حلت « مواسم » الاعياد السيدية (الميلاد ورأس السنة والظهور — الغطاس) لدى الطوائف المسيحية بعد نحو اسبوعين من الاحتلال البريطاني للقدس ، فاحتفل بها الناس ، ربما لاول مرة منذ اربعة اعوام ، بزهو وغبطة ... وقد امتلأت القدس وبيت لحم بالالوف من البريطانيين والفرنسيين

والايطاليين (معظمهم من قوات الحلفاء المسلحة) الذين اجيزوا لبضعة أيام للاحتفال بهذه الاعياد . وقد انفق هؤلاء مبالغ كبيرة من الاموال لشراء الطعام والشراب والمصنوعات الصدفية والخشبية والمسابح ، وسلع وتحف شرقية كانت مكدسة في المخازن والحوانيت منذ اندلاع نيران الحرب عام ١٩١٤ وقد استفاد السكان ، بوجه عام ، فوائد مادية كثيرة ، واذكر أن الكثيرين منهم كانوا يتباهون بأن ما جنوه من ارباح في هذه المواسم جاء حصيلة «للبركة التي اتى بها الاحتلال البريطاني »

اللغة الانكليزية

واقبل الشبان — بنهم شديد — على تعلم اللغة الانكليزية ، حيث شعروا بأن معرفة هذه اللغة غدت السبيل الى الوظيفة (والرغبة في التوظف عاهة مستوطنة في بلادنا ومستولية على عقول ابنائها) ، والوسيلة التي تساعد على القيام بالاعمال التجارية والسياحية . ولكن الاشخاص الذين كانوا يستطيعون تدريس اللغة الانكليزية من العرب ، كان عددهم محدودا .. فاستغلوا الوضع القائم وراحوا يفرضون اجورا عالية للتعليم .. ولم يجد الكثيرون من العاشقين للغة الحكام الجدد مايمنعهم من درسها على ايدي اشخاص من اليهود والاجانب وبعض الضباط البريطانيين الذين جعلوا يدرسونها خلسة ودون معرفة رؤسائهم لانهم كانوا يتقاضون اجورا لتدريسهم .

فرحة قصيرة ...

وكنا نحن معشر الفتيان ، نقضي اوقاتنا وايامنا في اللعب واللهو ، فلم تكن في القدس مدارس قد فتحت ابوابها حينئذ . وكثيرا ما كنا نتجول نهارا على مخيمات الجنود البريطانيين في القدس وحولها ، (لنتفرج) على الانكليز عن كثب .. فما زلنا نحبهم ونعتبرهم اصدقاء حميمين لامتنا .. ونشاهدهم يلعبون كرة القدم — اللعبة البريطانية التقليدية — كذلك كنا نقدم لمن نستطيع الاتصال بهم بعض الهدايا — كان معظمها من حلويات القدس وصور لمعالمها ومقدساتها — ليقدموا لنا بدورهم هدايا من السجائر والالبسة الصوفية الداخلية التي كانت شحيحة في القدس .

ولكن هذه الفرصة من المرح واللعب لم تدم طويلا ، بالنسبة لي ولاخوتي ، حيث بادر المرحوم والدي الى (حشرنا) في البيت لساعات غير قليلة ، لتلقي الدروس على ايدي معلمة — قديرةباللغة الانكليزية — استعدادا لدخول المدارس التي أعلن أن عودتها الى المدينة باتت وشيكة .

سلوك واخلاق ...

ولم يمض طويل وقت حتى بدأت الكراهية للانكليز تجد سبيلها الى قلوب العرب ، فقد كان الجنود (والضباط) الانكليز يقضون اجازاتهم الاسبوعية في الاحياء اليهودية في القدس ، حيث كانوا يجدون فيها كل ما يطلبونه وما يشتهونه ، ثم يعودون ، او يعادون ، الى ثكناتهم ومخيماتهم وهم في حالة سكر شديد ، افهمتنا المعنى الذي كان يقصده الناس بقولهم « سكرة انكليزية » !

واحسب أن الانكليز ظنوا انهم يستطيعون أن يستمتعوا في « الاحياء العربية » بمثل ما كانوا يستمتعون به في الاحياء اليهودية ... لذلك انطلقوا يدخلون الاحياء العربية ليلا ، وكان الناس يرحبون بهم ويقدمون لهم الشاي والقهوة والمرطبات .. ولكن الانكليز كانوا يريدون غير هذا .. فجعلوايطلبون الخمر .. والنساء .. مما اثار العرب وحملهم على رد الانكليز عن احيائهم بالحسنى في بادىء الامر ، ولكن ازاء اصرار الجنود والضباط البريطانيين على « مطالبهم » المنافية لاخلاق العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، لجأ العرب الى السلطات المسئولة لمنع الجنود والضباط من الدخول الى الاحياء العربية . ورفضت هذه السلطات التدخل ... فقرر الاهلون مقاطعة العساكر الانكليز وراح اصحاب المقاهي و (الحانات) العرب يغلقون ابوابها فور سماعهم بقدوم الجنود الانكليز الى الاحياء العربية ...

ونقم الانكليز على العرب واحيائهم ، فجعلوا يداهمونها وهم في حالةشديدة من السكر والعربدة ، ويعتدون على المارة ، ويحطمون ابواب الحوانيت والمخازن ، ويحاولون اقتحام المنازل بالقوة فيروعون الاطفال والنساءو الشيوخ . ازاء ذلك ، ونظرا لسكوت السلطات المسئولة عن سلوك جندها واخلاقهم البذيئة .. اضطر اهل كل حي من الاحياء العربية الى تشكيل حلقات من شبابهم لحراسة الاحياء وحماية السكان واموالهم ، ووقعت اصطدامات عنيفة بين الجنود وبين الشبان العرب ...

واذكر أن جنودا سكارى من الانكليز داهموا في احدى الليالي حي (مأمن الله) الذي كنا قد انتقلنا اليه للسكنى فيه ، واخذوا يعتدون على السكان ويطرقون ابواب المنازل (ببساطيرهم) العسكرية الثقيلة لكسرها والنفاذ منها الى ما كانوا يطلبون .. فاشتبك معهم شباب الحي في معركة عنيفة ، ابلى خلالها حسن زمرد بلاء حسنا .. وجرح بهرواته ثلاثة جنود في رؤوسهم .. وفي اليوم الثاني القت الشرطة العسكرية القبض على بعض شبان الحي .. وحكم على حسن زمرد المذكور بالسجن مدة ستة اشهربتهمة الاعتداء على افراد من قوات جلالته .

وتركت هذه الاعمال الانكليزية اسوأ الاثر في نفوس العرب ، لا سيما بعد أن تأكد لهم أن اليهود انفسهم كانوا يدفعون الانكليز في حالات كثيرة الى القيام بها .. فأخذ حب العرب للانكليز يستحيل الى مقت وكراهية !

العودة الى المدرسة

انقضت،بعداحتلال الانكليز للقدس ، عدة اشهر والمدينة بدون مدارس ، حيث لم يكن الاستقرار قد عاد الى البلاد تماما ، وأن حالة الحرب ما انفكت قائمة .

وفي اواخر صيف ١٩١٨ — وقد اتم الانكليز احتلال فلسطين واقتربت الحرب العالمية الاولى من نهايتها — شرعت دائرة المعارف تفتح المدارس ، وتشكلت لجان وجمعيات وطنية لانشاء مدارس اهلية مستقلة . وبدأت المدارس الاجنبية التي اغلقت ابوابها خلال الحرب تعود الى فتحها (باستثناء المدارس الروسية والالمانية والتركية والاسبانية أما المدارس الامريكية فلم تفتح ابوابها مكتفية بوجود مدارس انكليزية في القدس) وكان في طليعة هذه المعاهد مدارس الفرير والمطران (سان جورج) وصهيون (بيشوب غوباط) والكلية الانكليزية (وكان الاهلون يسمونها مدرسة الشباب) والمدرسة الايطالية .

مدرسة المطران :

وتزاحم أولياء الطلبة على أبواب هذه المدارس يحاولون ايجاد مقاعد لابنائهم فيها ، وكان التنافس والتسابق عظيما لادخالهم الى مدرسة المطران . وهذه مدرسة انكليزية اسمها الصحيح «سان جورج» ولكنها عرفت بمدرسة المطران ،

لان المطران الانكليكاني في القدس كان يشرف عليها ، وكانت عمارتها تقع بجوار الكنيسة الانكليكانية وضمن ممتلكاتها • وكانت هذه المدرسة قد اكتسبت شهرة عظيمة قبل الحرب العالمية الاولى فصارت تعتبر من أحسن مدارس القدس • وقد برز في الحياة العامة والاجتماعية وفي الحركة الوطنية الفلسطينية عدد غير قليل من الذين تخرجوا من هذه المدرسة قبل الحرب العالمية الاولى ، أذكر منهم ، على سبيل المثال ، شبلي الجمل وتوفيق صالح الحسيني وحلمي الحسيني وقسطندي لباط وجمال الحسيني وعزة طنوس ونجيب بوارشي وشريف النشاشيبي ويعقوب برتقش وجبران كوزما وغيرهم•

واستطاع والدي أن يلحقني بمدرسة المطران ، ففرحت العائلة بهذا (النجاح) فرحا عظيما • وجلست في امتحانات القبول التي أجرتها ادارة المدرسة لطلابها وخولتني نتيجة الامتحان أن أكون في صف يوازي الثالث اعدادي في عهدنا الحالي ، في حين أن الكثيرين من الطلبة الذين كانوا في مثل عمري ألحقوا بالصفوف الابتدائية •• وقد قدرنا ، على ضوء هذه النتيجة ، مجهود (المعلمة) التي كانت تدرسنا في البيت ومدى ما أفدناه منها ، فلولا هذه الدروس الخصوصية لما قيض لي الدخول الى الصف الذي دخلته • وكان معدل سن الطلبة في هذا الصف ١٦ عاما ، بينا كان عمري لا يتجاوز الثانية عشر عاما •

وبدأت الدراسة في تشرين الاول ١٩١٨ •• وقضيت في مدرسة المطران ما يزيد قليلا على أربعة أعوام ، وخرجت منها مطرودا لاسباب سياسية ، كما سيأتي ذكر ذلك في سياق الحديث •

المعلمون والاتراب :

كان المدرسون في مدرسة المطران من العرب والانكليز • وأذكر من الاساتذة العرب ، الذي درست عليهم خلال الاعوام التي قضيتها في هذه المدرسة : خليل بيدس ، معروف الرصافي (الشاعر العراقي المشهور) ابراهيم قمر ، سليم قعوار ، شريف النشاشيبي ، داود دعدس ، شكري الحرامي ، أمين الصيداوي، فوتي فريح ، عبد القادر الشهابي ، توفيق فرح ، حسن عوض ، روفائيل عبد النور (القرعة) نجيب جرمانوس •• أما الانكليز من المدرسين فاني أذكر منهم : مدير المدرسة ورئيسها كينيث رينولدز ، واوفريل ، ورايت ، وتريب ، وسرفانتي •

كان عدد الطلاب في الصفوف العالية (فوق الابتدائية) عندما بدأت مدرسة المطران عامها الدراسي الاول في ١٩١٨ ، يبلغ ١٢١ طالبا ، اعتبرهم جميعا من الاصدقاء والاتراب ، وان كان معظمهم أكبر مني سنا •• وكان عددهم ينقص عاما بعد عام ، بسبب تخرجهم أو لاسباب اخرى ، حتى تدنى هذا العدد في العام الذي تخرجت فيه الى سبعة طلاب .

كان هؤلاء الطلبة من أبناء القدس (وكانوا الاكثرية) ويافا وحيفا ونابلس وغزة والناصرة وعكا وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية • أذكر منهم : فؤاد سابا ، رجائي الحسيني ، حنا ضاهر ، حنا منصور ، سليم نزال ، فؤاد داغر لطفي عطا الله ، جورج حداد ، داود الحسيني ، سمعان داود ، جورج حشمة ، جمال طوقان ، روبرت تلحمي (كفلكنتي فيما بعد) ، الياس الخوري ، فهمي ترزي ، اميل اقديس ، نقولا قطان ، هنري غرابديان ، شفيق عصعوصة ، سالم الحسيني ، أميل قرط ، جورج فرح ، سليمان الحسيني ، ابراهيم بيدس ، خليل البديري ، وديع قعوار ، اميل بلان ، انطون حبايب ، أشيل افرينو ، وغيرهم وغيرهم ممن لم يعد من السهل علي حصرهم •

اعوام الدراسة :

اعتبر أن الاعوام التي قضيتها في مدرسة المطران كانت بهية مبهجة •• واني لاذكر الشيء الكثير عنها وعن ظروفها وحوادثها ، ولكني لن أثقل على القارىء في سردها ، مكتفيا بالكتابة عن الحياة السياسية والوطنية التي عشناها كطلبة، والتي أعتقد انها كانت أيضا من العوامل الهامة التي أثرت على اتجاهي وتحكمت في عقيدتي الوطنية وانتمائي السياسي المحلي •

وكنت ، ولا فخر ، من الطلبة الناجحين المتفوقين ، احتل دائما ، وخلال جميع أعوام دراستي ، احدى المرتبتين ، في صفوفي ، الاولى أحيانا والثانية أحيانا أخرى ، وقد بلغ من تفوقي ومواظبتي على الدرس والمدرسة ، أن رئيسها اختارني «عريفا» على الطلبة •• وساهمت كثيرا في الالعاب الرياضية التي اشتهرت بها مدرسة المطران •• ولعل هذا التفوق كان من الاسباب الرئيسية التي شفعت ببقائي في المدرسة رغم خروجي المتواصل على أنظمتها وتعليمات رئيسها التي تحذر على طلبتها التدخل في السياسة •• ورغم أمور أخرى كان منها (شيطنتي) وسخريتي من زوجة المدير الانكليزي •• لتعشقها تربية الكلاب •• واعتداءاتي المتواصلة على كلابها الاعزاء ••! ولم يكن لها أولاد ••

الحركة الوطنية الفلسطينية :

على اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى بتوقيع الهدنة بين ألمانيا والحلفاء في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، تبين لاهل فلسطين (وللعرب) ان بريطانيا خانتهم ، وبنت عليهم ، وغدرت بهم ، ونكثت بعهودها التي قطعتها للشريف حسين ، وانها كانت قد أصدرت تصريحا رسميا لزعماء اليهود (هو تصريح بلفور) تعهدت فيه بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ٠٠ كما تبين للعرب ان الحكومة البريطانية عازمة على البقاء في فلسطين (بعد اقتطاعها عن أمها سورية) وحكمها وانها ترفض طلب العرب باستقلالها ضمن الوحدة السورية ٠ فهب الفلسطينيون يقاومون الحكم البريطاني وتصريح بلفور ، ويطالبون بحقوقهم واستقلالهم وصيانة عروبة بلادهم ٠ ونتيجة لهذا الموقف الفلسطيني نشأت الحركة الوطنية الفلسطينية في مطلع عام ١٩١٩ ٠

أما نحن معشر الطلبة فأذكر اننا صرنا نتحدث فيما بيننا عن هذه الحركة ، وعن خيانة الانكليز للعرب ، وقد بلغ من بعض الطلبة أن غدوا ينظرون الى رئيس المدرسة ومعلميها الانكليز نظرات الارتياب والشك ٠ أما اليهود ، ولم يكن ، كما ذكرت سابقا ، ود بينهم وبين العرب ، فقد ازدادت كراهيتنا لهم !

وعلما بأننا لم نكن نفقه تماما الموقف السياسي ومعنى الحركة الوطنية الحقيقي ومغزاها الصحيح ، فان الحماس «للوطن» استبد بعدد غير قليل من طلبة مدرسة المطران ، فضلا عن طلبة سائر المدارس في القدس ، فوجدنا انفسنا وقد أصبحنا في خضم الحركة الوطنية نخوض غمارها ، رغم حداثة سن معظمنا ، الى جانب ابائنا واخوانهم ، الذين شكلوا «الجمعية الاسلامية المسيحية» لتمثيل العرب وقيادة حركتهم الوطنية ٠

رجال الحركة :

وأذكر من الاشخاص الذين تشكلت منهم «الجمعية الاسلامية المسيحية» في القدس ، السادة موسى كاظم باشا الحسيني (رئيس البلدية) وعارف باشا الدجاني وجميل الحسيني وانضوني الغوري (والدي) وخليل السكاكيني ،

وعبد القادر العفيفي ، وشكري الكارمي ، والياس مشبك ، وانضوني الحلبي ، وجودت النشاشيبي ، وحسام أبوالسعود ، واسحق البديري ، وشبلي الجمل وابراهيم الشماس ، بالاضافة الى اخرين من أعيان القدس وزعماء القرى ٠

والى جانب (الجمعية الاسلامية المسيحية) كانت هناك كتلة من الشباب تعمل بنشاط وحماس في الحقل الوطني ، متازرة مع الشيوخ والكهول من أعضاء الجمعية الاسلامية المسيحية وغيرهم من وجهاء المدينة ٠ والواقع أن هذه الكتلة من الشباب ، كما أثبتت الحوادث والتطورات فيما بعد ، كانت (نواة) الكفاح الفلسطيني واللبنة الاولى في بنيانه ٠ وأذكر اننا معشر الطلبة كنا نسمع عن أسماء جماعة كتلة الشباب دون أن يعرف معظمنا أشخاصهم ، فكان منهم أمين الحسيني ، واسحق درويش ، وكامل البديري ، وجميل الشهابي ، وابراهيم درويش ، وسعد الدين الخطيب ، وعبد اللطيف الحسيني ، وسعد الدين عبد اللطيف ومنيف الحسيني ٠

وتأسس في القدس أيضا في ذلك العهد ، على ما أذكر «النادي العربي» للعمل في الحركة الوطنية ، وانتخب لرئاسته أمين الحسيني (وكان معلما في «كلية روضة المعارف الوطنية» وهي مدرسة أهلية مستقلة ، أنشأها هؤلاء الشبان وبعض رجال العلم ، لتربية الجيل الجديد على مبادىء وطنية صرفة وقواعد أخلاقية تتفق مع تقاليد العرب وتاريخهم وتراثهم ٠ وأصبح هذا المعهد حصنا للحركة الوطنية وقلعة للمقاومة الفلسطينية ، ومعينا يصدر المجاهدين والمناضلين الصادقين) ٠

واعتبرنا نحن معشر الطلبة أن رجال الجمعية الاسلامية المسيحية هم زعماء الحركة الوطنية وأن من واجبنا أن نؤيدهم بما نستطيعه من جهود ، وأن نمتثل لتعليماتهم وأوامرهم ٠

٠٤

مظاهرات اذار ١٩١٩

كان شهر اذار من عام ١٩١٩ ، وأنا مولود في اذار ، المرة الاولى التي ساهمت فيها في عمل وطني ، ففي الاسبوع الاول من هذا الشهر أذاعت «الجمعية الاسلامية المسيحية» في القدس بيانا بالمطالب الوطنية ، ضمنته احتجاجها على تصريح بلفور واستمرار الاحتلال البريطاني ، ودعت فيه الى قيام مظاهرات سلمية في جميع أنحاء فلسطين ، للاعراب عن تمسك الشعب بمطالبه وعروبة وطنه • وفهمنا فيما بعد أن الحافز الاساسي الذي حمل الجمعية على الدعوة الى المظاهرات كان وصول لجنة (امريكية) لاستفتاء أهل البلاد بشأن مطالبهم ونوع الحكم الذي يريدونه لبلادهم ، وان الجمعية أرادت أن يعرب الشعب بمظاهراته عن تأييده الاجماعي لمطالب البلاد ورفضه لتصريح بلفور والحكم البريطاني •

كانت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا قد اتفقت خلال انعقاد مؤتمر السلام في باريس عام ١٩١٩ ، على ايفاد «لجنة امريكية ـ بريطانية ـ فرنسية» مشتركة الى الاقطار السورية (ومنها فلسطين) لاستفتاء الشعب في نوع الحكم الذي يريده والوقوف على مطالبه • ولكن بريطانيا وفرنسا لم تلبثا أن نكلتا بهذا الاتفاق ، فأرسل الرئيس ولسون ، لهذا الغرض ، لجنة امريكية صرفة ، عرفت باسم لجنة «كنغ-كرين» • وقامت هذه اللجنة بمهمتها ورفعت تقريرها الى الرئيس ، بينت فيه اجماع الشعب على رفض تصريح بلفور وتمسكه باستقلال سورية دولة موحدة • ولكن هذا التقرير لم يؤد الى أية نتيجة،لاسيما أن الولايات المتحدة الامريكية نفسها كانت أول من أهمله وتجاهل توصياته •

مظاهرة القدس

وفيما يتعلق بمظاهرة القدس الانف ذكرها فقد تقرر أن يجتمع المسلمون في ساحة المسجد الاقصى المبارك ، وبعد خروجهم منه ينضم اليهم المسيحيون ، فتطوف المظاهرة شوارع القدس الرئيسية ، ويسلم قادتها مذكرات بمطالب

البلاد الى القنصليات الاجنبية في المدينة (وكانت هذه القنصليات حينئذ على ما أذكر هي الفرنسية والامريكية والايطالية والاسبانية والبلجيكية) •

واتفق عدد من الطلبة في مدرسة المطران على «التغيب» عنها والاشتراك في المظاهرة في اليوم الذي حدد لها • وأجروا اتصالات مع بعض الطلبة في كلية روضة المعارف الوطنية ، والمدرسة الرشيدية (مدرسة حكومية) ومدرسة الفرير والكلية الانكليزية (مدرسة الشباب) ومدرسة صهيون (بيشوب غوباط الانكليزية) • فأبدى عدد من طلبة هذه المعاهد استعدادهم للاشتراك في المظاهرة

وعلم رئيس مدرسة المطران المستر رينولدز بقرار هؤلاء الطلبة ، فنشر ـ في اليوم الذي سبق المظاهرة ـ بيانا على «صابورة» القاعة العامة في المدرسة ، يحذر فيه على أي طالب من طلاب المدرسة الاشتراك في المظاهرة أو القيام بأي عمل سياسي • وتحدث أيضا بهذا المعنى للطلبة عند انتهاء الدراسة ، حين كانوا مجتمعين في (طابور) العصر الذي كان يعقد يوميا قبل انصراف الطلبة الى بيوتهم • وأذكر أن حديث المدير وبيانه تركا أثرا قويا في أوساط الطلبة ، فنزل بعضهم عند ارادة المدير ، وعصا اخرون منهم •• وكنت أحد (العصاة) !

وفي الوقت المحدد خرجت مظاهرة ضخمة من ساحة المسجد الاقصى يتقدمها موسى كاظم باشا الحسيني ، والى جانبه عارف باشا الدجاني والاعضاء المسلمون في الجمعية الاسلامية المسيحية • ولما اخترقت المظاهرة باب الحرم المعروف بباب السلسلة ، انضم اليها المسيحيون وعلى رأسهم الاعضاء المسيحيون في الجمعية الاسلامية المسيحية • وأذكر كيف بلغ الهتاف الحماسي عنان السماء عندما التقى المسلمون والنصارى وعندما تعانق (بيرق) شباب باب حطة و (بيرق) شباب الارثوذكس العرب •

وخرجت المظاهرة ، وكان عدد المشتركين فيها ضخما عظيما ، من المدينة القديمة عبر باب الخليل الى شارع مأمن الله ، وبعد أن سلم الزعماء مذكرة الى القنصلية الامريكية ، عاد المتظاهرون الى شارع يافا والمنشية ، حيث سلم القادة مذكرة الى القنصلية الفرنسية • وكانت القنصليات الايطالية والبلجيكية والاسبانية ، تقع في أواسط الاحياء اليهودية الجديدة (وجميع سكانها من اليهود) فاخترقت المظاهرة شوارع هذه الاحياء (دون أن يتعرض لها أحد من اليهود ••) ، وبعد أن قدمت المذكرات للقنصليات الاجنبية ، سارت المظاهرة

عبر حي المصرارة حتى ساحة باب العمود حيث تفرقت بهدوء بكلمة ألقاهـا موسى كاظم باشا الحسيني ٠

واشتركنا ـ نحن عصاة مدرسة المطران ـ وعدد غير قليل من طلبة سائر مدارس القدس ، في هذه المظاهرة ، وانضممنا الى حلقات «الاهازيج» الشعبية و «الاناشيد» الوطنية التي كانت تتقدم المتظاهرين ، وأذكر اننا كنا ننشد بحماس شديد ما كنا نعرفه من الاناشيد الوطنية ، ونهزج مع الهازجين باندفاع عظيم ٠ وكان أبرز الاناشيد وأكثرها ترديدا في المظاهرة «نشيد سورية» ومطلعه :

أنت سورية بلادي
أنت عنوان الفخامة

ونشيد راية العرب ومطلعه :

راية الاعراب دومي
نحن أهلوك

كما كان من أبرز الاهازيج ما يلي :

فيصل يا راس العربان
من مكة لبواب الشام

«صهيوني خذ ربعك وسر ٠٠»
«البلاد بلادنا واليهود كلابنا»
وغيرها من الاهازيج والاناشيد و «الشوباشات» !

المدير يحاسبنا

وفي اليوم الثاني للمظاهرة ذهبنا الى المدرسة كعادتنا ، فجمعنا (نحن الذين اشتركنا في المظاهرة) مدير المدرسة وانبنا تأنيبا شديدا ، وأنذرنا بعدم العودة الى مثل هذا العمل .. وقال انه وضع « علامة سوداء » في اضبارة كل واحد منا .. ثم هددنا بالطرد من المدرسة اذا قمنا بأي عمل سياسي ..

لجنة للطلبة

والواقع أن « تهديد » المدير لم يرهبنا .. حيث صممنا ، بعد انتهاء اجتماعنا به ، على الاشتراك في كل مظاهرة تقوم ! وكان اشتراك الطلبة في

المظاهرة الانف ذكرها ، انطلاقة لحركة طلابية فلسطينية ، اعتقد انها كانت أول حركة طلابية « سياسية » في دنيا العرب .

واتفقنا على تشكيل « لجنة سرية » من الطلبة ، تكون مهمتها توعية الطلاب ، وحشدهم في ايام المظاهرات ، واعدادهم للمساهمة في الحركة الوطنية ، وبالفعل تشكلت هذه اللجنة من عشرة طلاب « طالبان عن كل من مدارس المطران ، والروضة ، والرشيدية ، وصهيون ، وكلية الشباب »وكان عضوا هذه اللجنة السرية من طلبة مدرسة المطران هما : داوود الحسيني ، واميل الغوري !

المظاهرة الثانية

ودعت الجمعية الاسلامية المسيحية الى مظاهرة ثانية في شهر نيسان ١٩١٩ ، فقررت لجنة الطلبة وجوب اشتراكهم فيها ، سواء وافقت ادارات المدارس على هذا او لم توافق . وبذلت اللجنة نشاطا عظيما في تعميم الدعوة للاشتراك في المظاهرة واقناع الطلبة بتلبيتها .

وكانت الطائفة اليهودية (وقد بدأت تتدلل على السلطات ..) قد احتجت على الحكومة لسماحها للمظاهرة السابقة بالسير في الاحياء اليهودية . فلما تقرر القيام بالمظاهرة الثانية تدخلت السلطات ـ بالنصح والارشاد ! ـ لدى الزعماء العرب لحصر المظاهرة في الاحياء العربية ، تحسبا من حدوث اصطدام بين العرب واليهود . ولما كان الزعماء قد دعوا الى مظاهرة سلمية ، ولم تكن لهم اغراض عدوانية ، فانهم وافقوا على عدم اختراق المتظاهرين الاحياء اليهودية .

ووقع تطور خطير بالنسبة « لوحدة الصف » العربي ، دل على تعاون المسلمين والمسيحيين الاكيد ، ففي اليوم المحدد للمظاهرة احتشد الاهلون من المسلمين والمسيحيين في ساحة الحرم الشريف نفسه ، ثم خرجوا في مظاهرة كانت اضخم من المظاهرة الاولى . واتجهت المظاهرة الى حي الواد فباب العمود ومن ساحته الى الباب الجديد . وكان عدد كبير من الطلبة بين المشتركين في هذه المظاهرة ، وتشكلت منهم مواكب طلابية صرفة تنشد وتهتف وتهزج .

وتوقفت المظاهرة في الباب الجديد ، أمام عمارة (نوتردام) الفرنسية ، للاستماع الى الخطباء . واذكر منهم استاذنا خليل بيدس — وقد القى خطابا حماسيا ناريا — وممحود عزيز الخالدي وعبد الفتاح درويش . وازداد المتظاهرون حماسا بعد الخطب التي القيت ، فاتجهوا الى ساحة (المسكوبية) الفسيحة . وهناك القى الشاعر العراقي المشهور ، معروف الرصافي ،قصيدة عصماء نظمها خصيصا لمناسبة المظاهرة ، واثارت هذه القصيدة حماس الشعب لا سيما لما اشتملت عليه من دعوة لتآخي القرآن والانجيل .

ثم القى موسى كاظم الحسيني كلمة في المتظاهرين ، شكرهم فيها وحياهم، ثم اعلن انتهاء المظاهرة .

المدير ناقم

وفي اليوم الثاني للمظاهرة ذهبنا الى المدرسة كعادتنا اليومية ، فوجدنا المدير متجهما غاضبا ، فدعانا الى الاجتماع به ، ليردد الانذارات والتهديدات التي سمعناها منه في المرة السابقة . ولكن بعضنا رد عليه بقوة ، وقال : ما دام اساتذتنا (معروف الرصافي وخليل بيدس) قد اشتركوا في المظاهرة وخطبوا فيها ... فكيف يحرم طلبتهم من مثل هذا الحق ؟؟ وسكت المدير على مضض ... وانتهى الامر عند هذا الحد !

أمين الحسيني

انقضى ما بقي من عام ١٩١٩ دون مظاهرات ودون حوادث ، وانصرفت جهود القادة والزعماء لتوسيع نطاق الحركة الوطنية لتشمل جميع انحاء فلسطين ، وتنظيم مقاومة جدية للحكم الاجنبي والحركة اليهودية . وكنا نحن معشر الطلبة نتابع انباء الحركة الوطنية وتطوراتها ، دون أن يكون لنا أي اشتراك مباشر فيها . وعلمنا أن زعماء القدس وفلسطين عقدوا مؤتمرا عاما في القدس (المؤتمر العربي الفلسطيني الاول) في ١٩١٩ وأن المؤتمر قرر رفض تصريح بلفور والهجرة اليهودية ووجوب استقلال فلسطين ضمن الوحدة السورية . وانتخب المؤتمر المذكور لجنة تنفيذية برئاسة موسى كاظم الحسيني للعمل على تنفيذ قراراته وقيادة الحركة الوطنية ، وبذلك انتهى دور الجمعية الاسلامية المسيحية في القدس ، والجمعيات المماثلة لها التي كانت قد تشكلت ايضا في مختلف مدن فلسطين ، وحلت مكانها اللجنة التنفيذية .

واذكر اننا صرنا نسمع الناس يتحدثون باهتمام عن رجل اسمه الحاج أمين الحسيني ، وعن نشاطه وجهوده في الحقل الوطني ، وانه كان يتجول في فلسطين لتجميع الصفوف وتنظيم المقاومة الفلسطينية وأن الفضل في انعقاد المؤتمر الفلسطيني الانف ذكره ، يعود الى مساعي أمين الحسيني والشبان الذين كانوا يعملون معه في النادي العربي .

ولم تكن لي اية معرفة بالحاج أمين المذكور ، ولكن الشوق لرؤيته والتعرف عليه استبد بي ، وظننت انه رجل متقدم في السن . وسألت والدي عن هذا الشخص المرموق ، فقال لي انه شاب صغير السن ، متحمس ولكنه موزون وبعيد النظر وهو ابن مفتي القدس الراحل واخ مفتيها الحالي ، وانه معلم في كلية روضة المعارف الوطنية . ثم سألت والدي عما اذا كان يعرف الحاج أمين شخصيا ، فأجاب ، كما اذكر ، انه يعرف جميع رجال الاسرة الحسينية ،وأن احد كبارهم صديق عزيز له (المرحوم سعيد الحسيني) ، أما شبابها وفتيانها فليس له معرفة وثيقة بهم . أما الحاج أمين فقال والدي انه عرفه من خلال الاجتماعات التي كان يعقدها رجال القدس استعدادا لمقابلة لجنة الاستفتاء ، حيث كان الحاج أمين يحضر بعضها ، وانه كان (لولب) حركة الاستعداد لمجابهة اللجنة المذكورة بمطالب البلاد ، وانه زار عدة مدن وقرى فلسطينية لتوعية الشعب وتهيئته . وقال والدي انه معجب جدا بهذا الشاب وانه يتوقع له مستقبلا باهرا .

وجعل اترابي في المدرسة من ابناء الاسرة الحسينية يتحدثون الي عن الحاج أمين الحسيني واعماله ، مما زادني رغبة في التعرف عليه .. واذكر أن مباراة رياضية (في كرة القدم) جرت على ملعب كلية الروضة بين فريقها وفريق مدرسة المطران في احد ايام كانون الاول ١٩١٩ (وفاز فيها فريق المطران) . ولم يكن في الملعب (مدرج) كما هو الحال اليوم في معظم الملاعب ، ولكن المشرفين على المباراة اقاموا سرادقا جلس على كراسي صفت فيه ، الاعيان والوجهاء واساتذة المدارس . وكنت بين طلبة مدرسة المطران المحتشدين في ناحية من الملعب لتحية فريقهم وتشجيعه ، يقابلهم على ناحية اخرى من الملعب طلبة الروضة . وفيما كانت المباراة دائرة ، قال لي صديقي التلميذ سليمان الحسيني ، أن الحاج أمين بين الجالسين في السرادق ، واشار اليه باصبعه .. وهكذا رأيته لاول مرة ، وعن بعد .. وكان يلبس بدلة افرنجية ويعتمر الطربوش .. واستغربت في الحقيقة ، أن يكون شابا في مقتبل العمر ، جميل الطلعة ، حيث كان قد رسخ في مخيلتي انه رجل كبير (متقدم في السن) وقد يكون هذا الانطباع قد جاءنتيجة لكثرة ما كنا نسمعه عنه .

(طوشـــات) وقتال

وفي مطلع عام ١٩٢٠ شاع نبأ بين الطلاب بأن « طوشة » (معناها الدارج اصطدام او قتال) وقعت في ملعب كرة القدم في حي البوخارلية اليهودي ، بين شباب القدس وشباب اليهود ، وأن شبابنا تغلبوا على اليهود وجرحوا عددا منهم ، وأن البوليس قبض على بعض شباب القدس ووضعهم في السجن . وترك هذا النبأ اثرا قويا في نفوس الطلاب ، فسادهم حماس شديد . وكان هذا الحادث اول حادث اصطدام بين العرب واليهود في القدس . (لم نكن ندري حينئذ أن اصطدامات دامية قد وقعت خلال عام ١٩١٩ بين العرب واليهود في منطقة يافا وشمال فلسطين وبين العرب والانكليز في سمخ وعكا) .

وتبع هذا الحادث حوادث أخرى ، كان الطلبة يتحدثون عنها بحماس عظيم ويفاخرون بها . ومما أذكره أن اليهود قاموا بمظاهرة بالقرب من المنشية (شارع يافا) كانوا يحملون فيها العلم (الصهيوني) ، فأهاج منظر المظاهرة والعلم شعور بعض الشباب العرب الذين كانوا في المنشية ، فهاجموا ، رغم قلة عددهم ، المتظاهرين اليهود وضربوهم وفرقوهم ومزقوا العلم الصهيوني ، وقبض البوليس على بعض المهاجمين العرب ، كان بينهم ، على ما أذكر من الاسماء ، اسحق درويش ، وتوفيق رأفت الحسيني وصبحي الشهابي .

ومن (الطوشات) التي سمعنا عن وقوعها (ووقعت بالفعل) اصطدامات بين العرب واليهود في شارع يافا واحياء راتزبون ، والمونتفيوري، ومياشيريم وغيرها من الاحياء التي يسكنها اليهود .

وتوترت الاوضاع في القدس نتيجة لهذه الاصطدامات ، وسمعنا كبارنا يتحدثون عن خطورة الموقف ويتكهنون عن احتمال حدوث (مذبحة) بين العرب واليهود ! وقد حملنا (طيشنا) وحماسنا ـ نحن الطلبة ـ على تعمد المرور من الاحياء اليهودية ، ونحن في طريقنا الى بيوتنا بعد (الانصراف) من المدارس تحديا لليهود .

المواسم الدينية

كانت تجري في فلسطين ، كل عام ، ما يعرف بالمواسم الدينية ، مثل موسم النبي موسى في القدس في أسبوع الالام عند المسيحيين الشرقيين ، وموسم النبي صالح في الرملة في الاسبوع الذي يلي عيد الفصح الشرقي ، وموسم النبي روبين في جنوبي يافا في الخريف . وموسم المنطار في غزة وموسم النمل في المجدل وغيرها .

وتعود هذه المواسم في أصلها الى عهدي صلاح الدين الايوبي والمماليك . فبعد أن حرر المسلمون فلسطين من الاحتلال الاجنبي (الصليبي) في القرون الوسطى ، سمح حكامهم ، ابتداء من صلاح الدين ، لاهل أوروبا (الافرنج) بالمجيء الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة المسيحية ولممارسة العبادة فيها . ولم يضع الحكام المسلمون أي قيد أو شرط على حرية الافرنج في زيارة فلسطين أو تعبدهم فيها . فكانوا يأتون الى البلاد بأعداد كبيرة ضخمة في المناسبات الدينية كأعياد الفصح (في القدس) والميلاد (في بيت لحم) و (ضابيطا) في يافا .

ونظرا لان الفرنج (الصليبيين) ما انفكوا ، رغم هزيمتهم المنكرة على أيدي العرب والمسلمين في القرون الوسطى ، يطمعون في العودة الى فلسطين والاستيلاء على القدس ، فقد خشي الحكام المسلمون أن ينتهز الافرنج هذه المناسبات وحشودهم الكبيرة للانقضاض على السلطات والسيطرة على البلاد ، فقرروا ، احتياطا وتجنبا لكل مفاجأة ، انشاء هذه المواسم في الايام التي يكثر فيها عدد الزائرين الاجانب ، وكان الغرض من المواسم حشد أكبر عدد من المسلمين في المنطقة التي يجتمع فيها الافرنج أيام زيارتها ، استعدادا لاحباط كل مؤامرة يقومون بها ، وتأهبا لمقاتلتهم عند الضرورة . وكانت هذه المواسم تنتهي بانتهاء زيارات الافرنج للمناطق الفلسطينية . واستمرت هذه المواسم خلال عهد الحكم العثماني لفلسطين ، ولكنها اتخذت طابعا دينيا محضا ، وغدت (تقليدية) عادية لا أكثر ولا أقل .

موسم النبي موسى

وكان موسم النبي موسى في القدس ، من أهم هذه المواسم وأعظمها شأنا وموعده السنوي يصادف أسبوع عيد الفصح (أسبوع الالام) الذي كان يبلغ فيه عدد الزائرين الاجانب ذروة ضخامته . فكان يحتشد المسلمون في القدس ،

ثم تنتقل الالوف منهم لزيارة مقام النبي موسى (على مسافة ٢٥ كيلومترا الى الشرق من القدس ـ قرب اريحا) ويبقون فيه بضعة أيام ثم يعودون الى القدس ويقيمون فيها يوم الجمعة (العظيمة) عند المسيحيين ، استعدادا للطوارىء · ثم كانوا يتفرقون ويعودون الى مدنهم وقراهم يومي السبت والاحد ، حين يكون الصليبيون قد غادروا القدس ·

(كان الافرنج يغادرون القدس بعد عيد الفصح ويحتشدون في الرملة) لزيارة برج الصليبيين فيها يوم الجمعة التالية · فأنشأ الحكام المسلمون موسم (النبي صالح) في الرملة ، وفيه يحتشد المسلمون من المنطقة الوسطى ، ثم ينتهي الموسم بمغادرة الصليبيين الرملة الى يافا فالى سفنهم للعودة الى ديارهم ·

في عهد الحكم البريطاني

وجرى أول احتفال بموسم النبي موسى في القدس ، بعد احتلال الانكليز لها ، في نيسان ١٩١٨ ولكنه اتسم بالطابع الديني والمظهر الرسمي ·

وعلى اثر قيام الحركة الوطنية الفلسطينية بادر قادتها الى السعي لصبغ المواسم بالصبغة الوطنية ، وبصورة خاصة موسم النبي موسى · ومن الحق والانصاف أن نذكر أن أول من دعا الى هذا كان الحاج أمين الحسيني وزملاؤه الشباب الذين كانوا يعملون معه في الحقل الوطني · واستطاع الحاج أمين البدء في تحقيق هذه الفكرة عام ١٩١٩ ونفذها عام ١٩٢٠ ثم زادها رسوخا وتأكيدا بعد أن تولى منصب مفتي القدس عام ١٩٢١ ثم منصب رئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى عام ١٩٢٢ · فقد تحول موسم النبي موسى (فضلا عن سائر المواسم) الى مواكب وطنية ومظاهرات شعبية تعلن فيها مطالب البلاد وجعل وسيلة للتوعية واثارة روح الحماس والمقاومة والتصميم في نفوس أبناء الشعب · وقد بلغ من عمق المظهر الوطني والسياسي الجديد لموسم النبي موسى أن المسيحيين العرب كانوا يشاركون فيه (على الرغم من الصبغة الدينية التي ما انفكت تلازمه) ·

واني أرى من الواجب التطرق قليلا الى الطريقة التي كان يجري بموجبها موسم النبي موسى في القدس ، لا سيما ان معظم أبناء الجيل الجديد من شعبنا الفلسطيني لا يعرف شيئا عن هذا الموسم ·

يصادف موسم النبي موسى اسبوع عيد الفصح (أسبوع الالام) عند المسيحيين (الشرقيين) · فقبل عشرة أيام من أحد الشعانين لدى المسيحيين كانت تجري (المناداة) في يوم الجمعة ، لموسم النبي موسى ·· وكانت هذه (المناداة) تأخذ شكلا دينيا ·

ويوم الاربعاء (الذي يسبق أحد الشعانين) كان الموسم يبدأ بمواكب ومظاهرات يقوم بها أهل قرى القدس ، فيستقبلهم فيها شباب القدس في موكب كبير · وفي يوم الخميس كان موكب أهل نابلس وقراها يصل الى ضواحي القدس الشمالية ، فيستقبله لدى وصوله موكب أهل القدس وقراها ، ثم يتجه الجميع في مواكب ضخمة حماسية الى المسجد الاقصى ·

ويوم الجمعة (بعد صلاة الجمعة في المسجد الاقصى) كانت مواكب القدس وقراها ونابلس وقراها تخرج في مظاهرة شعبية ضخمة من المسجد الاقصى يسير في مؤخرتها مفتي القدس على صهوة جواد وحوله العلماء ومتولو وقف النبي موسى وحاملو الاعلام وعدد من العلماء والاعيان · ويتجه موكب النبي موسى مخترقا أحياء المدينة الشرقية الى باب الاسباط (باب ستنا مريم) فطريق ستنا مريم فطريق اريحا الى مكان «رأس العمود» ـ على مقربة من قرية سلوان ـ حيث كان يقام سرادق كبير يجلس فيه الاعيان والوجهاء ورجال الدين من مسلمين ومسيحيين وممثلو السلطة ، فيستقبل علم «النبي موسى» استقبالا شعبيا ورسميا · وينتهي الموكب عصر يوم الجمعة ، ثم يتوجه المفتي وصحبه ،وألوف من المحتفلين ، الى مقام النبي موسى · وكان الناس يحتشدون بالالوف على جانبي الطريق الذي يسير فيه الموكب ، يحيون المفتي ويصفقون للموكب الذي كانت تتشكل منه حلقات متعددة ، بعضها للاناشيد وبعضها للاهازيج وبعضها الاخر للعبة (السيف والترس) ·

ويوم الاحد (أحد الشعانين) كان أهل «جبل الخليل» يصلون الى القدس بموكب ضخم ، فيستقبلهم لدى وصولهم مواكب القدس ونابلس والقرى ،وكان أهل الخليل يقضون ليلتهم في القدس ثم يستأنف موكبهم السير يوم الاثنين عبر شوارع القدس الى رأس العمود فمقام النبي موسى ·

وكان يوم الخميس هو اليوم الذي يعود فيه الزائرون لمقام النبي موسى الى القدس · وهذا اليوم هو أروع الايام في الموسم وأعظمها · فصباح هذا اليوم

يصل الى رأس العمود المفتي وصحبه • وبعد اجراء الاستقبال الرسمي والشعبي «لبيرق النبي» موسى العائد من مقامه ، يتجه المحتفلون (المتظاهرون) الى ساحة الحرم الشريف في القدس ، في مظاهرة عظيمة جليلة ، تضم مواكب القدس ونابلس والخليل والقرى •

أما يوم الجمعة (الجمعة العظيمة المقدسة لدى المسيحيين) فكان يجري احتفال ضخم في الحرم يعرف (بزفة الاعلام) ينتهي بخروج أهل الخليل في مظاهرة ضخمة عائدين الى مدينة الخليل وفي يوم السبت يعود أهل نابلس في مظاهرة ضخمة اخرى الى نابلس ثم ينتهي الموسم •

وكان عدد المشتركين في الموكب يقدر بنحو (٢٥) ألف شخص وعدد المتفرجين بنحو (٧٥) ألف نسمة •

٥. من ذكريات... ايام الدراسة

التاهب للموسم

ومما أذكره تماما اننا معشر الطلبة في القدس اتفقنا في أوائل اذار ١٩٢٠ – بناء على توجيه «لجنة الطلبة» التي ما انفكت تعمل في سرية وكتمان – على الاشتراك بشكل بين ظاهر في موسم النبي موسى الذي اقترب موعده • وفي الوقت نفسه اتجهت نية الطلبة ايضا نحو تحويل موسم «سبت النور» الذي يحتفل به سنويا في القدس المسيحيون العرب ، الى موسم وطني سياسي ، على غرار ما فعله قادة شباب الحركة الوطنية بالنسبة لموسم النبي موسى • وتشكلت لجنة فرعية خاصة من الطلبة «المسيحيين» للاتصال بالمخاتير و «شيوخ» شباب الارثوذكس العرب لتحقيق هذه الغاية • وشعرنا بقيام دعاية واسعة النطاق في أوساط القدس وغيرها من المدن والقرى ، لتقوية موسم النبي موسى ، وحشد أكبر عدد مستطاع من الرجال والشباب للاشتراك في مواكبه • وقبيل حلول موعد الموسم وزعت في القدس (وكذلك في نابلس والخليل كما عرفنا فيما بعد) مئات النسخ من «كراس» صغير ، كان لون غلافه اخضر ، تضم صفحاته الخمس عشرة الاناشيد الوطنية والاهازيج الشعبية ، ليتعلمها الشباب ويستظهرونها تمهيدا لانشادها وترديدها أيام الموسم • ولم يذكر على «الكراس» اسم أو أسماء الذين وضعوه • وتهافت الشباب والطلبة على هذا الكراس تهافتا عجيبا ، وأخذوا ينشدون أناشيده ويغنون أهازيجه في شتى المناسبات وقبل بدء الموسم •

كان موعد موسم النبي موسى في الايام العشرة الاولى من شهر نيسان ١٩٢٠ ولما كانت مدارس القدس معطلة حينئذ (اجازة الربيع) فقد استطعنا نحن الطلبة أن «نتفرغ» للتفرج على مواكب الموسم المختلفة و «الاشتراك» فيها • وبدأ الموسم ، وكان الحماس العظيم قد استبد بالشعب ، يوم الاربعاء في ٣١ اذار ١٩٢٠ بقدوم مواكب قرى القدس الى المدينة والحرم الشريف في مظاهرات

و «عراضات» وطنية . وفي اليوم الثاني الاول من نيسان وصل الى حي «الشيخ جراح» في شمال القدس موكب «أهل نابلس» ، وكان فخما ضخما بشكل يلفت الانظار ، وكان موكب نابلس يتألف من عدة حلقات من الشباب ، يقود كل حلقة شيخ شباب . فلما وصل الموكب ساحة باب العمود انضمت الحلقات بعضها الى بعض وتولى قيادتها احمد المصري (أبو أسعد بلعوص) و (سبع العقاد) وابو عبد الله الحناوي وظل هؤلاء يشرفون على مواكب نابلس في المواسم حتى ١٩٣٧ عندما «توقف» الموسم كما سيأتي ذكر ذلك . واستقبل موكب شباب القدس موكب نابلس «بالزفة والاناشيد» ، ثم دخل الموكبان المدينة ، تتقدمهما ـ لاول مرة في تاريخ المواسم ـ حلقة كبيرة من الطلبة وبيدي كل طالب الكراس الانف ذكره .

وأذكر اننا نزلنا صباح يوم الجمعة (٢ نيسان) مبكرين الى أسواق المدينة ، فوجدناها تغص على رحبها بأبناء نابلس وأهل القدس وجماهير القرويين . وعند الظهر امتلأت ساحة الحرم بالالوف المؤلفة من المسلمين ، في حين اجتمع قرب أحد مداخل الحرم جمهور كبير من المسيحيين العرب ، يحمل شبابهم «البيارق والاعلام» ، وفي مقدمتهم الزعماء والاعيان و «شيوخ» الشباب لتحية موكب النبي موسى عند خروجه من الحرم . وبعد صلاة الجمعة خرج من الحرم موكب ضخم قيل أن القدس لم تشهد له مثيلا قبل ذلك اليوم ، يتألف من «عشرات» الحلقات ، منها حلقات «الاناشيد» و «الاهازيج» و «الدبكة» ولعبة «السيف والترس» . وواصل الموكب سيره ، وقد اصطف خلق كبير من الرجال والنساء على جانبي الطريق لمشاهدة الموكب وتحية مفتي القدس ، (كان مفتي القدس حينئذ المرحوم الشيخ كامل الحسيني) . وانتهى الموكب وفق العادة ، في رأس العمود ، ونزل المفتي وصحبه وعدد كبير من الشباب الى مقام النبي موسى . وأصبحت القدس ، يوم السبت ، وكأنها في عيد وطني عظيم ، تشق شوارعها وأحياءها «العراضات» والمظاهرات الشعبية ، التي استمرت طيلة النهار ، وبتنا ليلتنا وقد أخذ التعب منا مأخذه ، لنشترك يوم الاحد في ٤ نيسان ١٩٢٠ باحتفال (الشعانين) بالقيامة واستقبال موكب أهل جبل الخليل .

ثورة القدس

كان يوم الاحد هذا عيد (الشعانين) لدى المسيحيين (الشرقيين) فبكر أفراد العائلة ، وعلى رأسنا المرحوم والدي ، الى كنيسة القيامة ، للاحتفال بالعيد

ومشاهدة (الدورة) التي جرت العادة أن يقوم بها البطريرك ذاميانوس ورجال الاكليروس حول القبر المقدس (قبر السيد المسيح) . وخشيت أن يمتد الاحتفال طويلا فأحرم من مشاهدة موكب الخليل ، والاشتراك مع اخواني الطلبة في استقباله ، ولكن الاحتفال انتهى مبكرا ، فخرجنا من الكنيسة الى شارع «حارة النصارى» وجلسنا في دكان أحد أقربائنا (المرحوم سليمان الدده) لمشاهدة موكب البطريرك في عودته من (القيامة) الى البطريركية . وهنا استأذنت والدي بالانصراف لمشاهدة موكب الخليل فسمح لي قائلا : اعط بالك ...

اتجهت نحو باب الخليل ، وبعد صعوبة عظيمة استطعت الوصول الى ساحته الخارجية التي كانت تغص بمواكب القدس ونابلس والقرى وموكب جبل الخليل الذي كان قد وصل وسط حفاوة عظيمة وحماسة شديدة ، ثم اخترقت طريقي الى حلقة الطلبة .. وكانت الاهازيج والاناشيد والدبكة والهتافات تشق عنان السماء وتسبب ضجة عجيبة لا أذكر اني شعرت بمثلها في أية مناسبة شعبية اخرى .. وفجأة هدأ الضجيج وسكتت الاصوات ، وأخذ الشعب يتطلع باهتمام الى شرفة (بلكون) يقع في الطابق الثاني من عمارة دير الروم ـ على الناحية الشمالية من الساحة ـ فوق بنك (الكريدي ليونيه) الفرنسي . وكان عدد من الزعماء والشبان يملأون الشرفة ، وانتصب موسى كاظم باشا الحسيني (رئيس بلدية القدس ورئيس الجمعية الاسلامية المسيحية) وكان طويل القامة ممشوقها، ويعتمر الطربوش ، فألقى خطابا رحب فيه بموكب الخليل وهنأ الشعب بالموسم العظيم ، وتبعه الشيخ محمد عبد الفتاح درويش (شيخ مشايخ قرى بني حسن في جبل القدس) فألقى خطبة حماسية وعقبه عارف العارف بخطاب طويل صفق له الجمهور تصفيقا عظيما .. ثم وقف أستاذنا في مدرسة المطران خليل بيدس ، والقى ، بلغة عربية رفيعة خطبة حماسية ناشد فيها الشعب ببذل المهج والارواح للدفاع عن فلسطين وصيانة عروبتها وتحقيق حريتها واستقلالها، وأهاب أستاذنا الخطيب بأهل جبل نابلس (وقد نعته بجبل النار) وبأهل جبل الخليل (وقد وصفه بجبل الجبابرة) للوقوف درعا عظيما لفلسطين وعروبتها ومقدساتها . وقد استولى على الجماهير حماس عظيم نتيجة لهذا الخطاب .

ثم رأيت الاعناق تشرئب الى الشرفة وسمعت الهتافات تتعالى بشكل يصم الاذان ، وذلك لان الجماهير باتت تنتظر ظهور الشاب «أمين الحسيني» ، لالقاء كلمة . فلما ظهر الحاج أمين ، هاج الشعب وماج وارتفعت الاصوات

تحييه والتهبت الاكف تصفق له · فبعد أن بدأ يلقي كلمته رفع صورة للملك فيصل بن الحسين ونادى «أيها العرب هذا ملككم» وتابع القاء كلمته ولكني لم اسمع ما كان يقوله لان هدير صوت الشعب بتحية فيصل طغى على كل شيء · كذلك لم أستطع رؤية وجه الحاج أمين لانه كان يرفع صورة للملك بشكل يحجب وجهه عن الناس · (علمت فيما بعد أن الحاج أمين وهو معروف بالحذر والتحوط ، لاحظ أن بعض المصورين التابعين لدوائر المخابرات الانكليزية كانوا يصورون الخطباء واحدا بعد واحد باهتمام ظاهر · فتقصد رفع صورة الملك على الشكل المشار اليه ليحرم المصورين من تصويره !!) ·

وفجأة ساد الساحة هرج ومرج عظيمان ، والتفت حولي فرأيت الناس يتعاركون فظننت حينئذ أن خلافا ـ وهو ما يحدث عادة ـ قد وقع بين بعض فئات المحتفلين ، ثم سمعت الشباب يصيحون «عليهم عليهم» ، وبعد قليل سمعت أصوات الرصاص تلعلع في الساحة ورأيت «الكراسي» يقذف بها من شرفات المقاهي ·· ولم أفهم حقيقة ما كان يجري الا عندما سحبني أحد الشباب من أقاربي الى داخل باب الخليل ، وقال لي أن «مذبحة» تجري الان بين العرب وبين اليهود والانكليز ·

(أما حقيقة ما حدث ، كما فهمته بعد ذلك فهو أن عددا من شباب اليهود قدموا الى ساحة باب الخليل ، وأخذوا يتحرشون بالمحتشدين من العرب · ولما رفع الحاج أمين صورة الملك فيصل ، هتف هؤلاء اليهود ضده ، واعتدوا على من كان بقربهم من العرب ، فرد العرب على الاعتداء بالهجوم على اليهود ،فوقعت الواقعة ، وبادر الجنود الانكليز الى اطلاق الرصاص على العرب لحماية اليهود من غضبهم) ·

وتوقف العراك أو القتال بعد قليل ، واستعد الاهلون لاستئناف المواكب ، فاذا بقوة من الجند البريطاني تسد ساحة باب الخليل الداخلية وتنذر العرب المجتمعين فيها باطلاق النار عليهم اذا هم لم يتفرقوا ! وكانت الساحة الخارجية من باب الخليل قد خلت تقريبا من جماهير العرب ، باستثناء بعض مئات من الشباب دخلوا المقاهي الواقعة على جانبي الساحة · وفجأة وصلت الى الساحة الخارجية مظاهرة يهودية كبيرة اتية من الغرب ، يحمل أفرادها السلاح ، وعلى رأسهم الزعيم اليهودي المعروف (فلاديمير جابوتنسكي) وحاولوا اختراق باب الخليل للدخول الى المدينة القديمة · ولكن الشبان العرب الذين كانوا في المقاهي

في الساحة الخارجية ، انقضوا ، رغم ضالة عددهم ، على اليهود المهاجمين بكراسي المقاهي والعصي ، دون أن يرهبوا أسلحتهم ، فردوهم على أعقابهم وقتلوا عددا منهم ، وسقط من العرب شهيدان ·

وتوترت الحالة في القدس ، فأحكم الجنود الانكليز اغلاق جميع أبواب المدينة ، لمنع عربها من الخروج لمهاجمة اليهود ، ولنجدة اخوانهم الذين يقطنون خارج الاسوار ، وكانوا عرضة لاعتداء يهودي مسلح عليهم · ووقعت سلسلة من الاصطدامات بين العرب والانكليز ، فسقط من العرب بعض الشهداء والجرحى وهلك عدد من الجنود الانكليز ومن اليهود ·

رجعت الى حارة النصارى لانضم الى والدي وأفراد أسرتي ، فوجدت شارعها مكتظا بشباب النصارى ، وهم يطالبون والدي بالسماح لهم «ببيرق الشباب» (وكان مسئولا عن حفظه) ليحملوه وينطلقوا الى نجدة المسلمين · وعبثا حاول والدي تهدئتهم واقناعهم بخوض غمار المعركة دون ما حاجة الى بيرق الشباب ، واخيرا سلمهم (البيرق) وكان يوضع في كنيسة مار يعقوب بالقرب من كنيسة القيامة ، فانطلقوا الى باب الخليل في مظاهرة حماسية وانضموا الى اخوانهم المسلمين ·

اني أذكر كل هذا وكأني أراه أمامي اليوم · وقرب المغرب سمح الانكليز للعرب الذين تقع بيوتهم خارج الاسوار بالذهاب اليها · وفي الليل سمعنا طلقات نارية تملأ المدينة وضواحيها · وأصبحنا يوم الاثنين والمدينة مغلقة والشباب في حالة تحفز ، ثم سمعنا أن أهل القرى أخذوا يهاجمون اليهود في أحياء المدينة الجديدة ، ويشتبكون في القتال مع القوات البريطانية ·· وفي يوم الثلاثاء هاجم شباب القدس حارة اليهود في المدينة القديمة واصطدموا في هجومهم بالقوات الانكليزية التي كانت تحرسها · وانقضى يوما الاربعاء والخميس ، والبلدة وما حولها في ثورة شديدة ضد الانكليز واليهود · وكانت هذه الثورة أول ثورة عربية فلسطينية في تاريخ الكفاح الفلسطيني ·

اعتقال الزعماء

ولجأت السلطات البريطانية ، كما هو ديدنها دائما ، الى الاعتداء على العرب وارهابهم واضطهادهم · ففرضت نظام منع التجول على الاحياء العربية والمدينة القديمة ، وقبضت على العشرات من الشباب ، واعتقلت رئيس البلدية موسى

كاظم باشا الحسيني وعددا من الزعماء بينهم القادة الذين خطبوا يوم الاحد في الجماهير ، وزجت بهم في سجن عكا ٠

الحـاج أمـين

واعتبر الانكليز أن الحاج أمين هو الشخص المسئول عن الثورة ، فصمموا على اعتقاله ، فاختفى من وجوههم ٠ وبعد تفتيش واسع عنه استطاعوا القبض عليه ، وفيما كانت ثلة من جنودهم تقوده الى السجن هاجمهم شباب القـدس واشتبكوا معهم في قتال عنيف وأنقذوا الحاج أمين من أيديهم ٠٠ وانتقل الحاج أمين سرا الى شاطىء البحر الميت (قرب اريحا) وركب قاربا صغيرا لينقله الى شاطىء البحر الشرقي في منطقة الكرك ٠ وبلغ هذا النبأ مسامع الانكليز فلاحقته قوة من الشرطة بقوارب بخارية للقبض عليه في عرض البحر ، ولكنه تمكن من الوصول الى الشاطىء قبل وصول الشرطة البريطانية ، وهكذا نجا من ظلـم الانكليز ! (وتشكلت فيما بعد محكمة عسكرية بريطانية لمحاكمة الزعمـاء ، فأصدرت حكما غيابيا على الحاج أمين يقضي بسجنه مدة خمسة عشر عاما بالاشغال الشاقة ٠ وكان الحاج أمين قد استطاع الانتقال سرا من منطقة الكرك الى دمشق) ٠ كذلك أصدرت المحكمة العسكرية المذكورة حكما غيابيا على عارف العارف وكان يصدر جريدة (سورية الجنوبية) بالسجن عشرة أعوام ٠ وكان عارف العارف قد فر هو الثاني من وجه الانكليز ٠

هذا ما أذكره عن ثورة القدس (ثورة فلسطين الاولى ٠٠) وبسببها لم تتم سائر مراحل موسم النبي موسى في نيسان ١٩٢٠ ٠

بعـد الثـورة

عدنا ، بعد انتهاء اجازة الربيع (التي وقعت الثـورة خلالها) الى المدارس ، نستأنف الدراسة ومعها الاحاديث عن الثورة و (البطولات) التي أظهرهـا الشبان خلال اصطدام العرب باليهود ٠

وباستثناء الانباء حول المحكمة العسكرية واحكامها ، والشباب الذين يملأون السجون ، لم يقع ما يشغلنا عن الدراسة بقية العام الدراسي ٠ أما عطلـة الصيف فقد انتهت أيضا دون أن تقع أحداث هامة ٠

ذكرى وعد بلفـور

رجعنا الى المدارس في الاسبوع الاول من شهر تشرين الاول ١٩٢٠ ، ولما كنت قد نجحت في الامتحان السنوي لمدرسة المطران فقد رفعت الى الصف الرابع الثانوي فيها (وكانت ادارة المدرسة قد أعادت تنظيم فصولها وقسمتهـا الى ابتدائية واعدادية وثانوية) ٠

ولما انتظمت الدراسة أذاع المدير بيانا على جميع الطلبة يحثهم فيه علـى الانصراف الى الدرس والانكباب على العمل المدرسي ، ويهيب بهم الابتعاد عن جميع الاعمال السياسية واصفا اياها بأنها ليست من اختصاص الطلبة ٠

وأذكر أن المدير استدعى الى مكتبه عددا من الطلبـة (كنت واحدا منهم) لمباحثتهم في أمور تتعلق «بمصلحتهم ومستقبلهم» ٠٠ وقد اختار هؤلاء الطلبة بالذات لانه كان يعتبر انهم المسئولون عن اثارة «الفتنة والاضطراب» في صفوف طلبة المدرسة ، وانهم «مشاغبون» ٠ وبعد أن حدثنا المدير مطولا وأبدى لنـا «نصائحه» الغالية ، طلب الى كل واحد منا توقيع تعهد بعدم التدخل بالشؤون السياسية ٠٠ فرفضنا توقيع هذا التعهد ٠٠ وكنا نتوقع أن يثور المدير وأن يتهيج لرفضنا ٠٠ ولكنه قابله (بالبرودة) الانكليزية المعروفة ٠٠ وقال : لكم ما تشاؤون ولكنكم ستحصدون ثمار موقفكم !

وخرجنا من الاجتماع ونحن نشعر بنشوة الانتصار ٠٠ والحفاظ على حريتنا ٠٠ والواقع أن رفضنا توقيع التعهد المقترح أنشأ فينا روحا جديدة للتمـرد والاستمرار في الاعمال السياسية ٠ على أن المدير وضعنا «تحت المراقبـة» الشديدة !

ولم ينقض سوى نحو شهر فحسب على هذا الامر ، حتى انطلقنا نشتـرك في الاعمال السياسية والوطنية بقوة دافعة ٠ ففي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني ١٩٢٠ حلت الذكرى الثالثة لصدور تصريـح بلفور ٠ فانقطعنـا عن الدراسة ، كما فعل سائر طلبة مدارس القدس ، واندفعنا في مظاهرة طلابية قوية من ساحة الحرم الى شوارع القدس ، لم تلبث أن انقلبت الى مظاهـرة شعبية ضخمة بانضمام جماهير الشعب اليها ٠٠ فحدث اصطدام قرب دائرة البريد في شارع يافا بين الشرطة والمتظاهرين ، سقط خلاله عدد من الجرحى

من الجانبين ٠٠ وقبضت الشرطة على عدد من الطلبة (كنت واحدا منهم) وزجتهم في سجن «التوقيف» في القشلة ، ثم أفرجت عنهم عند المساء مقابل «سندات كفالة» وقعها ذووهم ٠

ولسبب نجهله سكت المدير مرة أخرى عن «سلوكنا» فلم يناقشنا به ٠٠ فأطمعنا هذا السكوت لمواصلة «أعمالنا» السياسية ٠٠ والوطنية ٠٠

مفتي القدس

تغيب عن المدرسة في أحد الايام من عام ١٩٢١ (ولا أذكر الشهر على وجه التحديد) جميع الطلبة من أبناء الاسرة الحسينية ٠٠ فاستغربنا ذلك كثيرا ٠٠ ولكن هذا الاستغراب ما لبث أن انتهى عندما قيل لنا أن مفتي القدس (الشيخ كامل الحسيني) قد توفي الى رحمة الله ، وان الحسينيين من الطلبة تغيبوا عن المدرسة للاشتراك في تشييع جثمانه ٠ وعند الظهر تركنا الصفوف وخرجنا الى الشارع العام لمشاهدة موكب الجنازة الذي مر أمام المدرسة في طريقه الى الحرم ٠ ورأينا خلف النعش الحاج أمين الحسيني وحوله أفراد الاسرة الحسينية وقد استغرق مرور الموكب أمام المدرسة أكثر من ساعة لكثرة عدد المشتركين فيه ٠

وبعد أيام سمعنا أن حاكم القدس الانكليزي (رونالد ستورز) عقد اجتماعا كبيرا في السراي حضره علماء المسلمين وأعيانهم وأبلغهم أن الحكومة قررت اجراء انتخاب عام لانتخاب «مفتي» جديد للقدس ، ودعاهم لمساعدة الحكومة في اجراء هذا الانتخاب ، كما نص عليه نظام انتخاب رؤساء الاديان العثماني الذي كان لا يزال ساري المفعول ٠

من المعلومات التي حصلت عليها والحقائق التي فهمتها فيما بعد ، ان «مفتي» القدس كان يعتبر مفتي (متصرفية) القدس ، ولذلك سمي بالمفتي الاكبر لان المفتين في سائر مدن المتصرفية كانوا يعتبرون تابعين لمنصب افتاء المدينة المقدسة ٠ وكانت هذه المتصرفية ممتازة ، ترتبط مباشرة برئاسة الدولة في العاصمة العثمانية ٠ وتتألف مما كان يعرف بمنطقة «سنجق القدس» الذي يضم أقضية القدس ورام الله واللد والرملة ويافا والمجدل وغزة وبئر السبع والخليل وبيت لحم واريحا ٠ أما الانتخاب فكان يجري وفقا لنصوص نظام الانتخاب العثماني لرؤساء الاديان ، وقد جعل حق الانتخاب في القضاة والعلماء ومديري الاوقاف والائمة وأعضاء مجالس الادارة والبلديات الخ ٠٠

وانطلقنا نحن الطلبة ، بالبداهة ، نهتم بهذا الانتخاب ونتابع أنباءه ٠ ولمسنا حركة ونشاطا واسعين في المدينة ورأينا الكثيرين من أعيان المدن والاقضية يتوافدون على القدس ويجتمعون بزعمائها وقادتها ٠ وزاد اهتمامنا بموضوع الانتخاب عندما علمنا بأن الناس كانوا يتجهون بأكثريتهم نحو الحاج أمين الحسيني ويطالبونه بترشيح نفسه ، لان الحاج أمين كان «محبوبا» من الشعب ولا سيما بعد ثورة القدس و «الحكم» الغيابي الذي أصدرته المحكمة العسكرية بسجنه مدة خمسة عشر عاما بالاشغال الشاقة(١) .

وأذكر أن عدة أشخاص رشحوا أنفسهم لمنصب الافتاء ، كان منهم المشايخ أسعد الشقيري وموسى البديري وخليل الخالدي وحسام الدين جار الله ٠٠ كذلك رشح الحاج أمين نفسه ، وقيل لنا انه استبدل بدلته «الفرنجية» باللباس الديني ، وأطلق لحيته وتعمم (وهو من خريجي الازهر الشريف) ٠

واشتد اهتمامنا «بمعركة» الانتخاب ، وانطلقنا نتحمس لها كثيرا ، عندما علمنا أن «الحكومة» جعلت تتدخل ـ بوسائلها المعروفة ـ ضد الحاج أمين لكي لا ينجح في الانتخاب ، وتؤيد المرشحين الاخرين وتسعى لصالحهم ، وانها تحرص على أن يكون مفتي القدس الجديد واحدا من هؤلاء ، لا يهمها أي واحد منهم يكون ٠

وكان المسلمون ، على مختلف طبقاتهم ، وبصورة خاصة طبقة القرويين ، يؤيدون الحاج أمين ويلتفون حوله ٠ فلما علم الناس بمقاومة الحكومة له ، غضبوا غضبا شديدا واستنكروا موقفها ٠ وشاهدنا المظاهرات الشعبية تنطلق في القدس وكان المتظاهرون ينشدون ويهزجون «حاج أمين يا مفتينا» ٠

١ ـ بعد اعلان الحكم المدني (البريطاني) في فلسطين أصدر المندوب السامي عفوا عن أمين الحسيني وعارف العارف وسمح لهما بالعودة الى البلاد ٠ فقبل عارف العارف العفو وعاد الى القدس (ثم توظف في الحكومة) ، أما أمين الحسيني (وكان يقيم بالشام) ، فقد رفض العفو لانه لم يكن مجرما ليعفى عنه ٠ وبعث برسالة الى المندوب السامي جعل مطلعها بيت الشعر التالي :

ابريء يعفو عنه مجرم   كيف تسدي العفو ايدي المجرم

واشترط لعودته الى القدس الغاء حكم المحكمة العسكرية ! فلما ألغي هذا الحكم عاد الحاج أمين الى البلاد ليستأنف جهاده في سبيل وطنه وشعبه ٠

ولما جرت الانتخابات فاز الحاج أمين فيها ، ولكن الحكومة تلكأت في اعلان النتيجة ٠٠ لانها تكره أن يكون الحاج أمين مفتيا للقدس ٠٠ فقامت المظاهرات من جديد في مدينة القدس (والمدن الاخرى كما علمنا فيما بعد) تنادي بشعار الشعب «حاج أمين يا مفتينا» ٠

ومما أذكره جيدا أنه في هذه الاثناء عقد زعماء الطوائف المسيحية ، تلبية لدعوة من والدي ، اجتماعا في بيتنا ، لبحث موضوع (مفتي القدس) ٠ وفيما كنت أساهم في تقديم القهوة للمجتمعين ، كنت أسمعهم يقولون بحماس بأنهم لا يقبلون أن يكون غير الحاج أمين مفتيا للقدس ! وفي نهاية الاجتماع وقعوا «مضبطة» لرفعها الى حاكم القدس ، يطالبون فيها الحكومة بالاسراع باصدار «البراءة» ـ براءة الافتاء ـ للحاج أمين الحسيني ٠ وفي اليوم الثاني حمل بعض الزعماء هذه «المضبطة» الى البطاركة المسيحيين وطلبوا اليهم توقيعها فوقعوها ٠ ثم توجه هؤلاء الزعماء الى سراي الحاكم البريطاني السير رونالد ستورز وسلموه «المضبطة» ٠ وبعد أن قرأها الحاكم أظهر استغرابا شديدا ، وقال لهم (وكان يتقن اللغة العربية) : يا جماعة ما شأنكم وانتم نصارى بمنصب المفتي وبشخص المفتي ؟ فأجابوه ان احوال المسيحيين الشخصية (الاوقاف والارث والزواج الخ ٠٠) تابعة للمحكمة الشرعية وهي تابعة بدورها لمفتي القدس ٠ ونحن لا نستطيع أن نكون مطمئنين على سلامة هذه الامور ومصالحنا الا اذا كان الحاج أمين هو المفتي ٠

واشتدت المظاهرات في البلاد ٠٠ وبعد أيام وجد الحاكم أن لا مناص له من اصدار البراءة والاعتراف بنتائج الانتخاب الصحيحة ٠٠ فأعدها وحملها الى المندوب السامي فوقعها بوصفه «وريث» المتصرف والسلطة العثمانية !

وهكذا أصبح الحاج أمين الحسيني مفتيا للقدس ٠ وبعد أيام شاهدته في احدى المناسبات وكان معمما وذا لحية شقراء صغيرة ، وكان منظره يدعو الى الاحترام والهيبة ٠

زيارة تشرشل ٠٠٠

وأذكر أنه أذيع في القدس أن ونستون تشرشل (وزير المستعمرات) سيزور البلاد في أواخر شهر اذار ١٩٢١ وانه قادم خصيصا لغرض الاشتراك في الاحتفال

الذي قرر اليهود اقامته لوضع الحجر الاساسي لبناء «الجامعة العبرية» على جبل الزيتون ٠

وغضب العرب غضبا شديدا عندما بلغهم هذا النبأ ، واعتبروا هذه الزيارة تحديا سافرا لهم ودليلا على تصميم بريطانيا على متابعة سياستها اليهودية ، وقرروا مقابلة الوزير يوم وصوله بالاضراب والمظاهرات ٠ أما نحن الطلبة فقد أخذنا نطبع النشرات (على الجيلاتين) ونوزعها (سرا) على الشعب ، ننددفيها بالحكومة البريطانية وسياستها ، وجعلنا نصبغ حيطان المدينة وأسوارها باللون الاسود ، ونكتب عليها باللون الاحمر شعارات عدائية للانكليز وتشرشل ٠ وفي الحين الذي انطلقنا ندعو الناس الى الاضراب والتظاهر يوم وصول تشرشل ، فاننا أعددنا أيضا «مضبطة» موجهة الى رئيس الوزراء البريطانية ، نطالبه فيها بالغاء هذه الزيارة ، وقد وقع هذه المضبطية ثلاثون طالبا عن كل مدرسة من مدارس القدس ، بما فيها المدارس الحكومية ٠ وخوفا من أن «تصادر» دائرة البريد «مضبطة» الطلاب ، فقد سلمناها للمحامي الاستاذ وهبة العيسى (وكان عازما على العودة الى مقر عمله في القاهرة بعد زيارة قصيرة ليافا والقدس) ليرسلها بالبريد من العاصمة المصرية ٠

واستاءت السلطات البريطانية الحاكمة من الموقف الذي اتخذه الشعب من زيارة تشرشل ونقمت بصورة خاصة على الطلبة بسبب ما أبدوه من نشاط وقاموا به من دعاية ضد الحكومة البريطانية ووزير مستعمراتها ٠٠ ولفت السكرتير العام للحكومة (المستر تشارلز لوك) نظر مدير دائرة المعارف (وهو بريطاني) ومدراء المدارس الاجنبية ، وطلب اليهم التدخل لوضع حد لاعمال الطلبة وجهودهم ٠ وركز تشارلز لوك شكواه على طلبة مدرسة المطران ،واتهمهم بأنهم هم الذين يقفون خلف هذه الحركة ٠

ووصل تشرشل الى القاهرة ، وبعد أن قضى فيها يومين ، غادرها بقطار المساء الى فلسطين،ولما علم العرب بأن تشرشل قادم قرروا اعلان الاضراب العام يوم وصوله اليها ٠ (اليوم الثاني لمغادرته القاهرة) ٠ فلما أصبح الصباح وبدأ قطار تشرشل يدخل «الاراضي الفلسطينية» كانت البلاد مضربة من أقصاها الى أقصاها ، والقوات البريطانية المدججة بالسلاح تنزل الى المدن استعدادا للطوارىء ٠٠ وتوقف القطار في الصباح المبكر في محطة غزة وفيما كان تشرشل ينهض من فراشه لارتداء ملابسه ٠٠ أحاط بالقطار جمهور كبير غاضب من أهل غزة وقذفوه «وعربة نوم تشرشل» بالبندورة والبيض والقوا عليها القاذورات

٠٠ لم يخطيء بعضها تشرشل نفسه!فوقع اصطدام عنيف بين الجند البريطانيين والمتظاهرين ! وقوبل قطار تشرشل بمظاهرات عدائية غاضبة في المجدل واللد والرملة والنعانة وبتير وبيت صفافا .. ولما وصل القطار محطة القدس كانت ساحتها قد امتلأت على رحبها بالمتظاهرين العرب الذين كانوا يهتفون ضد تشرشل بغضب ونقمة ٠ وفرق الجند المتظاهرين بالقوة ونقلوا تشرشل في موكب من السيارات محاطة بقوات كبيرة من الجند والشرطة ٠ وعندما اقترب هذا الموكب من المستشفى الايطالي (بالقرب من حي المصرارة) بطريقه الى دار الحكومة على جبل الزيتون ، انقض عليه جمهور من الطلبة يقذفونه بالبيض ويحصبونه بالحجارة ، مما اضطر الموكب الى الاسراع «فرارا» من غضب الطلبة٠ وكان عدد غير قليل من طلبة مدرسة المطران في طليعة الذين تعرضوا لتشرشل وموكبه !

وجن جنون المطران الانكليكاني ومدير المدرسة لما ظهر من طلبتها من «مسلك» فاجرى المدير تحقيقا دقيقا لمعرفة الطلبة المسؤولين عن تدبير هذه الاعمال ٠٠ استدل منه على ان خمسة من طلبة الصفوف العليا يتحملون المسئولية٠ولم تعلن اسماء هؤلاء الطلبة ، حيثاحتفظ الرئيس بها بصورة سرية ، وقرر المطران والمسؤولون وضع هذه الاسماء على «لائحة سوداء» وطرد أصحابها من المدرسة اذا ما اقترفوا جرما جديدا !

ثورة يافا ـ الثورة الفلسطينية الثانية

نشبت في يافا ، يوم الاحد الواقع في أول أيار ١٩٢١ ـ وكان يوم عيد العمال ـ ثورة كبيرة ، فكانت ثورة فلسطين الثانية ٠ وامتدت هذه الثورة الى المناطق المجاورة ليافا ، ثم الى منطقة اللد والرملة والمجدل ، ولا أستطيع وصف هذه الثورة ، كما وصفت ثورة القدس ، لاني كنت بعيدا عنها ، أتلقى أنباءها سماعا ٠ واستمرت هذه الثورة أسبوعا كاملا ، فكانت أعظم من ثورة القدس وأوسع نطاقا ، وقد سقط فيها المئات من الشهداء والجرحى العرب وقتل وجرح أكثر من ٥٥٠ يهوديا وجنديا بريطانيا ٠

واذكر أن القدس أضربت اضرابا شاملا انتصارا للثورة وقامت فيها مظاهرات شعبية كبيرة (جرى مثلها في سائر مدن فلسطين) ٠ وانقطعنا عن الدراسة مدة ثلاثة أيام بسبب حالة التوتر التي كانت تسود القدس ٠

وشكل الانكليز لجنة رسمية للتحقيق في أسباب الثورة ٠٠ ضمت عضوين عربيين (عارف الدجاني والياس مشبك) وعضوا يهوديا وقاضيين بريطانيين وكان رئيسها قاضي القضاة البريطاني لفلسطين (سير توماس هيكرافت) ،وكنا نسمع كثيرا عن جلسات هذه اللجنة واجتماعاتها بالزعماء ورجال الدين وموظفي الحكومة وغيرهم ٠ ثم علمنا ان اللجنة أصدرت تقريرا «أنصفت» فيه أهل فلسطين ٠٠ وان عضوها اليهودي كان المعارض الوحيد لتوصياتها ٠ وبعد مدة سمعنا أن رئيس اللجنة «هيكرافت» أجبر على الاستقالة من منصبه ، وفهمنا أن هذه الاستقالة فرضتها عليه وزارة المستعمرات البريطانية لان اليهود احتجوا على تقريره ! ونشرت الصحف أن المحامين العرب وأعيان القدس أقاموا حفلة كبرى وداعية لقاضي القضاة تقديرا لموقفه العادل وشجاعته ٠

الوفد العربي الفلسطيني

اجتمع المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع في يافا (بعد صدور تقرير لجنة هيكرافت) في اب ١٩٢١ وقرر ارسال وفد الى لندن لمفاوضة حكومتها بشأن فلسطين وقضيتها ٠ وكنا معشر الطلبة متحمسين لانعقاد المؤتمر وازددنا حماسة عندما اطلعنا على مقرراته منشورة في الصحف ٠ أما الوفد فقد تشكل من موسى كاظم باشا الحسيني رئيسا وشبلي الجمل (القدس) سكرتيرا ، والحاج توفيق حماد (نابلس) والشيخ محمد مراد (حيفا) ومعين الماضي (حيفا) وابراهيم شماس (القدس) أعضاء ٠ وعلمنا من أحاديث كبارنا أن المؤتمر كان قد انتخب روحي عبد الهادي (جنين) عضوا في الوفد وسكرتيرا له ٠ وبعد أن قبل روحي الانضمام للوفد عاد الى الاعتذار ٠٠ وبعد أيام عين في منصب كبير في حكومة الانتداب ٠

واذكر أن الوفد اجتمع في القدس للسفر منها ٠ وفي اليوم المقرر لسفره (كان ذلك على ما أظن في أوائل أيلول ١٩٢١) احتشدت الجماهير الغفيرة في محطة القدس لتوديع الوفد ، وكان الناس يهتفون له وينادون بحياة رئيسه بحماس عظيم ٠ ونشرت الصحف في اليوم الثاني لسفر الوفد أنباء الحفاوة العظيمة به في جميع محطات السكة الحديدية التي توقف فيها القطار في طريقه الى مدينة بورسعيد ، التي أبحر منها الى لندن ٠

انباء الوفد

وأخذت الصحف تنشر الانباء الطويلة عن (المفاوضات والمباحثات) التي كان

الوفد يجريها في لندن مع وزير المستعمرات (ونستون تشرشل) وعن نشاط الوفد في اتصالاته بزعماء بريطانيا ودعايته للقضية الفلسطينية في مختلف أوساطها . وكنا نطالع هذه الصحف باهتمام عظيم . وفي شهر نيسان ١٩٢٢ (قضى الوفد في بريطانيا نحو عام) وزعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني الرابع «نشرة» على الشعب جاء فيها أن مجلس اللوردات البريطاني قرر بأغلبية الاصوات تأييد مطالب الوفد الفلسطيني ووجوب الغاء تصريح بلفور وتبديل سياسة الحكومة البريطانية المبنية على أساسه . فابتهج الشعب لهذا النبأ ، وفرحنا به نحن معشر الطلبة .. وتوقعنا «النصر» لوفدنا .

رسالة الطلاب .

ورأينا نحن معشر الطلبة وجوب المساهمة في حملة عامة قامت في البلاد لاعلان تأييدها للوفد ، حيث كان بعض النواب الانكليز وانصار اليهود من الوزراء وكبار الموظفين الانكليز قد روجوا دعاية واسعة النطاق ضد الوفد وطعنوا في صحة تمثيله للشعب الفلسطيني . فوضعنا رسالة باللغة الانكليزية ، موجهة من طلبة «المدينة المقدسة» الى الطلاب البريطانيين ، نعلن فيها استنكارنا لسياسة الحكومة واحتجاجنا على تصريح بلفور وتأييدنا للوفد الفلسطيني . ووقع هذه المذكرة خمسة طلاب عن كل من كلية الروضة والمدرسة الرشيدية والكلية الانكليزية ومدرسة صهيون ومدرسة المطران . وأرسلنا ـ بصورة سرية مكتومة ـ المئات من هذه المذكرة الى المعاهد والمدارس والجامعات والكليات والصحف البريطانية .

ولم يعلم مدراء المدارس فضلا عن رجال الحكومة في فلسطين ، شيئا عن هذه المذكرة ، حتى نشرتها عدة صحف بريطانية ، فكانت مفاجأة لهم ، فدعا مدير مدرسة المطران الطلبة الخمسة الذين وقعوا المذكرة باسم طلاب المطران (داوود الحسيني وفهمي ترزي وسالم الحسيني وروبرت تلحمي واميل الغوري) دعاهم الى مكتبه واحتج على عملهم احتجاجا شديدا وأنذرهم باتخاذ عقوبات ضدهم .. ثم قال ان (قضيتنا) احيلت الى المطران (الانكليكاني) لتقرير ما يراه بشأنها. ثم استدعينا الى دار المطران ... وانتظرنا في مكتبه بعض الوقت جاء بعده نائبه (الكانون وودي) ، فوجه الينا تأنيبا شديدا وانتهرنا لعملنا .. فرددنا عليه بشدة ورفضنا اقواله ... وخرجنا من (حضرته) غاضبين ... ونقلنا الى زملائنا ما كان من (الكانون وودي) فقرروا الاضراب عن الدروس ، كذلك فعلت سائر مدارس القدس تأييدا لنا .

وفي اليوم الثاني عدنا الى المدرسة ،ودخلنا الى صفوفنا دون أن نسمع اية كلمة من المدير او وكيل المطران ... وقد شعرنا مرة اخرى بأننا (غلبنا) الانكليز ...

الحكم المدني

على اثر الاحتلال البريطاني لفلسطين وضعت الحكومة البريطانية البلاد تحت حكم « ادارة عسكرية » برئاسة الجنرال بولز . (وتعاقب على رئاسة هذه الادارة « جنرالات » اخرون كما كنا نسمع ولكني لا استطيع أن اتذكر اسماءهم) . وفي عام ١٩٢١ قررت الوزارة البريطانية انهاء الادارة العسكرية واستبدالها بحكومة مدنية او حكم مدني ، يرأسه مندوب سام بريطاني !
(نص نظام هذه الحكومة المدنية ، الذي وضعته وزارة المستعمرات البريطانية على تشكيلها من رؤساء الدوائر — وكلهم من الانكليز والانكليز اليهود — ومن دائرة السكرتيرية العامة ، ويرأسها موظف بريطاني بلقب السكرتير العام ، ويعاونه مساعدون من الانكليز والانكليز اليهود ، واطلقت الوزارة البريطانية على هذه « الحكومة » اسم « حكومة فلسطين » .

وأعلنت الوزارة البريطانية أن « جلالة الملك » جورج الخامس عين سير هربرت صموئيل مندوبا ساميا لفلسطين ، اي رئيسا لحكومتها .. وكان هذا الشخص « يهوديا بريطانيا » ومن غلاة زعماء الحركة الصهيونية . واذكر أن الاهلين استشاطوا غضبا لهذا التعيين ، واعتبروه تحديا سافرا للعرب ودليلا على تصميم الحكومة البريطانية على متابعة سياستها اليهودية . فأبرق زعماء البلاد واللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني الى الوزارة البريطانية و « جلالة الملك » في لندن يحتجون على هذا التعيين ...

وأعلن عن قرب وصول « المندوب السامي » المذكور — وهو اول مندوب سام لفلسطين — الى البلاد ، وأن السلطات تتخذ الاجراءات الضرورية لاستقباله ... وبلغ من « وقاحة » السلطات أن حثت « اهل فلسطين » على استقبال سير هربرت صموئيل ... ولكن الاهلين استنكروا « دعوة » السلطات وقرروا مقاطعة كل احتفال تقيمه السلطات للمندوب السامي الجديد .

واني لاذكر تماما اليوم الذي وصل فيه هربرت صموئيل الى القدس ، ففي صباح هذا اليوم امتلأت المدينة بالقوات البريطانية المدججة بالسلاح ، واحتلت ابواب المدينة القديمة ، ومنعت كل حركة في الشوارع التي سيمر فيها موكب المندوب .. في طريقه الى جبل الزيتون (الطور) حيث اتخذ العمارة الالمانية (أوغستا فكتوريا) مقرا له . واضربت القدس اضرابا شاملا ، واختفى العرب من شوارعها حتى لا يظن احد أن عربيا واحدا اشترك في استقبال المندوب السامي اليهودي .

وبعد مدة قصيرة اعلنت الحكومة انها ستقيم حفلا رسميا في دار الحكومة في الطور ، لاعلان الحكم المدني الجديد وصك الانتداب الذي وضعته بريطانيا لتحكم فلسطين بموجبه ، ووجهت الحكومة « رقاع الدعوة » لحضور هذا الاحتفال على اعيان البلاد وقادتها ورؤساء البلديات واعضائها ومفتي القدس وكبار القضاة والعلماء في البلاد ، فضلا عن رؤساء الدين المسيحيين . ولكن العرب قرروا مقاطعة الحفلة وعدم الاشتراك فيها ، وعبثا حاولت السلطات البريطانية ، بالاغراء آنا وبالتهديد انا اخر ، ثني العرب ، عن عزمهم . فلما جرى الاحتفال المذكور لم يحضره سوى زعماء اليهود وكبارهم وقلة من رؤساء الدين المسيحيين والشيخ اسعد الشقيري والشيخ خليل الخالدي وبولس شحاده وراغب النشاشيبي وبعض الموظفين العرب .. وفي الحين الذي كانت الحكومة تقيم حفلتها المذكورة كان العرب يتظاهرون في شوارع القدس احتجاجا عليها ، وكنا نحن الطلبة قد اضربنا في هذا اليوم عن الدراسة ، واشتركنا في هذه المظاهرات .

يمنعون عني شهادة المدرسة

في نهاية السنة الدراسية (١٩٢٠ — ١٩٢١) في مدرسة المطران ،جلست للامتحان السنوي النهائي ، فاجتزته ، ولا فخر ، بتفوق عظيم ، فكنت الاول في الصف وصرت اهلا للحصول على شهادة المدرسة . وقبل انتهاء العام الدراسي بأيام طلب المرحوم والدي لمقابلة المطران ، فذهب وهو يعتقد انه سيحدثه عن مسلكي « السياسي » و « تمردي » المستمر على تعليمات المدير ... فرحب المطران بوالدي ، وكان حاضرا الاجتماع مدير المدرسة والاستاذ خليل بيدس والكانون وودي ، نائب المطران . وهنأه على نجاحي واثنى على تفوقي في الامتحان ، ثم قال له : ان الادارة لا تستطيع اعطائي الشهادة المدرسية

لاني صغير السن وان هذه الشهادة لا تعطى لمن كان في مثل سني ونصح المطران والدي أن أقضي في المدرسة عاما آخر ، في صف خاص قررت الادارة انشاءه لعدد من الطلبة المتفوقين ، فيتقدمون في نهاية العام الدراسي امتحانا لشهادة اكسفورد وكمبريدج « الثانوية » ، ورجا المدير والدي أن يقنعني بتجنب التدخل في « السياسة » وعدم المساهمة في الاعمال الوطنية ... والانصراف الى الدراسة لكي استطيع اجتياز الامتحان المذكور ، ووافق والدي على طلب المطران ، أما رجاء المدير بأن يقنعني والدي بتجنب العمل الوطني الخ .. فقد رد عليه والدي بقوله : ان « السياسة » تجري في دم ولدي ... فضلا عن أن واجبنا نحن الاباء أن نشجع ابناءنا على الاستعداد والتأهب لدفع الخطر العظيم الذي يهدد بلادنا وشعبنا بفضل سياسة حكومتكم الانكليزية ...

نادي الطالب الفلسطيني

عندما بدأت الاجازة الصيفية للمدرسة ، قررنا نحن الطلبة الافادة منها لتنظيم انفسنا لنستطيع القيام بواجبنا الوطني على وجه حسن . كما قررنا أن نقوم بجولات على القرى لتوعية الاهلين وحضهم على المحافظة على الاراضي ومقاومة المساعي التي كان يبذلها اليهود للاستيلاء عليها . واذكر اننا قمنا بهذه الجولات ، كما قمنا برحلات « طلابية » الى عدة نواح في منطقة القدس، للتعرف عليها ، وعلى مواقعها المنيعة ... حيث بدأت عقليتنا تفكر بحرب العصابات في المستقبل ! واسسنا ناديا للطلاب باسم « نادي الطالب الفلسطيني » كان من اعضائه المؤسسين داوود الحسيني ومشهور الضامن واسحق موسى الحسيني وضياء الدين الخطيب واميل الغوري ، ولكننا لم نستطع تنفيذ سائر نواحي البرنامج الذي وضعناه للاجازة الصيفية ، حيث طرأ ما شغلنا عن هذا البرنامج .

شيوخ الطلاب

عدت الى المدرسة في تشرين الاول ١٩٢١ لقضاء عام اخر فيها ، وكان المدير قد انشأ الصف المشار اليه آنفا ، وكان عدد الطلبة فيه سبعة طلاب فحسب ... وكنا نشعر بأننا اصبحنا « شيوخ » الطلاب ، وانطلقنا نمارس «المشيخة» عليهم ، نأمر وننهى ونجادل المدير ونتمرد على تعليماته ، وندعو علانية وعلى رؤوس الاشهاد الى التدخل في السياسة والمساهمة في العمل الوطني ، وكنت جادا .. في عدم الاكتراث باوامر المدير وتوجيهاته بالنهي عن السياسة

والعمل الوطني ... واحسب انني فعلت ذلك لانني كنت (ضامنا) للشهادة المدرسية ... حتى لو لم اقم بواجباتي المدرسية ...

الطرد ... القصاص الاخير !

جدد الطلبة نشاطهم ضد الحكومة ، وتوسعوا في دعاياتهم ضدها ، وفي ١٧ حزيران ١٩٢٢ تظاهروا في القدس احتجاجا على موقف الحكومةالبريطانية المعارض لمطالب العرب التي كان قد قدمها لها الوفد الفلسطيني ،وانقلبت مظاهرة الطلاب الى مظاهرة شعبية كبيرة بانضمام الجماهير اليها ، وحاول الانكليز فضها بالقوة ، فوقع اصطدام عنيف اصيب خلاله عدد من الضباط والجنود البريطانيين بجروح ... واتهم المسؤولون طلبة المدارس عامة وطلبة مدرسة المطران خاصة باثارة الاضطراب . وقدمت الحكومة مذكرة شديدة اللهجة الى المطران الانكليكاني احتجاجا على سلوك طلبة مدرسته ،وتضمنت هذه المذكرة اسماء عدد من هؤلاء الطلبة ، ورغبة من المندوب السامي بوجوب اتخاذ اقسى الاجراءات والتدابير ضدهم .

فغضب المطران غضبا شديدا ، وبناء على طلبه دعا المدير (المستررينولدز) الطلبة الخمسة الذين كانوا يعتبرون مثيري الاضطرابات .. والذين سبق للمدير أن وضعهم على (اللائحة السوداء) على اثر زيارة تشرشل في اذار ١٩٢١ واعتداء الطلبة عليه .. وهدد بطردهم عند اول اضطراب يثيرونه ، دعاهم الى اجتماع في مكتب المطران حضره المطران نفسه ونائبه الكانونوودي ومدير المدرسة . فقال لنا المطران انه غاضب علينا وناقم بسبب ما بدر منا. ثم القى نائبه « وعظة » علينا كانت لهجتها قاسية للغاية . وتبعه المدير — وكان متهيجا جدا — بوعظة كانت لهجتها اقسى ! وقال لنا : ان هذه هي فرصتكم الاخيرة ... فعليكم أن تعترفوا « بذنبكم » وأن تعتذروا للحكومة عن طريق المطران ، وأن تقسموا بأنكم لن تتدخلوا في السياسة بعد اليوماطلاقا ثم قال : اذا قمتم بهذا الذياطلبه منكم ، فقد نستطيع استرضاء الحكومة واقناعها بالعدول عن محاكمتكم وبالرجوع عن طلبها بوجوب طردكم من المدرسة .

وحدث ، مع الاسف الشديد ، ان ثلاثة من الطلبة قبلوا بما عرضه علينا المدير (أو بالاحرى ما امرنا به) ولكن داوود الحسيني وانا رفضنا طلب المدير ، ورددنا عليهوعلى نائب المطران بقوة وتشدد ، واكدنا

لهما أننا لن نعتذر ولن نقسم ولن نتعهد لهم بشيء ... ثم انفض الاجتماع وعدنا الى المدرسة ... وانطلق زملاؤنا الثلاثة يعيبون على داوود وعلي موقفنا ويستنكرون تصلبنا .

وفي اليوم الثاني لهذا الاجتماع دعانا المدير (داوود وأنا) وابلغنا قرارا اصدرته ادارة المدرسة بطردنا منها ... وتبين لنا من « لهجة » المدير انه كان يتوقع أن نستعطفه وأن نستسمحه .. وأن نرجع عن موقفنا ... ولكننا قلنا له اننا نعتبر طردنا من المدرسة وساما لنا ، واننا لن نكف عن مقاومة الانكليز وسياستهم ... وغادرنا مكتب الرئيس ، وجمعنا كتبنا وأوراقنا من الصف ، وتركنا المدرسة غير آسفين ولا يائسين ...

ولما علم طلاب المدارس بقرار (طردنا) احتجوا عليه واضربوا عن تلقي الدروس وأخذوا ينادون بسقوط المدارس الاجنبية . ثم تدخل بعض «الوسطاء والشفعاء » لحمل المدير على الغاء قراره من ناحية ، واقناعنا بتنفيذ ماطلبه منا من ناحية ثانية ... ولكننا التزمنا موقفنا ... وانطلق داوود ، على ما اذكر ، الى وادي حنين (قرب الرملة) حيث قضى بضعة ايام ، وذهبت انا الى بيت ساحور حيث بقيتاياما عند اقاربي في المكان المعروف باسم (السطيح) .

والتقيت وداوود بعد اسبوع او اكثر ، فتعاهدنا على مواصلة العمل الوطني والكفاح ضد الاعداء .. ومنذ هذا اليوم (المشرف) وكلانا يلقى من الانكليز واعوانهم شتى انواع العنت وصنوف الاضطهاد ... والحمد لله .

(وعند انتهاء العام الدراسي — الذي طردنا خلاله — حصلت على شهادتي المدرسية فما كان المدير يستطيع منعها عني لانها اصبحت من حقي ، وعلى الرغم من قرار الطرد فقد جلست لامتحان شهادة (اكسفورد وكمبريدج) الثانوية — وكنت قد سجلت اسمي لهذا الامتحان قبل طردي فادرج في لائحة الذين يحق لهم تقديم هذا الامتحان . ولكني رسبت في الامتحان ... ولعل السبب في ذلك يعود الى « تشردي » عن الدراسة بضعة اسابيع ..)

انتخابات المجلس الاسلامي

جرت (في مطلع عام ١٩٢٢) الانتخابات العامة للمجلس الشرعي الاسلامي الاعلى الذي اضطرت الحكومة البريطانية الى الموافقة على انشائه تحتضغط الرأي العام الاسلامي في البلاد وتشدد المسلمين في طلبهم بوجوب توليهم شؤونهم الدينية واحوالهم الشخصية بأنفسهم .

واذكر أن الاهتمام بهذه الانتخابات كان عظيما ، وأن المسلمين كانوا متحمسين جدا لنجاح العناصر الوطنية فيها . فقد كانت الحكومة استطاعت استقطاب بعض العناصر والفئات (العربية) الى جانبها ، واطلقتها (لمعارضة) الحركة الوطنية الفلسطينية ومقاومة الحاج أمين الحسيني وسياسته بصورة خاصة . فلما تقرر اجراء هذه الانتخابات تقدم عدد من رجال المعارضة ، لترشيح انفسهم للمجلس الجديد الذي نص النظام على تأليفه من رئيس واربعة اعضاء . وأذكر من بين الذين رشحوا انفسهم من هؤلاء الاشخاص الشيخ اسعد الشقيري وخليل الخالدي وحسن شكري وراغب النشاشيبي وعاصم السعيد ومصطفى الخيري وعبد الرحمن التاجي وعبد الفتاح درويش وغيرهم . ثم اتفق هؤلاء على تشكيل لائحة موحدة ــ عرفت بلائحة المعارضة ــ من راغب النشاشيبي واربعة اشخاص اخرين . وسخرت الحكومة جميع امكانياتها ووسائلها المعروفة لتأييد هذه اللائحة وتحقيق فوزها ...

أما العناصر الوطنية المعروفة فقد تقدمت بلائحة موحدة برئاسة الحاج أمين الحسيني وعضوية مفتي حيفا الشيخ محمد مراد وعبد الله الدجاني (يافا) وعبد اللطيف صلاح (نابلس) وسعيد الشوا (غزة) .

ودارت معركة عنيفة بين اللائحتين ، وانتهت الانتخابات ، على الرغم من تدخل الحكومة بشتى وسائلها وعلى الرغم من الاموال اليهودية التي انفقت لاسقاط المرشحين الوطنيين ، انتهت بفوز ساحق للعناصر الوطنية ، حيث فاز الحاج أمين الحسيني بمنصب رئاسة المجلس بما يشبه الاجماع ، وفاز زملاؤه بعضوية المجلس بأكثرية ساحقة من الاصوات .

عودة الوفد والمؤتمر الخامس

أعلن في مطلع آب ١٩٢٢ أن الوفد الفلسطيني سيعود الى البلاد بعد اقامته الطويلة في العاصمة البريطانية ، وأن الشعب يتهيأ لاستقباله استقبالا ضخما تقديرا لجهوده ودفاعه عن القضية الوطنية .. وكانت المباحثات التي جرت في لندن قد انتهت الى الفشل بسبب تعنت تشرشل في موقفه وتصميم الحكومة البريطانية على التمسك بسياسة انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وعدم قبولها بمطالب الوفد ، وقد ادى هذا التطور الى هياج الشعب وازدياد نقمته على الانكليز ، فتضاعفت رغبته في الحفاوة بالوفد الذي صان حقوق البلاد وأبى التفريط بأي مطلب من مطالبها .

وانطلقنا نحن الطلبة (فما زلت طالبا رغم طردي من المدرسة) نساهم قدر المستطاع ، في الاعراب عن نقمة البلاد على سياسة الحكومة البريطانية والهجرة اليهودية ، فقمنا بسلسلة مظاهرات « محلية » ، ورحنا ــ في الليل ــ نكتب « الشعارات » الوطنية المختلفة ، و « الحملات » على السياسة البريطانية ، على حيطان الشوارع ، ونطبعها (على الجلاتين) ونوزعها بصورة سرية . وأذكر أن القلق اصاب الانكليز بسبب هذه الاعمال ... وبذلوا جهودا عظيمة لمعرفة « الفاعلين » والقبض عليهم ! وفي الوقت نفسه اندفعنا نتعاون مع القيادة الوطنية لتنظيم الاستقبالات للوفد القادم .

ثم اعلن أن (المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس) سيعقد في نابلس في ١٥ آب ١٩٢٢ ، للاستماع الى بيان رئيس الوفد عن مهمته في لندن ، ولدراسة « الكتاب الابيض » الذي وضعه تشرشل لحل قضية فلسطين على اساسه وكان معنى هذا تأخر وصول الوفد الى القدس .

ووصل الوفد الى حيفا في السابع من آب ١٩٢٢ ، فجرى له استقبال حافل فيها ، ثم قام بزيارات الى عكا ، وصفد وطبرية والناصرة وجنين وبيسان حيث جرت له فيها استقبالات عظيمة كانت بمثابة مظاهرات وطنية شعبية ، وكان الوفد خلال هذه الزيارات يشرح للشعب الاعمال التي قام بها في بريطانيا ، ويفضح أمامه « خبث » السياسة البريطانية وتصميمها على تهويد فلسطين ... وقد استغرقت هذه الزيارات اسبوعا كاملا ، عاد الوفد بعدها الى نابلس في ١٤ آب فجرى له فيها استقبال عظيم قل أن شاهدت البلاد له مثيلا، وقد اسهبت الصحف (وكنا نطالعها بشغف واهتمام) في وصف زيارات الوفد و « مظاهرات » الشعب ، وخطب رئيس الوفد واعضائه وشروحهم للسياسة البريطانية .

وافتتح المؤتمر الفلسطيني الخامس في نابلس في ١٥ آب ١٩٢٢ في جو من الحماس العظيم . وكان هذا المؤتمر (كما تأكدنا فيما بعد من حياتنا السياسية) اعظم واخطر مؤتمر فلسطيني عقد في البلاد ... حتى عام ١٩٣٣ عندما عقد المؤتمر الوطني الكبير في يافا .. ودام انعقاد المؤتمر الخامس اسبوعا كاملا واصدر في جلسته الختامية قرارات خطيرة للغاية (سنتحدث عنها بالتفصيل والبحث في فصول قادمة) كان في طليعتها رفض الكتاب الابيض وما تضمنه من مشروع لانشاء مجلس تشريعي الخ ..

وفي صباح الثاني والعشرين من آب ١٩٢٢ غادر الوفد مدينة نابلس ،بموكب ضخم من السيارات (قيل لنا أن عددها تجاوز التسعين سيارة ، رغم قلةعدد السيارات في البلاد في ذلك العهد) ولم يصل مدينة القدس الا في نحوالساعة الرابعة بعد الظهر حيث اخرته المهرجانات والمظاهرات التي جرت على طول طريق نابلس — القدس .

وأذكر أن أهل القدس وقراها استقبلوا الوفد على طريق شعفاط ،بمظاهرة ضخمة كبيرة ، تألفت فيها حلقات ، واحدة للاناشيد وثانية للاهازيج وثالثة (للشوباشات) ورابعة للدبكة وخامسة للعبة السيف والترس وهلم جرا .. وكانت في مقدمة المظاهرة حلقة (الطلبة) . ولم ينته الاحتفال باستقبال الوفد حتى المساء ... واستبد بالبلاد حماس عظيم وتصميم عجيب على مقاومة السياسة البريطانية ومقاطعة مشاريعها التي انطوى عليها الكتاب الابيض (كتاب مستر تشرشل) .. كما سيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد .

٦ .. دور جديد ... في حياتي العامة

امنية لم تتحقق

لما خرجت من مدرسة المطران (مطرودا) أصبحت عاطلا عن العمل وعن الدراسة على السواء .. فان المدة الباقية من السنة الدراسية كانت قصيرة بحيث لم يكن من المفيد ولا من المستطاع ان التحق باحدى المدرستين العاليتين في القدس حينئذ (الكلية الانكليزية) و (دار المعلمين التابعة لدائرة المعارف) . وكان المرحوم والدي ينوي ارسالي الى الخارج للدراسة الجامعية وبعد بحث ودراسة استقر الرأي على الحاقي بالجامعة الاميركية في بيروت (وكانت تعرف وقتئذ باسم الكلية) عند بدء عامها الدراسي الجديد في خريف ١٩٢٢ . وكنت مؤهلا لدخول صفها الاول (فريشمان).

فرحت جدا وسررت كثيرا لهذا القرار الابوي ، لانه يحقق لي أمنية ما انفكت تساور نفسي في الالتحاق بمعهد عال أو جامعة كبيرة معروفة ، ومن ناحية ثانية شعرت بارتياح شديد لاني سأظل في القدس بضعة أسابيع أخرى أستطيع أن أقوم خلالها ببعض النشاط في المجالين السياسي والشعبي .

ولكن ظروفا قاسية طرأت حينئذ فحالت دون تحقيق هذه الامنية ، ذلك أن والدي أصيب بمرض عضال ألزمه الفراش وأقعده عن العمل ، في حين كان مضطرا للانفاق على أسرته (وكانت كثيرة العدد) مما كان قد وفره «للايام السود» من مال قليل محدود ، فلم يكن والدي ثريا ، لانه كان صادقا وأمينا في جميع الاعمال التي قام بها والمناصب المدنية التي شغلها .

وحزن والدي حزنا شديدا لعدم استطاعته ارسالي الى الخارج لطلب العلم. وقال لي انه كان من أغلى أمانيه أن أتعلم علوما عالية .. ولكن «العين بصيرة واليد قصيرة» فطيبت خاطره وقلت له : تأكد يا والدي بأنني سأحقق لك هذه الامنية في يوم من الايام مهما طال الزمن ، فقر عينا واهتم الان بصحتك . أجاب ، وعيناه تغرورقان بالدموع ، اني واثق من ذلك ، وأملي بك عظيم والله يحفظك يا ولدي .

ونتيجة لاشتداد المرض بوالدي ساءت أوضاع أسرتنا المادية، فوقع علي عبء ايجاد عمل أساهم بدخله في نفقات المنزل ٠ وكان من الميسور جدا أن أحصل على وظيفة في احدى دوائر الحكومة ، وبمرتب قدره اثنا عشر جنيها ، وهو المبلغ الذي كانت الحكومة تدفعه للمتفوقين من خريجي المدارس الثانوية ٠ وكان للجنيه يومئذ قوة شرائية كبيرة ٠

واتصل بعض أصدقاء العائلة من الموظفين العرب في الحكومة بالمرحوم والدي ، يحثونه على الحاقي بخدمة الحكومة وقالوا له ان حصولي على وظيفة محترمة أمر مضمون ٠ (أحسب ان الانكليز هم الذين كلفوا الموظفين العرب المذكورين القيام بهذه المهمة ، حيث كان الانكليز حريصين جدا على اقتناص الشبان العرب المشاغبين ـ وأنا واحد منهم ـ والحاقهم بخدمتها) ٠ وكان والدي غاضبا من الحكومة وسياستها كما كان يميل الى بقاء الشبان العرب خارج أجهزتها ليستطيعوا أن ينصرفوا بحرية الى خدمة قضية وطنهم ٠ ومع ذلك فانه رد على «الوسطاء» بقوله : صحيح اني في حاجة الى من يعاونني في اعالة العائلة ، ولكنني لا أستطيع أن أنصح «الولد» بقبول وظيفة حكومية ٠ وعلى كل حال فاني أترك الامر كلية له ٠ ولن أمارس أي ضغط على رأيه ٠ وكان أحد هؤلاء الموظفين «الوسطاء» ابن خالي المرحوم القاضي حنانيا حنانيا ، فحاول وزملاؤه ، اقناعي بالعمل في الحكومة ، ولكني اعتذرت لهم عن عدم موافقتي على طلبهم ٠ فقد كانت كراهيتي للحكومة وسياستها قد ملأت قلبي (ولعله كان لحادث طردي من المدرسة ما زاد من هذه الكراهية) ، ولذلك فاني أنفت من الخدمة فيها ٠

وانطلقت أفتش عن عمل كتابي ٠ وكان المرحوم متري سلامة (وهو صديق حميم لوالدي وأحد أقرباء العائلة) يشغل وظيفة مدير عام شركة «توماس كوك وولده» السياحية المعروفة ، وكانت حينئذ ، ولعلها كذلك اليوم ، من أكبر الشركات العالمية للسفر والسياحية ٠ وبعد مراجعته ألحقني بخدمة الشركة بوظيفة «كاتب تحت التمرين» ٠٠ بمرتب شهري قدره خمسة جنيهات ! وقد قبلت هذه الوظيفة وآثرت مرتب الشركة الضئيل على مرتب الحكومة رغم اشتداد الحاجة بنا الى المال ٠

وأعلنت الحكومة (دائرة المعارف) انها ستجري في كانون الاول ١٩٢٣ امتحانا اسمته بامتحان الكفاءة ـ لحملة الشهادات المدرسية الثانوية ٠ فيحصل الذي يجتاز هذا الامتحان على شهادة رسمية من دائرة المعارف ، وهي الشهادة التي انبثقت عنها فيما بعد الشهادة المعروفة بشهادة (المتركيوليشن ٠٠) وكانت غاية الحكومة الحقيقية من اجراء هذا الامتحان «توظيف» الناجحين فيه في دوائرها لشدة حاجتها الى الموظفين في ذلك الوقت ٠ وتقدمت الى هذا الامتحان الى جانب ٢٣٦ شخصا اخرين ، فنجحت فيه ، ولا فخر ، نجاحا عظيما ، حيث نلت فيه أعلى علامة ، (حصلت على ٢٣٩ علامة من مجموع ٢٥٠) وفور ظهور نتائج هذا الامتحان تلقيت من السكرتير العام للحكومة (تشارلز لوك البريطاني) كتابا يهنئني بتفوقي العظيم ، ويعرض علي وظيفة محترمة في دائرة السكرتيرية العامة (فهمت من بعض المصادر المطلعة ان المرتب المقرر لهذه الوظيفة هو ٢٧ جنيها) ٠ فأرسلت كتابا الى السكرتير العام شاكرا له تهنئته ، واعتذرت له عن عدم قبول الوظيفة «لاني أرفض أن أخدم في حكومة تعمل على تهويد وطني» ، وذكرت له في كتابي ان الغرض الوحيد الذي دفعني الى الاشتراك في هذا الامتحان هو اثبات كفاءتي ٠٠! وسعى بعض المسئولين لدى والدي مرة أخرى لاقناعي بقبول الوظيفة المعروضة ، ولكنه رحمه الله ، ابلغهم انه من رأيه الابتعاد عن خدمة الحكومة والانكليز ٠

وعلم «مديري» متري سلامة بما كان ٠٠ فرفع مرتبي من خمسة الى سبعة جنيهات ٠٠ !

الممنوع والمحظور

كانت شركة «كوك» التي توظفت فيها ، شركة تجارية محضة (سياحية ومصرفية) ، بالاضافة الى أنها شركة «انكليزية»٠٠ولكن مصالحها وطبيعة أعمالها جعلتها في منأى عن الامور السياسية ٠ وكان جميع موظفي الشركة في القدس والذين يعملون معها من العرب ، باستثناء موظف بريطاني صغير كان مركز الشركة الرئيسي في لندن يرسله الى القدس بحجة التمرين واكتساب الخبرة (أعتقد أن مهمة هذا الموظف كانت مراقبة الموظفين العرب والتجسس عليهم) ٠

وأبلغني مديري «متري سلامة» بأن قوانين الشركة وتعليمات مركزها الرئيسي

في لندن ، تحظر على موظفيها التدخل بالامور السياسية أو المساهمة في أي عمل لا ترضى عنه السلطات الحاكمة (في أي بلد من البلاد) صيانة لمصالح الشركة وحفاظا على سمعتها ! فقلت : رجعنا الى الممنوع والمحظور كأننا لا زلنا في مدرسة المطران · فألقى علي عظة «أبوية» ونصحني بالتزام انظمة الشركة ، وقال : «بعدك صغير يا ابني على السياسة ·· تريث وانتظر قليلا ··» وكنت في الحقيقة والواقع احترم متري سلامة احتراما صحيحا ، وأحبه ، فوعدته بأن أتجنب ما استطعت التدخل بالسياسة أو القيام بأي عمل يسيء الى سمعة الشركة أو يضر بمصلحتها ، وأظن انني لم أكن صادقا في هذا الوعد ·· فانه لم ينقض عليه بعض الوقت ، حتى جعلتني الظروف «والسياسة التي تجري في عروقي» انكث به ··

جريح في اصطدام

كانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني قد بعثت في خريف ١٩٢٣ بوفد ثان الى بريطانيا للدفاع عن القضية الفلسطينية ، وكان هذا الوفد يتألف من موسى كاظم باشا الحسيني رئيسا ووديع البستاني وأمين التميمي عضوين · وبعد قضاء فترة من الزمن في لندن (لم تنفع جهود الوفد خلالها بحمل الحكومة البريطانية على العدول عن سياستها الجائرة ··) انتقل الوفد الى سويسرا ، حيث كان ممثلو دول الحلفاء وممثلو الجمهورية التركية الجديدة التي أنشأها مصطفى كمال (اتاتورك) يعقدون مؤتمرا في لوزان لتصفية ذيول الحرب العالمية الاولى وذيول الحرب التركية ـ اليونانية وبحث المسائل المعلقة بين الجانبين ، تمهيدا لعقد معاهدة صلح جديدة مع تركيا · فقد كانت الدولة العثمانية عقدت مع دول الحلفاء ، بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى بهزيمة الدولة ، معاهدة «سيفر» ، التي «قضت» تقريبا على الكيان التركي ، فضلا عن الامبراطورية العثمانية · فلما ثار الاتراك بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك) وطردوا الحلفاء من استامبول واليونان من الاناضول ، مزق مصطفى كمال معاهدة سيفر ، وأعلن عن تمسك تركيا بسيادتها على الاقاليم التي سلخت عنها بموجب هذه المعاهدة (ومن ضمنها فلسطين) · لذلك اقتضى الوضع عقد مؤتمر لوزان لتوقيع معاهدة صلح جديدة مع تركيا · وكانت مهمة الوفد الفلسطيني المذكور الاتصال بممثلي الجمهورية التركية ، واقناعهم بعدم النزول عند رغبة الحلفاء بالتخلي عن السيادة التركية على الاقاليم المسلوخة ، على اعتقاد بأن مثل هذا الموقف يتخذه الاتراك من شأنه أن يدعم موقف الفلسطينيين وأن يرغم

بريطانيا على تعديل سياستها **المرسومة لفلسطين** · ونظرا لان مسلمي العالم (والعرب الى مدى بعيد) وقفوا الى جانب ثورة مصطفى كمال وايدوها بالمال والدعاية والاسعاف والبعثات الطبية فقد كان الفلسطينيون يأملون أن يستجيب الاتراك لطلبهم ، ولكن هذا الامل لم يتحقق ·

وعاد الوفد من لندن في شباط ١٩٢٤ ، بحرا الى بورسعيد ، ووصل القدس بالقطار في ٢٣ منه · وخرجت القدس وقراها لاستقبال الوفد في مظاهرة رائعة·

وركب رئيس الوفد والحاج أمين ووديع البستاني (وكان أمين التميمي قد سافر رأسا الى نابلس) سيارة مكشوفة تحيط بها الجماهير · وتركت مكتب شركة كوك (دون استئذان) لاشترك في استقبال الوفد ، وانضممت الى حلقة الشباب التي كانت تتقدم المظاهرة بالاناشيد والاهازيج · ولما وصلت المظاهرة الى ساحة باب العمود ، وقف رئيس الوفد ليلقي كلمة على أفراد الشعب · وقبل أن ينبس ببنت شفة ، انقض رجال الشرطة والجنود الانكليز ، دون سابق انذار على الجمهور بالعصي والهراوات ، وانطلق «فرسان» الشرطة يطأون الشعب بسنابك خيولهم · ووقعت معركة عنيفة بين الشباب والمهاجمين ، أسفرت عن جرح ٣٧ عربيا وعدد من الاعداء ·· وكنت أحد الذين جرحوا في هذه المعركة · فنقلني اخواني الى عيادة الدكتور توفيق كنعان بحي المصرارة ، حيث ضمد جراحي وأعطاني شهادة «مرضية» بملازمة الفراش مدة سبعة أيام ، فأرسلت الشهادة الى مدير الشركة ، لتغطية أسباب غيابي عن العمل ·· وكان مدير شرطة القدس الانكليزي (الماجور كويغلي) على رأس قوة المهاجمين ، وهو الذي أصدر أمره الوحشي بالانقضاض على الشعب الاعزل البريء · وطالبت اللجنة التنفيذية الحكومة باقصاء كويغلي عن منصبه ومعاقبته ·· ولكن الحكومة أهملت هذا الطلب الحق ثم لم تلبث أن رفعت كويغلي الى مرتبة عسكرية أعلى ·· تقديرا لهمجيته !

وعند انتهاء مدة الاجازة (المرضية) عدت الى عملي في مكتب الشركة ، وتوقعت أن أسمع من متري سلامة مثل الكلام الذي تعودت سماعه على لسان مدير مدرسة المطران عندما كان يتهمنا بالتمرد والعصيان ·· ولكن موقف متري سلامة لم يتعد الكلام اللطيف والتقريع الخفيف ، فبقيت في وظيفتي ·· ومن الانصاف أن أذكر هنا أن متري سلامة كان معروفا بالوطنية الصادقة والاخلاص للحركة الوطنية وزعمائها ·

وفاة والدي

اشتد المرض بوالدي ولم يفلح الاطباء في معالجته • فتوفي في الرابع والعشرين من اذار عام ١٩٢٤،فوقع علي عبء اعالة العائلة،حيث كان شقيقي الاكبر عيسى مهاجرا في الولايات المتحدة • وأذكر أن بلدية القدس قررت الانفاق على جنازة والدي (حيث كان قد خدم البلدية عضوا منتخبا في مجلسها سنوات طويلة) وان البطريرك الارثوذكسي (داميانوس) أمر أيضا بمساهمة البطريركية في النفقات • وربما بطيش مني وتحمس في غير موضعه ، أعلنت عن رفضي القبول بما قررته البلدية والبطريركية •• ولكن كبار العائلة اسكتوني وقالوا لي انهم يعتبرون هذا العمل «تكريما» لوالدي وتقديرا لخدماته ، رحمه الله رحمة واسعة •

الثورة السورية

على الرغم من قيود «الوظيفة» وأنظمة شركة كوك وتعليمات مديرها متري سلامة ، وعلى الرغم من ثقل المسئولية التي وقعت على كاهلي نحو العائلة ، فاني لم استطع الابتعاد عن السياسة أو الحركة الوطنية ولو بقدر محدود وعلى ضوء ظروفي الخاصة • فقررت انتهاج السبيل المستطاع لاشباع رغبتي في العمل الوطني دون اثارة أية مشكلة مع الشركة ومديرها !

وأتيح لي ظرف مناسب لبلوغ هدفي ، كان اهتبالي له سبيلا للعمل الوطني ولو على هامشه •

ففي ذلك الحين نشبت الثورة السورية العظيمة بقيادة البطل المجاهد سلطان باشا الاطرش (زعيم جبل الدروز وفارسه المغوار) التي بلغت ذروة قوتها في ١٩٢٤/١٩٢٥ • وقد أثارت هذه الثورة المباركة شعور الفلسطينيين وحماسهم فغدوا ولا حديث لهم الا عنها ، وانطلقوا يؤيدونها بجميع الوسائل التي وقعت عليها أيديهم ، في حين تطوع عدد من أبنائهم لخوض غمارها الى جانب اخوانهم السوريين •

وشكل الحاج أمين الحسيني «لجنة مركزية» في القدس من عدد من الزعماء الفلسطينيين والسوريين ، لجمع الاموال لاسعاف المصابين من المجاهدين

السوريين ومساعدة عائلات الشهداء • (كذلك شكل الحاج أمين لجانا سرية في مختلف انحاء فلسطين وشرق الاردن لتزويد المجاهدين السوريين بالسلاح وسائر وسائل الكفاح) ، وغدت القدس ، في الواقع ، مركز قيادة الثورة السورية وتوجيهها نتيجة لما أبداه الحاج أمين وزعماء فلسطين من اهتمام بها ونشاط في سبيلها ، وما قام به الفلسطينيون من جهود ومساع لدعمها • ولجأ عدد من زعماء سورية وقادة ثورتها الى فلسطين (فرارا من ظلم الفرنسيين واضطهادهم وشرورهم) فأحاطهم الحاج أمين والفلسطينيون بكل عناية ورعاية واهتمام •

وتطوعت للعمل مع فرق الشباب التي تشكلت في القدس لجمع الاعانات وتقديمها الى اللجنة المركزية • وكنا نقوم بجمع الاموال من أفراد الشعب ، لا سيما أيام المواسم والاعياد ، عن طريق بيع بطاقات ، أو زهور ، أو شعارات توضع على الصدور • وكنت مسرورا جدا لاستطاعتي المساهمة في هذا العمل الوطني الانساني !

الحركة الارثوذكسية

ووجدت منفذا اخر أعبر منه الى ميدان العمل الوطني ، دون أن أكون عرضة للمؤاخذة ! كان هذا المنفذ «الحركة الارثوذكسية» (وقد تحدثت عنها ببعض التفصيل في الفصل الاول من هذا الكتاب) • فقد استأنفت الملة الارثوذكسية العربية جهودها لاستعادة حقوق العرب في البطريركية الارثوذكسية ، وتحرير الارثوذكس العرب من نير الاكليروس اليوناني وتسلطه • واشتدت هذه الحركة عام ١٩٢٣ وراح الشباب «الواعي» يخوض غمارها • فشكلوا عام ١٩٢٤ «نادي الاتحاد الارثوذكسي» بالقدس لغرض خدمة الملة العربية ورفع شأنها والعمل على نيل حقوقها المهضومة •

وكان من مؤسسي هذا النادي : صليبا الجوزي ، وباسيل شبر ، وشكري الحرامي ، ونصري ثيودوري ، وحنانيا حنانيا ، وحنا عطا الله ، وجبرا الخوري ، وطناس سلحيت ، واسحق الحلبي ، وعيسى ديبة ، وسابا الشماع واتسعت اعمال النادي وازداد نشاطه فضم الى عضويته عام ١٩٢٥ بعض شباب الملة كان منهم فوتي فريج ، ومينا الحلبي ، ويوسف عبده وحنا منصور وغيرهم • وكنت أحد الذين ضموا الى النادي ، وتقرر تغيير اسم النادي الى

«النادي الارثوذكسي» وجعل له أعضاء مشتركين فيه يدفعون رسما شهريا ويحق لهم الاشتراك في انتخابات هيئته الادارية ومكتبه الرئيسي · وبلغ عدد هؤلاء الاعضاء المشتركين في أواخر ١٩٢٥ أكثر من ٥٠٠ عضو ·

وجرى انتخاب عام لهيئة النادي الادارية ومكتبه الرئيسي في مطلع ١٩٢٦ لازمته معركة شديدة بين كتلتين تنافستا على مراكز المكتب · وانتهت هذه المعركة (وكانت في الحقيقة معركة رياضية) بانتخاب الدكتور فوتي فريج لرئاسة النادي ونصري ثيودوري لامانة المال وأميل الغوري لامانته العامة (السكرتيرية) وعاد جميع أعضاء النادي ، بعد انتهاء المعركة الانتخابية الى التعاضد والتعاون الصادق فيما بينهم ·

وأنشأ النادي «المدرسة الارثوذكسية الوطنية» ينفق عليها من تبرعات أبناء الطائفة · وشكل لجنة خاصة عرفت باسم (لجنة المعايدات) من خليل الحكيم وجبران البيبي والياس الخوري اسكندر وعيسى القسيسية وسابا اليوسف ، لجمع التبرعات أيام الاعياد الرئيسية وأعياد أبناء الطائفة الشخصية · وكان لهذه اللجنة وجهودها الفضل الاكبر في استمرار المدرسة وصيرورتها معهدا وطنيا صرفا يضم طلبة من المسيحيين والمسلمين على السواء ·

وعمل النادي في مختلف المجالات العامة ، والسياسية ، فساهم في الحركة الوطنية ، وناصرها ، وتولى مرارا جمع التبرعات المالية لدعمها ، وعقد عدة «مؤتمرات أرثوذكسية» حضرها زعماء الملة في فلسطين وشرق الاردن للمطالبة بحقوق العرب الارثوذكس ومقاومة السيطرة الروحية الاجنبية على الملة وكنائسها وأوقافها الخ ·· وأحال النادي احتفالات «سبت النور» (اليوم الذي يسبق عيد الفصح المجيد) الى مهرجانات وطنية كان يشترك فيها جمهور كبير من أبناء يافا واللد والرملة ورام الله وبيت لحم وغيرها ، فغدا موكب «سبت النور» التقليدي موسما وطنيا ، وصورة مصغرة عن موسم «النبي موسى» الذي أحاله الحاج أمين الحسيني وزملاؤه الى موسم وطني سياسي من الطراز الاول ·

كتلة شباب

ومع أني وجدت في «النادي الارثوذكسي» وجهوده وأعماله ، مجالا واسعا أعمل فيه ، وعن طريقه ، في الحقلين الوطني والسياسي ، لاسيما وقد غدت الحركة الارثوذكسية جزءا من القضية الوطنية لا يتجزأ كما قررت ذلك

«المؤتمرات الفلسطينية العربية» السياسية نفسها ، فقد كنت أطمع في العمل في مضمار يكون مجاله أوسع من ميدان الحركة الارثوذكسية ، وتنتفي فيه كل صفة طائفية أو مظهر محلي · وكانت «علاقات» الزمالة المدرسية لا تزال تربطني بعدد من شباب القدس الذين انتقلوا من المدرسة الى الحياة العامة ، أو الى الدراسة الجامعية ، فاتفقنا فيما بيننا على تشكيل كتلة من بعض هؤلاء الشباب للعمل الوطني دون ما ضجة ، ودون أن تتخذ هذه الكتلة لنفسها أي مظهر رسمي وذلك لعدة اعتبارات كانت قائمة حينئذ ، فان ما كان يهم أفرادها ، هو توفر الانسجام والتفاهم فيما بينهم · والعمل المثمر والجهد الفعال · وكان من أبرز شباب هذه الكتلة نافذ الحسيني وضياء الدين الخطيب وعبد القادر الحسيني وعبد القادر الجاعوني وجول دانيل ، وخالد الدزدار ، وسعد الدين العارف وطاهر بركات ، وعلي محي الدين الحسيني ، وجورج فرح ، وهنري كتن ، وسليمان صالح الحسيني ·

وقد ركزت هذه الكتلة نشاطها على ميادين التوعية والدعاية والتجول في المدن والقرى للحث على مقاطعة اليهود ومقاومة بيع الاراضي ، وجعلت من نفسها ـ على ضوء استطاعة افرادها ـ أداة للمساهمة في تنفيذ القرارات الوطنية التي كانت تصدر عن زعامة البلاد الممثلة في اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني ·

وبفضل العمل ضمن اطار هذه الكتلة انفتحت امامي افاق واسعة للتعرف لا على رجال القدس وزعمائها فحسب بل أيضا على العديدين من رجال فلسطين وقادتها ·· وكنت أكثر من زياراتي لمكاتب اللجنة التنفيذية ، وأحشر نفسي في بعض الاجتماعات العامة والشعبية التي كانت تعقدها في القدس بين الحين والحين ·

موسى كاظم الحسيني

وكنا ، نحن شباب الكتلة المذكورة ، نوالي زياراتنا لموسى كاظم باشا الحسيني في بيته ، لنستمع الى أحاديثه ، وتوجيهاته وارشاداته ، وكان الباشا زعيم البلاد الاول ورئيس اللجنة التنفيذية · وكنا نحترمه احتراما عظيما ، ونعتبره وطنيا صادقا صلبا ، ونرى فيه مثال النبل والوفاء والثبات ·

والواقع أن حبنا لكاظم باشا ، كزعيم وطني ، نشأ منذ ١٩١٩ ، عندما

كان يقود المظاهرات الشعبية في القدس للمطالبة بحقوق البلاد والاحتجاج على الحكم البريطاني وتصريح بلفور والحركة اليهودية. وترسخ هذا الحب في قلوبنا عندما سجنته السلطات البريطانية العسكرية في عكا على اثر ثورة القدس في الرابع من نيسان ١٩٢٠ .

وكان موسى كاظم يشغل منصب رئيس بلدية القدس ، دون أن يمنعه هذا المنصب (وهو ذو صفة رسمية) من المساهمة في الحركة الوطنية بل قيادتها .

وكانت الحكومة البريطانية قد أصدرت قانونا (تنفيذا لسياستها الباغية) جعل للبلاد ثلاث لغات رسمية ، الانكليزية والعربية والعبرية . وانطلقت الحكومة تطبق هذا القانون في جميع دوائرها وفي «البلديات» في فلسطين ، كما اشترطت على البلديات ورؤسائها التعاون مع السلطات البريطانية . ولكن موسى كاظم رفض هذا التعاون ، وأبى الموافقة على جعل اللغة العبرية لغة رسمية في بلدية القدس ، علما بأن ثلث اعضاء مجلسها كانوا من اليهود ، فما كان من السلطات الا أن عزلته من رئاسة البلدية .. وعينت راغب النشاشيبي رئيسا لها ، فقبل التعيين ضد رغبة الاهلين الذين أيدوا بالاجماع موسى كاظم في موقفه ، وعلى الرغم من أن الحكومة كانت قد عرضت رئاسة البلدية على عدة زعماء من القدس فرفضوها .

وعلى مر الايام والاعوام ازدادت معرفتنا وعلاقتنا ، بزعماء الحركة الوطنية ورجالها البارزين لا سيما في القدس ، وغدت لنا اتصالات وثيقة معهم ، وخاصة بخليل السكاكيني وجميل الحسيني وشبلي الجمل وجمال الحسيني وابراهيم شماس وعبد القادر المظفر وغيرهم .

في الوقت نفسه كان عدد من شباب القدس – أكبر منا سنا – يشكلون زعامة حقيقية للشباب الوطني ، كان لها أكبر الاثر في توجيه الحركة الوطنية الفلسطينية وتنشيطها واحالتها الى حركة مقاومة . وكانت اتصالات افراد كتلتنا بهذه الفئة من الشباب القياديين وثيقة جدا ، وكثيرا ما كنا نتصل بزعامة البلاد وقادتها عن طريق رجال هذه الزعامة الشابة . وكان من أفراد «زعامة» الشباب المذكورة اسحق درويش ، وجميل الشهابي ، وعبد اللطيف الحسيني ، وابراهيم درويش ، ومنيف الحسيني ، وسعد الدين عبداللطيف ، وقد وردت الاشارة الى جهودهم في الفصول السابقة .

الحاج أمين الحسيني

كان الحاج أمين الحسيني يشغل في ذلك العهد فضلا عن مركز مفتي القدس منصب رئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى لفلسطين . وقد جعله الحصن الاول للحركة الوطنية ، والقاعدة الاساسية التي تنطلق منها المقاومة الفلسطينية ، وعلى الرغم من أن موسى كاظم باشا كان زعيم البلاد وقائد حركتها الوطنية ، وأن اللجنة التنفيذية التي يرأسها كانت تمثل الشعب الفلسطيني وتنطق باسمه وتتحمل مسئولية القضية الوطنية ، فاننا كنا نشعر بأن الحاج أمين كان القوة الدافعة للحركة الوطنية ، ومركز الثقل في المقاومة الفلسطينية ، والعنصر الفعال الموجه في المحيط العربي الفلسطيني ، السياسي والوطني على السواء ، وذلك بالاضافة الى الدور العظيم الموفق الذي كان يقوم به في مضمار الشؤون الاسلامية المحضة . وكنا ننظر الى الحاج أمين نظرة خاصة ، تختلف في بعض وجوهها عن نظرتنا الى موسى كاظم ، رغم حبنا وتقديرنا لزعامته واخلاصه . وقد دفعنا هذا الواقع الى التطلع نحو التقرب من الحاج أمين والعمل معه مباشرة ان امكن .

وكان اسم الحاج أمين يملأ الاسماع منذ أيام الدراسة .. وكانت أعماله الوطنية ومواقفه الصلبة ، تثير مشاعرنا ، فتعلقنا به منذ هاتيك الايام . وترسخ هذا التعلق العميق في نفوسنا بشكل قوي منذ ثورة القدس في ٤ نيسان ١٩٢٠ ، وما عقبها من اضطهاد الانكليز له ، وحكمهم عليه بالسجن بالاشغال الشاقة مدة خمسة عشر عاما ، وفراره الى سورية ، عبر شرق الاردن ، تخلصا من أذى الانكليز ، ثم عودته الى القدس ، بعد الغاء المندوب السامي للحكم المذكور ، فانتخابه لمنصب الافتاء في القدس لرئاسة المجلس الاسلامي الاعلى .

وازداد حبنا للحاج أمين ، وتعلقنا به ، على مر الايام ، وعلى ضوء ما كان يبذله من جهود صادقة في سبيل الوطن ، وما كان يقوم به من أعمال جديدة والعناية الفعالة بشؤون المجلس الاسلامي الاعلى ، وما كان يتعرض له من مؤامرات الاعداء ودعاياتهم وحملاتهم ومن قيام اعوان السلطة وذوي الاهواء والاغراض من «العرب» بمعارضة المجلس الاسلامي الاعلى بشدة ومقاومة رئيسه بعنف .

وكان من خطط الحاج أمين الحسيني السياسية ، منذ البداية ، اثارة اهتمام العرب والمسلمين بقضية فلسطين وحشد قواهم وتعبئة امكاناتهم

لتأييدها والدفاع عنها ، وجعل هذه القضية قضية عربية عامة ، وقضية اسلامية عالمية . وكانت خطة الحاج أمين هذه من العوامل الرئيسية التي حفزت الانكليز وأعوانهم واليهود الى مقاومته ومحاولة التخلص منه ، فما كان يقلق الاعداء أمر كما كان يقلقهم جعل قضية فلسطين قضية عربية عامة وقضية اسلامية عالمية .

فلما انتخبه الشعب رئيسا للمجلس الاسلامي الشرعي الاعلى وتولى هذا المنصب ، بادر الحاج أمين يعمل على تحقيق خطته . فبعث بأول وفد فلسطيني اسلامي الى الهند للاتصال بقادة المسلمين فيها بشأن قضية فلسطين ونصرتها ، وقد تألف الوفد من الشيخ محمد مراد ، مفتي حيفا ، وجمال الحسيني ،وحسن الانصاري (شيخ زاوية الهنود في القدس) ، وقد توفق هذا الوفد الفلسطيني الاسلامي في مهمته توفيقا عظيما .

وقرر الحاج أمين الحسيني أن يقوم برحلة الى سورية والعراق وامارات الخليج لاثارة اهتمام العرب بقضية فلسطين ، على أن تعقبها فيما بعد رحلة الى مصر والشمال الافريقي . فسافر على رأس وفد من بعض رجال الحركة الوطنية في ١٩٢٣ ، الى دمشق ، فيقضي فيها بضعة أيام ثم يستأنف السفر الى العراق ووصل المفتي الى دمشق ونزل في فندق فيكتوريا ، حيث هرع رجال الشام للسلام عليه . وفي المساء طوقت الفندق المذكور قوة من الجيش الفرنسي ، ومنعت الناس من دخوله ، وطلب قائد القوة من الحاج أمين مغادرة دمشق فورا .. فرفض الاذعان لهذا الامر وأجاب القائد الفرنسي «بأن دمشق بلدي ولي حق الاقامة فيها ، أما أنتم فغرباء عنها دخلاء عليها وليس من حقكم منعي من الاقامة في وطني» .

وسرى نبأ هذا الانذار في دمشق سريان النار في الهشيم ، فقامت (في الليل) مظاهرة شعبية ضخمة احتجاجا على موقف فرنسا واعلانا عن رغبة السوريين وترحيبهم باقامة المفتي في عاصمتهم . ووقع اصطدام عنيف بين الجند الفرنسي والمتظاهرين ، سقط خلاله جرحى من الفريقين .. وبعد أن تمكن الفرنسيون من تفريق المظاهرة ، حملوا الحاج أمين بالقوة ونقلوه على متن دبابة فرنسية الى خارج الحدود السورية ـ العراقية !

وترك هذا الحادث رد فعل عميقا في نفوس العرب عامة والفلسطينيين خاصة ففي الحين الذي ضاعف الحادث من سمعة الحاج أمين ومكانته في الاوساط

الشعبية ، فانه زاد العرب قناعة بأن الاستعمار ملة واحدة وان الفرنسيين يدعمون السياسة البريطانية في فلسطين ويؤيدونها . أما نحن الشباب فقد زادنا هذا الحادث تعلقا بالحاج أمين وحبا له ، وضاعف من رغبتنا في التعاون معه والعمل تحت زعامته .

بعد عامين أو ثلاثة أعوام على هذا الحادث ، قرر المندوب السامي الفرنسي في سورية ولبنان ـ الكونت دي جوفنيل ـ زيارة القدس تلبية لدعوة وجهها اليه المندوب السامي البريطاني في فلسطين . وأعدت القنصلية الفرنسية العامة في القدس ، بالتعاون مع حاكم القدس البريطاني ، برنامجا لهذه الزيارة ، تضمنت ، من بين ما تضمنته ، زيارة دي جوفنيل للحرم الشريف والاماكن المقدسة الاسلامية . وطلبت الحكومة من المجلس الاسلامي اتخاذ الترتيبات اللازمة (المعتادة في مثل هذه الحالات) بشأن زيارة كبار الوافدين ، وفوجيء حاكم القدس البريطاني بكتاب من الحاج أمين يقول فيه بأنه لا يستطيع السماح للمندوب السامي الفرنسي بزيارة الحرم الشريف بالقدس وسائر الاماكن المقدسة الاسلامية في البلاد .وكانت للمجلس الاسلامي السلطة المباشرة عليها. واستغرب الحاكم هذا الموقف وزار المفتي يستوضحه الامر . فقال له الحاج أمين لو كنت أملك السيطرة على فلسطين كلها لمنعت المندوب السامي الفرنسي من دخولها ، اما واني لا املك غير السلطة على الاماكن المقدسة الاسلامية فاني أمنعه من دخولها . وسأل الحاكم عن السبب لهذا الرفض .. فأجاب المفتي ان المندوب السامي الفرنسي منعني من زيارة وطني (سورية) وأخرجني بالقوة من دمشق .. وكرامتي وكرامة أمتي تحتم علي الرد عليه بهذه الوسيلة. ولم يكن دي جوفنيل عام ١٩٢٣ مندوبا ساميا لفرنسا في سورية ، ولكن المفتي اعتبر منصب المندوب السامي ، لا شخصه ، مسؤولا عما جرى له . وبالنتيجة اعتذر دي جوفنيل للمفتي على ما لقيه في دمشق .. فقبل المفتي الاعتذار ورحب بزيارة دي جوفنيل للحرم الشريف والاماكن المقدسة الاسلامية الاخرى . وكان لهذا الحادث أكبر الاثر في نفوس الشعب ، الذي أكبر تمسك المفتي بكرامته وكرامة أمته .

الاتصال بالحاج أمين

وحققت الظروف أمنيتنا نحن الشباب بالتقرب من المفتي والعمل تحت لوائه دون أن يعتري ولاءنا للحركة الوطنية وزعيمها موسى كاظم أي وهن . والواقع أن الحاج أمين ـ وكان نفسه شابا ـ كان حريصا كل الحرص على افساح مجال

العمل أمام الشبان ، كما كان يرغب رغبة صادقة في أن يقتحموا ميدان الحركة الوطنية ، ولقد أيقنا بهذا عندما رأيناه يرحب بنا للعمل ويشجعنا على الاتصال به والتحدث اليه في مختلف الشؤون العامة ٠ وهكذا بدأت اتصالاتنا بالحاج أمين وأعمالنا مع سماحته ٠ وقد أخذت هذه الاتصالات تنمو على مر الايام والاعوام ، وجعلت تتخذ أنواعا وأشكالا مختلفة ، يمت كل واحد منها بصلة وثيقة الى المصلحة الوطنية وسلامة القضية الفلسطينية ٠

وكان الحاج أمين يعطف عطفا أكيدا على الحركة الارثوذكسية العربية ،حيث كان يعتبرها جزءا من الحركة الوطنية لا يتجزأ ، وانكفأ يدعمها ويعضدها ويساعدها على قدر المستطاع في جميع ميادين جهودها وأعمالها ٠ ومن هنا انطلق أمامي ـ كسكرتير عام للنادي الارثوذكسي ـ مجال فسيح لزيادة الاتصال بالحاج امين والعمل تحت قيادته ٠ ومما هو جدير بالذكر أن تعلق المسلمين بالحاج أمين لم يكن أقوى من تعلق المسيحيين بهذا الزعيم ، وهذه حقيقة تشهد بصحتها احداث فلسطين التي تعاقب وقوعها خلال اعوام الانتداب البريطاني وبعده ، وقد بلغ من حب شباب النصارى للمفتي وتعلقهم به انهم كانوا يهتفون باسمه في جميع الاجتماعات والمظاهرات التي كانوا يقومون بها ، في الميدان الارثوذكسي العربي ، كما كانوا ينادون بحياته حتى في الاحتفالات التي كانت لها صبغة دينية ، كموسم سبت النور ، حيث كانوا وهم يحتفلون بهذا الموسم داخل كنيسة القيامة يحيون الحاج أمين ويهللون بقولهم «حاج أمين يا مفتينا» ٠

زيارة بلفور ٠٠

وأعلنت الحكومة أن اللورد بلفور ، صاحب الوعد المشؤوم المعروف ، سيزور القدس وفلسطين في ١٩٢٥ ، وأعدت برنامجا خاصا لهذه الزيارة ، وقد تضمن هذا البرنامج زيارة خاصة يقوم بها بلفور الى الجامعة العبرية ٠٠ لغرس شجرة في حديقتها ٠

وقرر عرب فلسطين مقاطعة زيارة بلفور والاضراب والتظاهر يوم وصوله الى فلسطين ٠ وأعلن المجلس الاسلامي الاعلى اغلاق جميع الاماكن المقدسة الاسلامية في وجهه ومنعه من زيارتها أو الدخول الى ساحاتها ، كما قرر الشباب النصارى في القدس منع بلفور من دخول كنيسة القيامة المقدسة وزيارتها ٠ وعبثا حاولت الحكومة اقناع المجلس الاسلامي بالغاء قراره والسماح لبلفور

بزيارة الحرم الشريف بالقدس ، حيث تمسك المجلس بموقفه حتى النهاية ٠

وأضربت فلسطين من أقصاها الى أقصاها يوم وصول بلفور الى البلاد ، وقامت المظاهرات في مختلف مدنها وقراها احتجاجا على زيارة صاحب الوعد المشؤوم ، وكانت المظاهرة التي قام بها أهل القدس ـ وكان لنا معشر الشباب دور كبير فيها ـ اعنف المظاهرات وأخطرها ، حيث اصطدمت القوات البريطانية بالمتظاهرين في عدة أنحاء من المدينة ، فسقط عدد من الجرحى من الفريقين ٠

وقضى بلفور ثلاثة أيام في فلسطين زار خلالها المستعمرات اليهودية والجامعة العبرية ، ولكن عربيا واحدا لم يشترك في أي من الاحتفالات الكثيرة التي أقامتها السلطات لضيفها العزيز ! وظلت حالة التوتر والقلق تعم فلسطين خلال وجود بلفور فيها ، في حين أعلنت الحكومة حالة الطوارىء وملأت المدن والقرى بالجند والشرطة ٠٠ وغادر بلفور فلسطين دون أن يستطيع زيارة الاماكن المقدسة الاسلامية أو الدخول الى الحرم الشريف في القدس ٠ أما فيما يتعلق بكنيسة القيامة المقدسة ، فقد زارها خلسة في المساء بواسطة ومعرفة الرئاسات الروحية الاجنبية ٠٠ ودون معرفة أحد من العرب المسيحيين ٠٠٠!

وغادر بلفور فلسطين الى دمشق ، على أمل أن يزور سورية ولبنان ، ولكن أهل دمشق هبوا على بكرة أبيهم فور وصول بلفور اليها يقاومون زيارته للمدينة العربية الخالدة ، وقامت في دمشق مظاهرات عنيفة ، عقبها اصطدامات شديدة بين المتظاهرين والقوات الفرنسية ، حاول المتظاهرون خلالها احراق الفندق الذي حل فيه بلفور ٠٠ فاضطرت السلطات الفرنسية الى نقل بلفور من دمشق على متن سيارة مصفحة ، تحرسها قوات فرنسية ضخمة ، الى لبنان ، فلما وصل بيروت قابله أهلها بمظاهرة صاخبة عنيفة ، مما اضطر السلطات الفرنسية الى نقله الى منطقة الميناء ومنها الى باخرة فرنسية كانت ترسو فيها ٠

الاضطرابات والاصطدامات

وقعت خلال الحقبة التي يشتمل هذا الفصل على أهم أحداثها وتطوراتها ، وهي الحقبة الواقعة بين ١٩٢٣ و ١٩٢٩ ، سلسلة من المظاهرات والاضرابات، والاضطرابات والاصطدامات بين الفلسطينيين وبين الانكليز واليهود ، في مختلف انحاء البلاد ٠ فكان الفلسطينيون يضربون ويتظاهرون سنويا في مناسبة ذكرى

صدور تصريح بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧) ،فيصطدمون بالقوات البريطانية والعصابات اليهودية ، لا سيما في القدس ويافا وحيفا وصفد وطبرية والخليل ونابلس ، فضلا عن هذا فان الفلسطينيين قاموا خلال هذه الحقبة الزمنية ، بمظاهرات عديدة ، وأعلنوا اضرابات كثيرة ، احتجاجا على اجراءات كانت تتخذها الحكومة واليهود لتنفيذ السياسة الرهيبة المرسومة لتهويد فلسطين ، ولم يكن أي اضراب يمر ، ولا مظاهرة تجري ، دون وقوع اصطدامات دامية بين العرب وأعدائهم ٠

وكان السبب الرئيسي في وقوع الاصطدامات والاضطرابات خلال هاتيك الاعوام ، ازدياد مخاوف العرب من تدفق الهجرة اليهودية على البلاد ، ومضاعفة اليهود لجهودهم ومساعيهم للاستيلاء على أراضي فلسطين ، واقدام اليهود ، بمساعدة الحكومة ومعرفتها ، على التسلح وانشاء المنظمات العسكرية (السرية) وتدريب أفرادها ٠

وحدثت معظم هذه الاصطدامات ، وأكثرها عنفا وخطورة ، في مناطق بيسان والناصرة وحيفا وقرى مرج بن عامر ، حيث استشرى خطر استيلاء اليهود على اراضيها . وكانت اراضي واسعة من اراضي هذه المناطق ملكا للعرب الفلسطينيين ، يستغلونها ويزرعونها ويتصرفون بها ، على أن بعض الاسر اللبنانية والسورية ذات النفوذ والسيطرة والاقطاع ، استطاعت في النصف الثاني من القرن الماضي بفضل مساعدة الحكام الاتراك لها ، ادعاء حماية «الفلاحين والمزارعين» من سيطرة الحكام الاتراك ، وتخفيض (الضرائب) التي كانوا يفرضونها عليهم بصورة كيفية ظالمة ، واقنعت هذه الاسر الملاكين والمزارعين العرب بتسجيل ملكية أراضيهم على أسماء الاسر المذكورة ، على أن تبقى الاراضي في حيازة الفلاحين والمزارعين ، يدفعون حصة معينة من ريعها «للمالكين» بالتسجيل ، مقابل حمايتهم للفلاحين والمزارعين وتخفيض الرسوم والضرائب المطلوبة منهم !

وظل هذا الوضع قائما الى ما بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين ٠ فلما وسع اليهود جهودهم ونشاطهم لشراء أراضي فلسطين ، ركزوا مساعيهم بصورة خاصة على المناطق الانف ذكرها ، وانطلقوا يعرضون على العرب أثمانا «خيالية» لاراضيهم ٠٠ ولكنهم لم ينخدعوا بالاموال الطائلة التي لا حد لها التي كان يلوح بها اليهود لهم ، ورفضوا التنازل عن أراضيهم ٠ حينئذ لجأ اليهود الى «المالكين» بالتسجيل من اللبنانيين والسوريين ، لشراء هذه الاراضي منهم ٠

وبفضل تدخل السلطات البريطانية والفرنسية على السواء باع هؤلاء «المالكون» أراضي مرج بن عامر وغيرها في شمال فلسطين الى اليهود ، وقبضوا منهم ملايين الجنيهات ٠٠ ونذكر من هذه العائلات عائلات سرسق والجزائري واليوسف والقباني وسلام والتيان والتويني والشماع وغيرها ٠٠

وبدلا من أن تقوم الحكومة بحماية الفلاحين والمزارعين في هذه الاراضي ، فانها تنكرت لجميع حقوقهم الاصلية والمكتسبة ، واعترفت بشرعية البيوعات التي جرت (وكانت كلها غير قانونية) ، وأمرت الفلاحين والمزارعين العرب بتسليم أراضيهم وقراهم لليهود ٠٠ ولما رفض العرب التنازل عن أراضيهم ، وأبوا الخروج منها ٠٠ لجأت السلطة البريطانية الى قوة الحديد والنار فأخرجت الفلاحين والمزارعين من قراهم واراضيهم بالعنف ، بعد أن قوضت خيامهم ونسفت بعض بيوتهم ، وأتلفت مزروعاتهم ، وأتت باليهود وأحلتهم مكانهم ! وقد سقط عدد من الشهداء العرب والكثيرون من الجرحى ، من بينهم النساء والشيوخ والاطفال ، على أيدي القوات البريطانية ٠

وكان من القرى التي أخرجت الحكومة أهلها العرب منها بالقوة وسلمتها لليهود ، المنسى ، والعفولة ، والفولة ، وطبعون ، والزبيدات ، وبعض أراضي عشائر الساخنة والصقر وغيرها ٠ وتشرد سكانها العرب ونزحوا الى مناطق أخرى من فلسطين ٠ (وكان مصير أراضي وادي الحوارث وعربها فيما بعد مثل هذا المصير المحزن) ٠

وتشكلت في القدس ، وسائر المدن الفلسطينية الكبرى لجان لجمع الاموال والتبرعات لمساعدة هؤلاء المشردين العرب ٠٠

٧. الانتخابات البلدية

كان اهل فلسطين ، خلال العهد العثماني ، شأنهم في ذلك شأن سائر مواطني الدولة العثمانية ، يتمتعون بحقوق مدنية وحريات سياسية واسعة في شتى نواحي حياتهم ، فينتخبون مجالس الادارة ، والمجالس البلدية ، وممثليهم في المبعوثان — مجلس النواب — في العاصمة استامبول .

فلما احتل الانكليز فلسطين انكروا على الشعب جميع حقوقه المدنية والديمقراطية ، فضلا عن السياسية ، وانطلقوا يعينون رؤساء البلديات واعضاء مجالسها من اشخاص معظمهم ممن كانت تعتمد عليهم الحكومة وتثق بتعاونهم معها . وعلى اثر انشاء الادارة المدنية (البريطانية) في فلسطين عام ١٩٢١ ، طالب الفلسطينيون بوجوب اجراء انتخابات للمجالس البلدية ، ولكن السلطات البريطانية رفضت تلبية هذا الطلب ، وواصل الفلسطينيون الضغط على الحكومة لاجراء الانتخابات البلدية فكانت لا توافق على ذلك متذرعة بمزاعم باطلة وحجج واهية لتبرير موقفها . وتبين للفلسطينيين أن رفض الحكومة لاجراء انتخابات بلدية عامة في فلسطين ، يرجع الى خوفها من فوز الوطنيين فيها ، فيسيطرون على المجالس البلدية ورئاساتها ، ويحرم منها انصارها والمتعاونون معها من العرب ، وهم قوة كبيرة كان الانكليز يعتمدون عليها ويسخرونها لمقاومة المجلس الاسلامي الاعلى ومعارضة الحركة الوطنية . ومن ناحية اخرى كانت الحكومة ترفض اجراء الانتخابات لان اليهود (لا سيما في القدس ويافا وحيفا — وهي مدن فلسطين الرئيسية الاولى) كانوا يشكلون اقلية ضئيلة بين اصحاب حق الانتخاب وفق نصوص قانون الانتخاب الذي ما زال ساري المفعول ، ولكن دون تنفيذ ، فخشيت أن تؤدي نتائج الانتخابات الى انخفاض عدد الاعضاء اليهود الذين كانت الحكومة قد عينتهم في المجالس البلدية للمدن المشتركة (التي فيها سكان عرب ويهود) .

تبدل موقف الحكومة

وفي الحين الذي ظل الانكليز يرفضون اجراء انتخابات عامة للمجالس البلدية فانهم وافقوا ، بصورة مفاجئة على اجرائها عام ١٩٢٧ . وكان الحافز الاساسي الذي دفع بالحكومة الى تبديل موقفها ، ادراكها أن عدد السكان اليهود (الشرعيين في نظر الحكومة) قد ارتفع كثيرا في المدن الكبرى (يافا وحيفا والقدس) بحيث غدا لهم من الاصوات ما يستطيعون معها التحكم في نتائج الانتخابات في هذه المدن .

وسنت الحكومة نظاما جديدا للانتخاب (انبثق بنصوصه وروحه من سياستها الباغية وصك الانتداب) لاجراء الانتخابات بموجبه ، وقد حرم عدد كبير من العرب ، وفقا للنظام الجديد ، من حقهم في الانتخاب ، في حين افسح المجال لليهود (غير الشرعيين) والاجانب من دافعي الضرائب البلدية ، للاشتراك فيه .

واحتجت القيادة الفلسطينية على هذا النظام الذي اعتبرته جائرا ، واصرت على وجوب تعديله بشكل يوفر للعرب حماية حقوقهم ، وعدم حرمان العديدين منهم من هذه الحقوق . ولكن السلطات البريطانية التزمت نظامها ورفضت ادخال اية تعديلات عليه . ولما كان الفلسطينيون متمسكين بمطلبهم باجراء انتخابات للمجالس البلدية ، ويعنون بنتائجها ، في مختلف المدن بقدر عنايتهم بنتائجها في القدس ويافا وحيفا ، فان رفضهم لاجراء انتخابات بلدية يناقض مطلبهم الذي ما انفكوا يتقدمون به . وبغية تجنب تحكم الاقليات اليهودية في نتائج الانتخابات ، طلب الفلسطينيون أن تجري الانتخابات على اساس طائفي ، أي أن ينتخب كل من العرب واليهود ممثليهم في المجالس البلدية ، دون أن يشترك أي من الفريقين بانتخاب ممثلي الفريق الاخر . وقد اقتضت هذا الطلب (وبعضهم يعتبره غير ديموقراطي) المصلحة الوطنية في الدرجة الاولى ، فرفضت الحكومة هذا الطلب واصرت على أن يشترك الناخبون العرب واليهود في انتخاب جميع اعضاء المجلس البلدي في كل مدينة . ثم طلب الفلسطينيون أن تجري الانتخابات على اساس (الدوائر) ... ولكن الحكومة لم تقبل ايضا بهذا الطلب الديمقراطي الصحيح ... فقد كان هدفها الاساسي تمكين الناخبين اليهود في المدن الكبرى من التحكم في نتائج الانتخابات .

وفي النهاية قبل العرب بنظام الانتخاب المفروض ، فأعلنت الحكومة وضعه موضع التنفيذ ، وشكلت لجانا خاصة لاعداد لوائح الناخبين ، وقررت أن تحدد عدد اعضاء كل مجلس بلدي ، بالنسبة لاعداد الناخبين وعلى ضوئها . وبعد أن اتمت هذه اللجان اعمالها ، ومرت في جميع الادوار التي نص عليها نظام الانتخاب . حددت الحكومة تاريخا لاجراء الانتخابات ، وعدد اعضاء كل مجلس من المجالس البلدية ، أما رئيس المجلس البلدي فنص نظام الانتخاب على أن يعينه المندوب السامي من بين الاشخاص الذين يفوزون بالانتخاب .

بلدية القدس

وتقرر أن يتألف المجلس البلدي للقدس من ١٢ عضوا (٥ مسلمون و٣ نصارى واربعة يهود)وقد حددت الحكومة هذا العدد على اساس عدد اصحاب حق الانتخاب ، الذين كان ثلثاهم من العرب وثلثهم من اليهود .

ونظرا لاهمية مدينة القدس ومركزها ، ولكونها عاصمة البلاد ومركز القيادة الوطنية ، والميدان الاول للنزال والصراع بين الاحزاب والفئات السياسية المختلفة . فقد اتجهت انظار العرب بصورة خاصة الى الانتخابات البلدية فيها .

وظهرت لائحة يهودية موحدة للمرشحين اليهود الاربعة ، ولوائح اخرى فردية صغيرة ، في حين ظهرت لائحتان عربيتان متنازعتان : الاولى لائحة — عرفت بلائحة الوطنيين — ضمت المرشحين السادة : عارف باشا الدجاني ، ومتري سلامة ، وجمال الحسيني ، والياس جلاد ، والدكتور حسام أبو السعود ، وعبد الرحيم الطبجي ، وحسن عويضة والمهندس جورج شبر . أما اللائحة الثانية — وعرفت بلائحة المعارضين — فقد تألفت من المرشحين السادة : راغب النشاشيبي ، يعقوب فراج ، نخله كتن ، محمد يوسف العلمي ، سعد الدين الخليلي ، زكي نسيبة ، عبد الحليم الطوبجي ، فرنسيس بطاطو . وخصصت الحكومة مركزين للانتخاب : مركز للناخبين العرب،ومركز للناخبين اليهود ، ويلاحظ أن كلا من اللائحتين العربيتين الانفتي الذكر ، ضمت المرشحين المسلمين والمسيحيين على السواء ، كمرشحين عرب !

ووقعت معركة عنيفة بين اللائحتين العربيتين ، اي بين جبهةالحركةالوطنية وجبهة المعارضة . وأذكر اننا معشر الشباب ، ولم يكن لغير القليلين جدا

من فئتنا ، حق الانتخاب ، ساهمنا بجد وقوة في اعمال التنظيم والدعاية لصالح اللائحة الوطنية .

وجرت الانتخابات في اليوم المحدد لها في جو ساده القلق والحماس ، وفي ظل سيطرة القوات الحكومية المسلحة ، خوفا ، كما قيل حينئذ ، من وقوع اصطدامات بين العرب ! وقد دلت النتائج الرسمية على أن مرشحي الحركة الوطنية نالوا ٦٥٪ من الاصوات العربية ، وأن مرشحي المعارضة حصلوا على ٣٥ بالمئة ، ومع ذلك فان ستة اشخاص من المعارضين اصبحوا اعضاء في المجلس البلدي الجديد ، مقابل عضوين من الجبهة الوطنية . ويعود السبب في هذه النتيجة الى تحكم الناخبين اليهود في نتائج الانتخاب ، وهو الامر الذي كان العرب يخشون وقوعه . وصب اليهود اكثرية اصواتهم الساحقة الى جانب اللائحة اليهودية الموحدة التي ترعاها الجمعية الصهيونية (الوكالة اليهودية فيما بعد) . أما بالنسبة للمرشحين العرب ، فقد اوعزت اللجنة الصهيونية الى الناخبين اليهود باعطاء اصواتهم الى ستة من مرشحي المعارضة هم راغب النشاشيبي ، يعقوب فراج ، وزكي نسيبه ، وسعد الدين الخليلي، ونخله كتن ، وفرنسيس بطاطو (٣ مسلمون و٣ مسيحيون) ، فجاءت اصوات اليهود ، ترفعهم الى عضوية مجلس بلدية القدس ، على الرغم من انهم حصلوا على ٣٥ ٪ من اصوات العرب فقط ... واحسب أن اليهود اتفقوا على انتخاب ستة فحسب من مرشحي المعارضة ، ليدخل المجلس البلدي مرشحان من الوطنيين ... فيكون العرب منقسمين على انفسهم في داخل المجلس . ولم يعط اليهود صوتا واحدا لاي من مرشحي الجبهة الوطنية ، التي فاز منها جمال الحسيني وحسام ابو السعود لانهما نالا اكثرية الاصوات العربية !

ويقينا لو أن الانتخابات جرت على اساس الطائفية ، او على اساس دوائر انتخابية فردية ، لفاز جميع مرشحي الجبهة الوطنية . واختار المندوب السامي راغب النشاشيبي رئيسا للبلدية ، كما اختار له نائبين : احدهما مسيحي وهو يعقوب فراج والثاني يهودي .

المدن الاخرى

وجرى في انتخابات المجلس البلدي في كل من يافا وحيفا وصفد التي بلغ عدد الناخبين اليهود في كل منها اكثر من الربع مثل الذي جرى في القدس ، حيث ادلى اليهود باصواتهم كلها الى جانب مرشحي المعارضة ، الامر الذي ادى

الى فوز بعضهم . على أن اكثرية مرشحي الجبهة الوطنية فازوا في الانتخابات في المدن الثلاث المذكورة ، (على الرغم من اصوات اليهود) لانهم احرزوا أكثرية ساحقة من اصوات الناخبين العرب . أما في طبرية ، واكثرية سكانها من اليهود ، فان احدا من مرشحي الجبهة الوطنية لم ينجح .

وأما في سائر المدن الفلسطينية التي ليس لليهود فيها اصوات (نابلس وجنين وطولكرم واللد والرملة والخليل وبيت لحم ورام الله والمجدل وغزة وبئر السبع واريحا وعكا والناصرة وشفا عرو وبيسان) فقد فاز مرشحو الجبهة الوطنية بالقسم الاوفر من مقاعد المجالس البلدية فيها .

وجاءت نتائج الانتخابات (على الرغم مما جرى في القدس ويافا وحيفا وصفد) فوزا كبيرا للحركة الوطنية ، ولزعامتها ، على أن هذه النتائج ايضا جاءت عاملا جديدا في تعميق الخلاف الحزبي في البلاد .

المجالس البلدية « المعينة » و « المنتخبة »

ما انفكت السلطات البريطانية تعين « المجالس البلدية » تعيينا منذ ١٩٢٠ حتى ١٩٢٧ الذي جرت فيه اول انتخابات بلدية في فلسطين في عهد الانتداب . وكان من البديهي أن تختار الحكومة رؤساء البلديات واعضاء مجالسها من بين الشخصيات والعناصر الفلسطينية التي تثق بها وتطمئن الى تعاونها معها . ونتيجة لهذه الخطة الانكليزية الاستعمارية كان معظم المجالس البلدية المعينة دمى في ايدي السلطات البريطانية ، تحركها كيفما تشاء ، وتجعل منها ركائز لمقاومة الحركة الوطنية وقواعد لمعارضة مخططاتها .

وعندما قررت الحكومة اجراء انتخابات عامة للمجالس البلدية عام ١٩٢٧ ، فانها كانت تعتقد أن نتائجها ستكون ، بوجه عام ، الى صالحها ، حيث أن معظم العناصر والشخصيات المرشحة التي تحظى بتأييد السلطات ودعم اليهود هي التي سوف تفوز ، فتحل المجالس « المنتخبة » مكان المجالس « المعينة » ، لا اكثر ولا اقل ، واحسب أن من العوامل التي حملت الانكليز على هذا الاعتقاد ازدياد عدد اليهود في البلاد وتصاعد نفوذهم عن طريق المال وغيره من الوسائل ، والنشاط الذي كان يمارسه المعارضون والعناصر الاخرى المعروفة بميلها الى الانكليز وتعاونها معهم ، في الدعاية واكتساب المزيد من الانصار والمؤيدين ...

لاجل هذا فقد جاءت النتائج التي اسفرت عنها انتخابات المجالس البلدية ، مفاجئة للانكليز ومخيبة لامالهم ، وضربة موجعة لانصارهم والمتعاونين معهم . وقد خشي الانكليز وهم ما زالوا يكتوون بنار نتائج انتخابات المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى وصيرورة هذا المجلس قلعة للحركة الوطنية ودرعا للمقاومة الفلسطينية ، خشي الانكليز أن تصبح المجالس البلدية التي غدت العناصر الوطنية تسيطر على أكثرها ، قواعد جديدة لدعم الحركة الوطنية ومراكز انطلاق للمقاومة الفلسطينية . لذلك راحت الحكومة البريطانية تعمل على عرقلة اعمال هذه المجالس البلدية واثارة المشكلات في وجهها ... كتحريض المكلفين بالتلكؤ بدفع الرسوم والضرائب البلدية المطلوبة منهم ، واشاعة الترهات والاباطيل ضدها ، وحرمانها من القروض الحكومية ، وتعريضها لتدخل جائر مستمر في شؤونها عن طريق حكام الالوية (البريطانيين) . وساهم المعارضون وسائر انصار الحكومة من العرب في عملية عرقلة اعمال المجالس البلدية واقامة العقبات في وجه مشاريعها ومخططاتها . (وعلى الرغم من فوز المرشحين الوطنيين في معظم المجالس البلدية فان الحكومة عينت رؤساء معظم البلديات من رجال جبهة المعارضة) .

الدعايات المسمومة

واعتبر الانكليز واليهود أن الحاج أمين الحسيني هو الذي خيب آمالهم واحبط مخططاتهم للسيطرة على المجالس البلدية (المنتخبة) وحقق في الانتخابات نصرا غير قليل للحركة الوطنية ، فعاودوا تعريضه الى سموم دعاياتهم المغرضة وشرور حملاتهم المضللة ، واسناد الاتهامات الباطلة والافتراءات الكاذبة الى سماحته ، كأنهم يريدون أن يثأروا منه للهزيمة المنكرة التي اصابتهم ، والواقع أن هذه الحملات والدعايات ضد المفتي لم تفاجيء الفلسطينيين حيث ما انفك الاعداء يشنون عليه مثلها ، في الاعوام التي سبقت اجراء الانتخابات .

وتولت الصحف اليهودية والجمعية الصهيونية العالمية ، والصحف البريطانية ووسائل النشر والاعلام الاجنبية ، مهمة الدعاية ضد المفتي والحركة الوطنية ، وساهم العديدون من اعضاء مجلس العموم البريطاني في شن الحملات عليه ، وسخروا قاعة مجلس العموم وجلساته لنفث سمومهم ضد الفلسطينيين وزعامتهم . وقد تحركنا نحن الشبان حينئذ .. للرد على دعايات الاعداء ودحض افتراءاتهم ، ونظرا لافتقارنا الى الاسباب والوسائل الكفيلة بتحقيق رغبتنا كاملة ، فقد اقتصر عملنا على طبع بعض البيانات والمذكرات باللغتين

الانكليزية والفرنسية وتوزيعها على القنصليات والجاليات الاجنبية وعلى موظفي الحكومة وقد ارسلنا سلسلة من البيانات والمقالات والتعليقات الى الصحف البريطانية واعضاء البرلمان ومجالس الجامعات والمعاهد العليا في بريطانيا .

الصحافة (العربية)

اننا لم نكن مغتاظين (وان كنا مستائين) من اقدام الانكليز واليهود على ما اقدموا عليه من بث الدعايات المغرضة وشن الحملات المضللة والترويج للاتهامات الباطلة ضد الحركة الوطنية والمفتي ، فالانكليز واليهود هم اعداؤنا الحقيقيون وخصومنا الاساسيون ، لذلك فليس في عملهم (على دناءته وانعدام المباديء الخلقية فيه) ما يدعو الى الاستغراب او العتب . ولكن الامر الذي اغاظنا حقيقة واثار نقمتنا وغضبنا قيام بعض الصحف « العربية الفلسطينية » نفسها بدعايات وحملات مماثلة تماما لتلك التي قام بها الانكليز واليهود ... ومن هذه الصحف « مرآة الشرق » لصاحبها بولس شحادة وكان يحررها احمد الشقيري ، و (الصراط المستقيم) لصاحبها الشيخ عبد الله القلقيلي و« النفير» لصاحبها ايليا زكا و « الكرمل » لصاحبها نجيب نصار . وقد بلغ من نقمة الشبان حينئذ على هذه الصحف انهم هاجموا مكاتبها ، واحرقوا بعضها واعتدوا على اصحابها ومنعوا نزول اعدادها الى الاسواق ...

٨. سعد زغلول

أذكر تماما كيف كان الفلسطينيون شديدي الاهتمام بجميع الحركات الوطنية في سائر الاقطار العربية ، المغربية منها والمشرقية على السواء ، ولكن الحركة الوطنية المصرية احتلت منذ قيامها عام ١٩١٨ مركزا خاصا في قلوب الفلسطينيين ولعل السبب الاول في ذلك أن الحركة المصرية كانت اولى الحركات الوطنية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وانها قامت على اساس محاربة الانكليز ، وهم اعداء فلسطين الالداء . وكان سعد باشا زغلول زعيم هذه الحركة المصرية وقائد نضالها ، ورئيسا « للوفد المصري » الذي نشأت هذه الحركة وقامت باسمه .

وكنا نحن معشر الطلبة في ذلك العهد نفاخر بسعد زغلول ، ونعتبره زعيما عربيا عظيما ، وتعلقنا به منذ أن بدأنا نسمع عن حركته ومواقفه ، وكثيرا ما كنا نهتف باسمه وباسم (الوفد المصري) في المظاهرات والمواكب والاحتفالات التي كنا نشترك فيها ، واذكر أن صور سعد زغلول و « رجال الوفد مثل مكرم عبيد ومصطفى النحاس وحمد الباسل ومرقص حنا وواصف غالي ومحمود البسيوني واحمد ماهر ومحمود النقراشي وغيرهم » كانت ترفع في البيوت والمخازن والمقاهي العامة ، رغم اوامر السلطات البريطانية بعدم رفعها ، وان الكثيرين من اهل القدس كانوا يطلقون اسم سعد على مواليدهم الجدد ، اعرابا عن تقديرهم وحبهم له . ولما قمنا (بعد طردنا من المدرسة كما ذكرنا آنفا) بانشاء كتلة الشباب وتأسيس نادي الطالب الفلسطيني الخ ... انطلقنا نعني ايضا بقضية مصر ونهتم بها ونقوم بما نستطيعه من دعاية لها .

وفي الحين الذي كان العرب يتباهون بوحدة كلمة المصريين والتفافهم حول زعيمهم العظيم ويفاخرون بانعدام وجود اختلافات حزبية في مصر ،وباجماع رجالهم على تأييد سعد زغلول ، فقد وقع انشقاق مؤسف بين زعماء مصر ، حيث خرج على زعامة سعد (والوفد المصري) عدد من كبار الزعماء المصريين

وراحوا يشكلون احزابا ومنظمات خاصة بهم . وقد ذهل الفلسطينيون وحزنوا لهذا الانشقاق ، ولكنه رغم دعايات الانكليز واليهود وانصارهم ، لم يؤثر على شعورهم نحو سعد زغلول ، فظلوا متعلقين به ومحبين له ، بينما ابدوا نقمة شديدة على الزعماء المصريين الذين انفصلوا عنه .

وكان الفلسطينيون ، على ما اذكر ايضا يوقنون بأن الخلاف الذي نشأ في مصر ، جاء نتيجة لمثل العوامل والاسباب (الانكليزية والاجنبية) التي اوجدت الاختلافات والمنازعات بين الفلسطينيين ... والواقع أن هؤلاء الذين خرجوا على قيادة سعد زغلول وراحوا يقاومون حركته الوطنية ، كانوا يشبهون ، الى مدى بعيد ، « الزعماء » الفلسطينيين الذين خرجوا على الحركة الوطنية الفلسطينية وقيادتها ، وانطلقوا يقاومونها ويعارضونها ، واحسب أن هذا الواقع كان من الاسباب الرئيسية التي حملت الشعب الفلسطيني على مضاعفة عطفه على سعد زغلول وتأييده للحركة الوطنية المصرية .

ومما هو جدير بالذكر أن القيادة الوطنية الفلسطينية التي كان الشعب بأكثريته الساحقة يؤيدها ويلتف حولها ، التزمت جانب سعد زغلول والوفد المصري ، في حين التزمت جبهة (المعارضين) في فلسطين جانب الجماعات التي خرجت على سعد وحزب الوفد ...

وأذكر أن اسماعيل صدقي ـ وكان من كبار زعماء مصر المعارضين لسعد زغلول ـ زار فلسطين (وكان رئيسا للوزارة المصرية) وحل ضيفا على المندوب السامي البريطاني ، فاحتفى به المعارضون حفاوة عظيمة ... واعد له رئيس بلدية القدس راغب النشاشيبي (زعيم المعارضين) حفلة تكريم كبرى في قاعة المجلس البلدي ، فلما وصل اسماعيل صدقي الى دار البلدية هاجمه الشعب وهو يهتف بحياة سعد والوفد المصري ، وقذفه بالبيض والبندورة ... فاضطر الى العودة من حيث اتى ... ولم تقم الحفلة ...

وفاة سعد

وادركت الوفاة سعد زغلول في صيف ١٩٢٧ وانتقل الى رحمة ربه راضيا مرضيا ، بعد أن سجل في تاريخ الكفاح والنضال وصدق الوطنية والاخلاص اروع صفحاته الناصعة البياض ، فحزن الفلسطينيون لوفاته حزنا عظيما ، واعتبروها كارثة فاجعة حلت بالعرب عامة ، وبهم خاصة ، فأعلنوا الحداد في البلاد ، مدة ثلاثة ايام ، وابرق قادتهم وزعماؤهم ومختلف مؤسساتهم

وهيئاتهم ونواديهم وجمعياتهم يعزون زوجة سعد « أم المصريين » وحزب الوفد المصري . وجللت بالسواد صور سعد زغلول التي كانت تملأ البيوت والمخازن والاماكن العامة في فلسطين . ولما اتفقت كلمة الوفديين على انتخاب مصطفى النحاس لرئاسة الوفد المصري ، ابرق الوطنيون الفلسطينيون الى « خليفة سعد » (مصطفى النحاس) يهنئونه بثقة اخوانهم المصريين ويجددون تأييد الشعب الفلسطيني للوفد المصري والحركة الوطنية المصرية .

وقرر الوفد المصري اقامة حفلات تأبين لسعد زغلول في القاهرة وسائر المدن المصرية ، لمناسبة مرور اربعين يوما على وفاته . فرأينا نحن معشر الشباب أن نشترك في احياء ذكرى سعد بوفد مستقل عن الزعماء والقادة الفلسطينيين الذين قرروا زيارة القاهرة للمشاركة في حفلات تأبين سعد زغلول . فشكلنا وفدا للسفر الى القاهرة كان من اعضائه نافذ الحسيني وضياء الدين الخطيب وميشيل عازر وسعيد الخليل واسحق فانوس وعبد القادر الحسيني وفائق العنبتاوي وعيسى دهمش واميل الغوري . فرحب مصطفى النحاس ، رئيس الوفد ، ومكرم عبيد ، سكرتيره ، وسائر زعمائه واقطابه بوفد الشباب الفلسطيني اعظم ترحيب واحاطوه بالعناية والاهتمام وحسن الوفادة . واعرابا عن تقدير زعماء مصر لهذا الوفد والدوافع الوطنية التي حفزته الى السفر للقاهرة ، فانهم اجلسونا في الصف الاول في حفلة التأبين الكبرى التي اقيمت في « النادي السعدي » في القاهرة . وقد خطب في هذا الاحتفال مصطفى النحاس ومكرم عبيد واحمد ماهر وتوفيق دياب وحافظ عوض . والقيت « كلمة فلسطين » في المحتفلين (وكانت اول كلمة سياسية القيها في حفل رسمي) ، اعربت فيها عن شعور الفلسطينيين بفداحة الخسارة التي نزلت بالعرب وأكدت فيها أن الفلسطينيين يعتبرون وفاة سعد زغلول كارثة فاجعة حلت بهم وبحركتهم الوطنية . وانشدت « ام كلثوم » ـ وكانت حينئذ في رونق شبابها وحديثة العهد بالغناء ـ أمام الجماهير ، اغنية رائعة في رثاء سعد والترحم عليه .

وتعرفت خلال هذه الزيارة على عدد من اقطاب الوفد وبعض زعماء شبابه ، اذكر منهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد واحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي ومرقص حنا ومحمود البسيوني وعبد الرحمن عزام وواصف غالي ومأمون الريدي وحسن ياسين ، ومحمود لطيف وغيرهم كما تعرفت على عدد من رجال الصحافة والادباء والكتاب المصريين ، اذكر منهم توفيق دياب

وعبد القادر حمزه وحافظ عوض ، ومحمود أبو الفتح وحافظ محمود وحسين أبو الفتح وعبد القادر المازني وعباس محمود العقاد والدكتور محمود عزمي والدكتور منصور فهمي ومحمد خالد وغيرهم فكانت هذه المعرفة الاولى باولئك الكرام السبيل التي سهلت لنا سبل العمل في مصر في ١٩٣٧ ، لصالح قضية فلسطين ، كما سيأتي ذكر ذلك في الفصول القادمة .

كذلك تعرفنا خلال هذه الزيارة الى القاهرة ببعض العاملين في الحقل الوطني العربي وميدان الصحافة من « الشوام » المتمصرين ، اذكر منهم خير الدين الزركلي واسعد داغر وحبيب جاماتي وانطون الجميل وبركات بركات وفارس نمر وخليل ثابت وفؤاد صروف وغيرهم ، فنمت هذه المعرفة الاولى بهم الى صداقة متينة معهم ، كانت في طليعة العوامل التي افادت في الدعاية لقضية فلسطين والدفاع عنها في مصر .

زيارة سلطان الاطرش

لما اعيت فرنسا الحيل في القضاء على الثورة السورية التي كانت قد نشبت عام ١٩٢٤/١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الاطرش ، زعيم جبل العرب (جبل الدروز) ، واستمرت حتى عام ١٩٢٧ ، وفشلت وسائل القوة الوحشية في تقويض المقاومة السورية ، استبدلت فرنسا مندوبها السامي (للبنان وسورية) وكان رجلا عسكريا ، بمندوب سام جديد (من رجال السلك السياسي) واطلقت يده لاتخاذ ما يراه من التدابير والاجراءات من سياسية وغيرها ،لاعادة الهدوء الى سورية ، واذاعت انها تعتزم اتباع سياسة جديدة تمهد السبيل لاستقلال سورية .

وطلب المندوب السامي الجديد من السوريين وقف ثورتهم ، متعهدا لهم باجراء انتخابات لجمعية تأسيسية تضع دستورا للبلاد وتختار نظام الحكم الذي تريده . فقبل السوريون هذا العرض الفرنسي ، واوقفوا ثورتهم على أمل تحقيق اغراضه . واصدر المندوب السامي عفوا عن عدد من زعماء الثورة واقطاب المقاومة السورية ، فيما استثني عددا آخر منهم من هذا العفو ولكن زعماء سورية لم يكونوا ليطمئنوا للتعهد الفرنسي الجديد ، فآثر بعضهم، بالاضافة الى الذين استثنوا من العفو ، الانتقال الى فلسطين وشرق الاردن والعراق ومصر ... بانتظار احداث المستقبل وتطوراته .

اما زعيم الثورة سلطان باشا ، والامير عادل ارسلان ومحمد عز الدين الحلبي وزيد الاطرش وغيرهم من كبار قادة الثورة والحركة الوطنية السورية (وكانت فرنسا تطالب برؤوسهم ...) فقد انتقلوا ومعهم الكثيرون من المجاهدين (من الدروز) الى شرق الاردن ، ورابطوا في منطقة الازرق ،بانتظار ما سوف يكون ، وقد عولوا على استئناف الثورة اذا ما اخلت فرنسا بتعهداتها الجديدة .

وخشيت فرنسا وجود هؤلاء المجاهدين على مقربة من الاراضي السورية، فطلبت من بريطانيا (بوصفها الدولة المنتدبة على شرق الاردن) أما تسليمهم الى فرنسا واما اخراجهم من منطقة الازرق الى أماكن نائية وبعيدة عن الحدود السورية ... وجندت فرنسا قوة عسكرية استعدادا للزحف على منطقة الازرق واخراج المجاهدين منها او القبض عليهم ... اذا رفضت بريطانيا طلبها .

ولكن بريطانيا وافقت على طلب زميلتها فرنسا الاستعمارية ، دون أي احترام لمبدأ حق اللجوء السياسي ، فأنذرت المجاهدين بوجوب مغادرةمنطقة الازرق فورا ، ولم تكتف بهذا حيث جردت بدورها قوة عسكرية كبيرةوطوقتهم وهددت باستعمال القوة ضدهم ان هم لم يرحلوا عن منطقة الازرق .

ووقع المجاهدون بين نارين ، نار فرنسا ونار بريطانيا ، فانتقلوا(مضطرين) عبر صحراء قاحلة وفي ظروف قاسية شديدة ، الى مناطق صحراوية جرداء ، لا ماء فيها ولا زراعة ... هي مناطق الجوف ووادي السرحان الواقعة على الحدود الاردنية (الشرقية) السعودية ... ولولا أن السعودية سمحت لهؤلاء اللاجئين بحرية التجول في الاراضي السعودية المجاورة ، وجلب ماكانوا يحتاجون اليه من ماء ومواد غذائية وزراعية من مدائن صالح وما حولها لماتوا جوعا وعطشا ولنفقوا في جو الصحراء الملتهب المخيف .

وقد افاضت الصحف الفلسطينية في وصف العذاب والشقاء والحرمان الذي تعرض له هؤلاء المجاهدون خلال رحلتهم المرهقة المزعجة الطويلة من منطقة الازرق الى منطقة الجوف ووادي السرحان ، وذكرت كيف اضطر هؤلاء الكرام الى اكل لحوم خيولهم واحيانا الى شرب بولها ... ثم نقلت الانباء اخبار ما كان يعانيه هؤلاء الابطال من شظف العيش والبؤس والحرمان والالام في المناطق التي استقروا فيها .

وقد هالتنا نحن معشر الشباب هذه الانباء ، وأذهلنا أن يعيش كرام مجاهدي العرب في مثل الحالة السيئة والوضع الرهيب الذي كانوا يعانونه ويقاسون شروره ، واسفنا اسفا شديدا لعدم سماح السعودية لهم بالاقامة داخل حدودها ، ولعدم مبادرة شرق الاردن لنقلهم الى أماكن اخرى من اراضيه الشاسعة التي تصلح للحياة والزراعة ... فرأينا من واجبنا أن نعمل شيئا لهؤلاء المجاهدين ، مهما كان ضئيلا ، اعرابا عن تقديرنا لهم ولجهادهم ، وحرصا على المكانة الشعبية العظيمة التي بلغها قائد الثورة السورية سلطان الاطرش واخوانه المناضلون بفضل جهادهم وصمودهم وتضحياتهم العظيمة . فانطلقنا نقوم بدعاية واسعة النطاق لصالحهم ، وسعينا لاقناع السلطات السعودية والاردنية لتفريج كربة هؤلاء الابطال المرابطين ، ولكن دون جدوى حيث كان « العرب » خاضعين حينئذ بصورة مخجلة لارادة بريطانيا ومشيئة فرنسا !

وأخيرا قر رأينا على اسعاف المجاهدين ببعض المال ... فشكلنا لجنة تولت جمع التبرعات من بعض التجار الذين كانوا معروفين بصدق الوطنية ومن بعض الوطنيين والشباب ، وحرصنا على أن نحيط عملنا باطار من السرية والكتمان تجنبا لتدخل الحكومة البريطانية ومنعنا من القيام بهذا الواجب . وشجعنا الحاج أمين الحسيني على القيام بمهمتنا وقدم لنا بعض المال من جيبه الخاص، وتولى بطرته الخاصة ، وبصورة مكتومة ، جمع التبرعات من الوطنيين وموظفي المجلس الاسلامي ودوائر الاوقاف والمحاكم الشرعية .

ولما توفر لنا المال ، وكان في الواقع ضئيلا محدودا ، قررنا ايفاد بعضنا الى وادي السرحان لتسليم المبلغ الى سلطان باشا واخوانه . وللاطلاع عن كثب على احوال هذه الفئة المؤمنة المرابطة من المجاهدين العرب ، لننقل صورة عما نراه ونلمسه الى الشعب العربي والى المهاجرين العرب في امريكا ، الذين كانوا قد شكلوا جمعيات ولجانا لجمع الاموال وارسالها الى هؤلاء الابطال .

وتقرر أن اسافر أنا وصديق اخر الى وادي السرحان في هذه المهمة فذهبنا سرا الى عمان ، وفيها اجتمعنا بالقائد المعروف سعيد العاص ، وهو من حمص ، (وقد استشهد في معركة الخضر في فلسطين في ثورة ١٩٣٦) وحدثناه عن مهمتنا ، فأعرب عن استعداده لمرافقتنا ، نظرا لصعوبة الطريق عبر الصحراء (وكان يعرفها معرفة جيدة) ولتجنب بعض الاخطار

والمحاذير ... فرحبنا بزمالته واعتبرنا مرافقته لنا شرفا كبيرا . وكان سعيد العاص احد كبار قادة الثورة السورية ، وعلى صلة وثيقة ومعرفة تامة بزعيمها سلطان الاطرش .

لم تكن توجد حينئذ طرق معبدة في الصحراء ، بل لا طرق معروفة فيها ، وقليلا ما كان سائقو السيارات يجازفون بقيادة سياراتهم عبر الصحراء خشية (التغريس) في رمالها اللزجة ، او الضياع في خضمها . لذلك فانه لم يكن من السهل قطع مئات الكيلومترات عبر الصحراء للوصول الى ما وراء وادي السرحان كما انه لم يكن من السهل ايجاد سيارة صالحة للطرق الصحراوية ، يقبل صاحبها او سائقها مجازفة السوق فيها .

وبعد جهود مضنية ، وبفضل مساعدة سعيد العاص وتدخلاته ، وجدنا سائقا ارمنيا (أرتين بكمازيان) دفعته وطنيته وغيرته ، عندما عرف مهمتنا ، الى القبول بنقلنا الى وادي السرحان . فملأ خزان سيارته (ستود يبيكر) بالبنزين ، وحملها ست صفائح اخرى منه (لتأمين العودة) وصفيحتين من الماء، ونقلنا نحن الثلاثة عند الغروب (نظرا لحرصنا على التستر وعدم اكتشاف أمرنا) الى مضارب عشيرة الفائز من قبيلة بني صخر ، الواقعة على مسافة عشرين كيلومترا الى الجنوب من عمان ، فنزلنا ضيوفا على مثقال باشا الفايز ، شيخ مشايخ بني صخر ، الذي رحب بقدومنا احسن ترحيب ، ولما قصصنا عليه مهمتنا ورغبتنا في السفر الى وادي السرحان ، ابدى حماسا عظيما وشجعنا على القيام بها ، دون أن يكتم عنا وجود اخطار عظيمة من المحتمل أن نواجهها، واوصانا بالسرية والكتمان .

وأعد لنا مثقال الفايز ، في مضربه الكبير (في الجيزة) ، عشاء كان عبارة عن (ذبيحة) خاصة وعدة مناسف ، ودعا اقطاب العشيرة ورؤسائها لتناول الطعام معنا ... وبعد انتهاء العشاء جلسنا لاحتساء القهوة السادة ... وكان يقدمها لنا سلطان الفايز (ابن مثقال) وكنا قد عرفناه تلميذا في كلية روضة المعارف بالقدس . واعجبنا كثيرا بسلطان وبما كان يبدو على وجهه من سمات التصميم والشجاعة، ومالت نفوسنا اليه كثيرا . وفيما نحن نتسامر طلبت من مثقال باشا أن يسمح لولده سلطان بالسفر معنا فتجهم الرجل واضطرب بعض الشيء ، ثم قال الصباح رباح .

ولما آوينا الى فراشنا وقد نصب لنا مثقال مضربا خاصا لقضاء ليلتنا فيه ، عاتبني سعيد العاص بشدة ، بل بقسوة على ما اذكر ، لاني طلبت أن يصحبنا سلطان في رحلتنا ، وقال : « انك ارتكبت خطأ فادحا ... فان سيارتنا لا بد أن تمر عبر مضارب عشائر كثيرة ، او على مقربة منها ، وبين بعض هذه العشائر وعشيرة الفايز (دموم) وثارات ، فان وجد رجالهم ان سلطانا بيننا ، فانهم سيقتلونه ! وهنا فهمت السبب في تجهم مثقال باشا واضطرابه عندما طلبت منه السماح لسلطان بمرافقتنا .

وقضيت ليلتي ، يشهد الله ، وانا مضطرب الفكر شارده ، وضميري يؤنبني لتسرعي بطلبي ، في حين كان علي ان استشير سعيد العاص بشأنه قبل أن اعرضه على مثقال . فلما اصبح الصباح قلت لمثقال باشا : اني كنت أمزح أمس ليلا ، فليس بنا من حاجة الى سفر سلطان معنا .. واني اسحب طلبي واعتذر عن هذا (المزاح) . فنظر الي مثقال نظرة مخيفة ، ثم قال : ان سلطان جاهز للسفر معكم ، وليس من شك في انك رجعت عن طلبك لان سعيد العاص قد حدثك عما بيننا وبين بعض العشائر من دم وثأر ... فسيروا على بركة الله . فقلت يا سيدي ارجو أن تنسى طلبي واننا لا نريد أن يصحبنا سلطان ، فأصر مثقال على سفر ولده معنا . فقلت له حينئذ اننا اذن لن نسافر وسنعود الى القدس ... قال : سواء رجعتم أو لم ترجعوا ، فان سلطان سيسافر اليوم ، ولو وحده ، الى وادي السرحان ... ! وقد دهشت لتصميم الرجل العجيب ، وحاولت مرة أخرى أن اثنيه عن عزمه ، فأجاب أن سلطان سيسافر ، فنحن لا نخاف غير الله ولا نهاب احدا ، ومصير سلطان بيد الله .. ثم نادى على ولده ، فحضر بلمح البصر وقد تمنطق بندقية ومسدسا وخنجرا ، وتدثر بثياب السفر ! وقال له : اعتن بضيوفنا وافتديهم بدمك وروحك . سيروا على بركة الله !

لم يبق مناص من السفر وسلطان بصحبتنا ، فودعنا مضيفنا الكبير ، شاكرين له حسن وفادته وكرمه ولطفه ، ثم احتضن سلطان وقبله ، وكان وداعه له مؤثرا للغاية ، سبب لنا قلقا عظيما واثار هواجسنا ! وانطلقنا بسيارتنا (الستوديبيكر) ، وقد تجمع حولها شباب الفائز وهم ينظرون الى سلطان — دون أن ينبس احدهم ببنت شفه — نظرة جزع وخوف .
وانطلقت بنا السيارة تقطع اراضي بني صخر الشاسعة الواسعة ، ثم بدأت تدخل الصحراء وتتوغل فيها ، وبدأت الصعوبات تواجه سائقنا ، فهنا

رمال لزجة متموجة اذا مستها السيارة غاصت بها (غرست) ، فكان يحاول تجنبها ، والتأكد من أن السيارة تسير على رمال « يابسة » ... وهناك « اثار » دواليب سيارات كانت قد قطعت الصحراء في السابق ، فيختار السير عليها ... وكثيرا ما كانت الرمال تغطي هذه الاثار ، فتختفي عن عيني سائقنا ... فكان سلطان ينزل من السيارة ويسير بضعة أمتار على قدميه ، « يمتحن » الرمال ، ويتطلع الى الشمس والسماء ويجول بنظره الى ابعد مسافة مستطاع رؤيتها من الارض ، ثم يدل سائقنا « ارتين » على الطريق التي عليه أن يسلكها ! وبفضل « خبرة » سلطان بالصحراء « ومهارة » سائقنا ، لم يقع للسيارة اي حادث ...

ووصلنا « بعد الغروب » قصرا قديما (من عهد الامويين) يسميه البدو « قصر الحرانة » وكان هذا القصر كبيرا واسعا ، فيه غرف وقاعات كثيرة ، كانت خربة مهدمة ... ولم يكن سليما من هذا البناء الضخم نسبيا غير اسواره الخارجية . واسترحنا أمام مدخل القصر ، وتناولنا بعض ما كان في حيازتنا من طعام ، وشربنا الشاي . وكان الليل قد دهمنا ، فاختفى منظر الصحراء الذهبي اللامع وحل محله ظلام دامس مخيف . واراد سعيد العاص أن نواصل السير ليلا ، وابدى السائق موافقته وقال انه يستطيع الاعتماد على نور السيارة الذي فاخر بأنه قوي جدا ... ولكن سلطان هزيء من هذا الرأي ، ونصحنا بصيغة الامر تقريبا ، بقضاء ليلتنا داخل اسوار القصر ... واستئناف السفر فجر اليوم الثاني . ونزلنا عند رأيه ، وتدثر كل منا بعباءته وجلسنا على ارض احدى الغرف (وكانت بدون سقف) نتسامر ونتحادث . وقد صممنا على عدم النوم ... واقترحنا اشعال نار نتدفأ عليها (فقد كان برد الصحراء قارسا ، رغم فصل الصيف) ، فسفه سلطان رأينا ... وقال أن اشعال النار ليلا قد يجلب لنا متاعب ...

وبعد مضي ساعتين او ثلاث ساعات ، غطسنا في نوم عميق ... ما عدا سلطان ... الذي قضى ليلته ، متمنطقا سلاحه ، وهو يتجول حول القصر ، وعلى اسواره ، يتولى حراستنا ... وعند الفجر ايقظنا من نومنا ودعانا الى السفر ... بعد تناول بعض الطعام وشرب الشاي .. وقد شعرنا « بخجل » عظيم لاننا نمنا ملء جفوننا بينما قضى سلطان ليلته ساهرا يقظا !

وكانت الصحراء شرق قصر الحرانه ، احسن للسوق من التي اجتزناها في اليوم السابق ، ولذلك قطعناها بسهولة فوصلنا الى مضارب المجاهدين بعد الظهر ... ولما لم يكونوا يتوقعون وصول احد في هذا اليوم الى مضاربهم ، وكانوا يجهلون اشخاصنا ، فقد احاط بالسيارة عدد من المسلحين ، ثم تقدم رئيسهم (شكيب وهاب) منا للوقوف على الحقيقة ومعرفة اشخاصنا ... فلما رأى سعيد العاص هتف مرحبا وافسح المجال امام سيارتنا وقادنا الى بيت سلطان الاطرش (وكان هذا البيت مؤلفا من غرفتين ... من اللبن ...) . فهش زعيم الثورة وبش لسعيد العاص وعانقه ولما اطلعه سعيد على مهمتنا رحب بنا سلطان بحرارة . ولما رأى سلطان بن مثقال معنا هجم عليه يحتضنه ويقبله بعطف شديد ، ثم قال : هل انت مجنون حتى تأتي الينا عبر اراضي يقيم فيها اعداؤكم ، يتمنون أن يقع بأيديهم احدكم لقتله ثأرا ؟ فأفهمنا القائد العام حقيقة ما جرى ، وشرحنا له موقف مثقال .. فقال : وفاء مثقال لضيوفه عرض ولده للقتل !

وقضينا ليلتنا في « بيت » سلطان باشا ، وقدم لنا للعشاء « غزالا » كان شكيب وهاب قد قنصه في الصباح ... ولعل هذا الغزال كان « الحيوان » الوحيد الذي كان يصلح لحمه للاكل في تلك الفيافي ... ولما اردنا شرح مهمتنا لسلطان ، رفض الاستماع لنا ، وقال ان لي اخوانا هنا يجب أن يستمعوا معنا اليكم ، وسيكون ذلك في الصباح .

وصحونا من النوم في ساعة مبكرة ، وبعد تناول طعام الفطور ، دعا سلطان باشا بعض كبار المجاهدين فاجتمعنا بهم ، فشرحنا لهم مهمتنا ، وشرحوا لنا اوضاعهم ... ولما قدمنا ما كنا نحمله من مال لسلطان باشا ، قال : ان لنا اخوانا آخرين لم يحضروا الينا . وعليكم زيارتهم في مضاربهم والتحدث اليهم ، وبعد ذلك نستلم واياهم المال ونوزعه على المجاهدين ... ورغم اصرارنا بأن يتسلم المبلغ بوصفه القائد العام ، فانه رفض استلامه قبل الاجتماع بالاخرين .

وعرفنا فيما بعد ، وقد اثار ما عرفناه حزننا واسفنا ، أن المجاهدين كانوا مختلفين فيما بينهم،لاسباب خاصة،وان الامير عادل ارسلان يرأس فريقا منهم وسلطان باشا يرأس الفريق الاخر . فانتقلنا الى (بيت) الامير عادل (وكان شبيها ببيت سلطان باشا) فاستقبلنا استقبالا حسنا وعقد اجتماعا حضره كبار انصاره ، تداولنا خلاله الحديث عن اوضاع المجاهدين وما يعانونه من

شقاء وحرمان ... ولما حدثناه عن المال ، قال : هذا المال هو باسم الثورة ، ونظرا لان سلطان باشا هو زعيمها فان الواجب يقضي بتسليمه اليه ، وهو يتولى توزيعه ، والتصرف به ، على الوجه الذي يريده . فأكبرنا هذه الروح الطيبة والمروءة ، والوفاء ، وتناولنا طعام الغداء عند الامير عادل ، وكان « ناشفا » أي بدون لحم لعدم توفره ... ثم انتقلنا الى بيت سلطان ، فلما ابلغناه ما قاله الامير عادل ،انتقل بنفسه الى بيته (رغم الاختلاف القائم بينهما) وبعد احتساء القهوة (السادة) تسلم سلطان المبلغ امام الاخرين ، ثم سلمه للامير عادل لتوزيعه ... فكانت شهامة اخرى رد بها سلطان على مروءة الامير عادل ووفائه ... (علمنا فيما بعد أن المبلغ – على ضآلته – وزع على جميع المجاهدين على اساس حصة متساوية لكل منهم) .

ولما استأذنا بالانصراف قبل الغروب ، اصر علينا سلطان بقضاء الليلةعنده، فأعتذرنا ، فقبل اعتذارنا ، ولكنه طلب أن يبقى سلطان بن مثقال عنده ،يرسله فيما بعد الى والده عن طريق آخر غير الطريق الذي سلكناه ، فيأمن عليه من غدر الغادرين . لكن سلطانا رفض البقاء واصر على السفر معنا وقال لسلطان الاطرش : يا عمي ان والدي حملني واجب مرافقة الضيوف وحمايتهم عند اللزوم ، ومن العار علي أن اتخلى عن مرافقتهم ، وكان لابن مثقال ما اراد ، فغادرنا مضارب الابطال مودعين احسن وداع ، ووصلنا « قصر الحرانة » مساء ، وقضينا ليلتنا في داخله ... ولكننا تناوبنا الحراسة هذه المرة مع سلطان بن مثقال رغم اعتراضه .

وفي صبيحة اليوم الثاني انطلقت بنا السيارة الى مضارب بني صخر ... واحسب أن السائق ازداد خبرة بالصحراء فلم تصادفنا اية صعوبة تذكر .

وفيما كانت السيارة تسرع السير لتقطع الصحراء قبل غياب الشمس ،رأينا عن بعد اعرابيا يلوح الينا بشيء مستطيل ظنناه لاول وهلة بندقية ، فهب سلطان الى سلاحه متحفزا ، فلما اقتربنا من الرجل وجدنا انه كان يحمل عصى (مطرق) طويلة ، لا بندقية . واشار الينا بالوقوف فوقفنا ، (بعد أن تأكد سلطان خلو المكان من الاعراب) ورجانا أن ننقله معنا الى عمان ... فأركبناه الى جانبنا واستأنفت السيارة سيرها . وفي الطريق عرفناه على انفسنا .. فلما سمع باسم سلطان بن مثقال ، ارتعد واهتز، وقال : والله لو عرفته قبل ركوبي السيارة لقتلته ... أما الان وقد اصبحت رفيقه في

السفر فاني لا استطيع ذلك ... فضحك سلطان وقال :

سألنا الله يأتينا بمفلح   والا شقي الدهر عنا يسأل !

واقترحت على سلطان أن نفتش الرجل ، لعله يحمل مسدسا او خنجرا ، فأبى علينا ذلك ، وقال ان الرجل اصبح زميلا ورفيق طريق ولذلك ، وفقا للعرف والعادة بين القبائل ، فانه لن يغدر بنا . ولما وصلنا الى مضارب عشيرة الخريشه (من بني صخر) افهمنا الرجل أننا لسنا متوجهين الى عمان ، وعليه أن ينزل في هذه المنطقة ، لان السيارات تروح وتغدو بينها وبين عمان . وخاف الرجل أن يترك السيارة ، فأمنه سلطان على نفسه ، وسلمه للشيخ حديثة الخريشة (شيخ العشيرة) فأحسن وفادته وحماه واوصله سالما الى عمان .
(وكان حديثة من كبار الوطنيين في الاردن وله ايادي بيضاء على قضية فلسطين وثورة سورية) .

ووصلنا الى مضارب الفايز ، ولما علمنا أن مثقال باشا موجود في بيته الكبير في قرية ام العمد ، يممنا شطرها ، ففرح مثقال لعودتنا سالمين ، وضم ولده الى صدره بحنان ابوي ، وقضينا الليلة ضيوفا على مثقال ، صرفنا مدة طويلة منها نحدثه عن المجاهدين واوضاعهم واحوالهم ... وفي صبيحة اليوم التالي ودعنا مثقالا وولده سلطان ورجال العشيرة وسافرنا الى عمان ، فوصلناها حوالي الظهر . والح علينا سعيد العاص بأن نقضي الليلة ضيوفا عليه ، ولكننا كنا نؤثر مواصلة السفر الى القدس ، فاعتذرنا له . ودعانا سعيد العاص الى الغذاء في احد مقاهي (السيل) في عمان ، وبعد الغداء ودعناه وقفلنا راجعين الى القدس فوصلناها مساء .

وعرضنا على اخواننا واصدقائنا انباء رحلتنا وما وقفنا عليه من احوال المجاهدين واوضاعهم وبعد بضعة ايام على عودتنا ، اعددنا عدة رسائل وتقارير عن المجاهدين وما يقاسونه من بؤس وحرمان وشظف عيش ، وارسلناها الى الشيخ عباس أبو شقرا ، السكرتير العام للجان اسعاف الثورة السورية وحزب الاتحاد السوري في الولايات المتحدة ، فنشرها في الصحف العربية التي تصدر في ديار المهجر ، وكان نشرها عاملا على زيادة التبرعات العربية في أمريكا للمجاهدين المرابطين في وادي السرحان .

(بعد أن أقام سلطان باشا واخوانه نحو ثلاثة اعوام في منطقة وادي السرحان ، تدخل الامير عبد الله بن الحسين ، أمير شرق الاردن ، بموضوعهم وأمر بالسماح لهم بالاقامة داخل شرق الاردن ، فتوزعوا على مدنها ، واختار سلطان باشا مدينة الكرك فأقام فيها) .

٠٩

ذكرت في فصل سابق كيف حال مرض والدي ، وما تبعه من ضيق مالي أصاب العائلة ، دون تحقيق رغبته (ورغبتي الشديدة) في الحاقي بالكلية (الجامعة الاميركية) في بيروت ، وكيف اكدت له بأني سأعمل على بلوغ هذا الهدف مهما طال الزمن . وقد التزمت هذا العهد الذي قطعته للمرحوم والدي وما زلت انتظر سنوح الفرصة الملائمة لاستئناف طلب العلم ، وعلى الرغم من وظيفتي في مكتب كوك للسياحة (وقد ارتفع مرتبي فيه الى ٢٢ جنيها في ١٩٢٩ ..) وانصرافي الى امور العائلة وانهماكي في الاعمال الوطنية والسياسية ، فان فكرة طلب العلم ما انفكت تدغدغ امالي وتثير حماستي وقد كان من العوامل التي زادتني تصميما على تحقيق فكرتي أن الكثيرين من زملائي واترابي في المدرسة (وكنت متفوقا فيها على الكثيرين منهم) قد اتموا تعليمهم العالي وغدوا على درجة عالية من الثقافة ، فكان منهم الطبيب والصيدلي والمحامي والمهندس والمحاسب ... الخ .. ولا استطيع أن أنكر اطلاقا أن « الغيرة » منهم كانت تمزق نياط قلبي وتؤلمني .

وأخيرا سنحت لي في عام ١٩٢٩ الفرصة التي كنت انتظرها .. فقد تخرجت شقيقتان لي من كلية البنات الانكليزية في القدس ، بتفوق وامتياز ، فحصلت كل منهما فور التخرج على وظيفة « معلمة » ، فساعدنا ذلك على زيادة دخل العائلة والتخفيف من الاعباء المالية التي كانت تثقل كاهلنا . ولم يبق عالقا في عنقي وعنق العائلة سوى مهمة تعليم اصغر افراد العائلة ، شقيقي رجائي . وبعد تقييم حقيقي لاوضاعنا المالية وجدنا أن تركي العمل والالتحاق باحدى الجامعات في الخارج لن يلحقاذى بواجبنا نحو هذا الشقيق الاصغر .

وعولت على الالتحاق باحدى الجامعات ، ولاسباب عديدة ، اهمها الاعتبار المالي ، ضربت صفحا عن الالتحاق بجامعة بيروت (الامريكية) وقررت السفر الى الولايات المتحدة للالتحاق باحدى جامعاتها . وقد حفزني الى اتخاذ هذا القرار أمران هامان : الاول ، وجود اقارب لي (اولاد عم) في عدد من

المدن الامريكية استطيع الاعتماد عليهم في الملمات وقضاء الحاجات .. والثاني ما كان قد بلغني من انباء موثوقة تؤكد استطاعتي الحصول على عمل يساعدني دخله على اتمام دراستي . فضلا عن هذا كله فان من الاسباب الاساسية التي جعلتني أؤثر السفر الى الولايات المتحدة لطلب العلم يقيني ، وثقتي بنفسي ولا فخر ، بأني سأستطيع ان أبدي في دراستي الجامعية من المقدرة والتفوق ما يفسح امامي المجال للفوز في المباريات والمسابقات التي كثيرا ما كانت تجريها الجامعات الامريكية لطلبتها ، وتعطي المجلين فيها مساعدات مالية او تعفيهم من الرسوم والنفقات الجامعية .

على أن خوفي على مصير العائلة ظل يلازمني وخشيت أن تصاب بضيق مالي ، فانشغلت افكاري وثارت نفسي ، فقد كانت العائلة في الواقع تحتاج الى رجل يدير شؤونها ويشرف عليها . وكان المرحوم شقيقي الاكبر عيسى مهاجرا في الولايات منذ اعوام طويلة ، وعلى الرغم من دخله المحترم من مختلف الاعمال التي كان يقوم بها ، فانه لم يكن ثريا ، بل لم يستطع توفير المال كغيره من بعض المهاجرين العرب حيث كان يعيش معيشة ذات مستوى عال تستنفذ جميع دخله . فكتبت اليه عن عزمي على السفر الى الولايات المتحدة للالتحاق باحدى جامعاتها ، ورجوته أن يعود الى القدس ليتولى الاشراف على شؤون العائلة . فابرق رحمه الله فور استلامه لرسالتي يرحب بفكرتي ويعد بالعودة السريعة الى القدس .

وبالفعل فانه عاد اليها بسرعة مدهشة .. واتفقنا مع (عمي) متري سلامة مدير شركة كوك ، أن استقيل من العمل فيها ، وأن يعين شقيقي عيسى مكاني ، فاستقلت من الشركة ، وتوظف شقيقي فيها براتب مماثل لراتبي ، فزاد اطمئناني على مصير العائلة .

وانطلقت اراسل عددا من الجامعات الامريكية بشأن التحاقي باحداها ، فتلقيت عدة اجوبة ، كان احسنها كتابا تلقيته من جامعة نورث ايسترن في بوسطن (ولاية ماساشوستس) تعلمني فيه عن استعدادها لقبولي فيها ، لان شروط الانتساب اليها متوفرة في . فأرسلت كتابا — مع الرسوم اللازمة — لتسجيلي للعام الدراسي ١٩٢٩ — ١٩٣٠ .

وقضيت بعد استقالتي من شركة كوك ثلاثة اشهر (ايار وحزيران وتموز ١٩٢٩) في القدس دون عمل يشغلني ، فانطلقت اساهم بصراحة وحرية في

الحقل الوطني ، في النواحي التي كنت استطيع العمل فيها في حين واصلت بذل جهودي المتواضعة لخدمة القضية الارثوذكسية والنادي الارثوذكسي في القدس . وقد حدثت خلال هذه الاشهر احداث غاية في الخطورة في فلسطين ادت الى اندلاع لهيب ثورة ١٩٢٩ .

اليهود والبراق الشريف

اشرت في مكان سابق من هذا الكتاب الى الدعايات المغرضة والحملات المضللة التي كان يشنها الاعداء سواء في فلسطين او في بريطانيا وأمريكا ، ضد الحركة الوطنية وقادتها بوجه عام ، وعلى سماحة الحاج أمين بوجه خاص . وقد تعود الفلسطينيون قيام مثل هذه الدعايات والحملات ، وادركوا الغرض الحقيقي منها ، لذلك فانهم لم يروا في استمرارها جديدا يدعو الى التحسب والتفكير .

ولكن هذه الصورة تبدلت بشكل ملموس في مطلع عام ١٩٢٩ ، حين اشتدت دعايات الاعداء ضد المفتي والمجلس الاسلامي الاعلى واتسعت نطاقا ، فشملت معظم الدول الاوروبية من غربية وشرقية على السواء ، وتركزت بنوع خاص في بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ... وادخلت اجهزة الدعاية والاعلام اليهودية والاجنبية على برامجها الدعائية اتهامات « وافتراءات » جديدة واندفعت في اسنادها الى الحاج أمين في حين نشطت جبهة « المعارضة » الداخلية في مقاومة الحركة الوطنية وقادتها واشتركت بصورة واضحة في هذه الدعايات والحملات .. ولوحظ حينئذ أن بعض العناصر والجهات المعروفة بتعاونها مع الانكليز والامريكيين في بعض الاقطار العربية والاسلامية ، انبرت بدورها تشن الحملات على المفتي وتبث الدعايات ضده .. مستشهدة على « صحة » أدعاءاتها بما كانت تذيعه جبهة (المعارضة) الداخلية وصحفها من اباطيل وترهات . وقد دل هذا الواقع على قيام « تفاهم » وتعاون بين (المعارضين) في فلسطين وبين اصدقاء بريطانيا وعملائها في الاقطار العربية والاسلامية . أما الحكومة البريطانية (المنتدبة) في فلسطين فانها لم تبارك هذه الدعايات والحملات فحسب بل تحيزت ايضا الى جانب اصحابها والسنتها .

وفضلا عن هذه الدعايات الخبيثة والحملات الدنيئة فان الاعداء وانصارهم وضعوا عدة مؤامرات خطيرة ضد المفتي للتخلص منه . ولكن الله انجاه من

شرورها . وعلى الرغم من علم السلطات المسؤولة بهذه المؤامرات وبالمتآمرين فانها غضت النظر عنهم وتجاهلت ما كانوا يدبرون ، الامر الذي حمل الكثيرين على الاعتقاد بأن هذه السلطات نفسها لم تكن بعيدة عن اعمال التآمر .

وعلما بأن اهل فلسطين كما قلنا قد تعودوا تعرض المفتي ورجال الحركة الوطنية بصورة مستمرة لدعايات الاعداء وحملاتهم ومساهمة عملائهم فيها وانهم لم يكونوا يجهلون اسبابها ، الا أن تركيز هذه الدعايات وشرورها المبيتة واغراضها المرسومة بشكل لم يسبق له مثيل على الحاج أمين ، والمجلس الاسلامي اثار الكثير من التكهنات والتساؤلات عن العوامل والاسباب التي ادت الى بروزها بهذه الصورة القاسية العنيفة والى اتساع نطاقها .وايقن الوطنيون بأن هذا التركيز في الطعن بالحاج أمين والتطاول عليه واسناد الاتهامات والافتراءات اليه ، لا يعدو أن يكون تمهيدا لخطة رهيبة ينوي الاعداء الاقدام عليها ضد اهل فلسطين وكيانهم ، ونظرا لما كانوا يخشونه من أن يحول الحاج أمين دون تنفيذها فانهم ارادوا التخلص منه بمحاولة تشويه سمعته ، وابعاده عن منصبه ، وتعريضه للاذى والضرر .

وبعد مرور نحو شهرين على استمرار استعار نيران هذه الدعاية المغرضة المركزة ، واتساع نطاقها وتعدد اتهاماتها وافتراءاتها بدأ الستار ينكشف شيئا بعد شيء عن الغرض الحقيقي منها ، ذلك أن اليهود اخذوا يعلنون في اواخر شهر اذار ، وبصورة جلية واضحة ، عن « حقوق » لهم في الحرم المقدسي ومكان البراق الشريف وانهم يعتزمون استرجاعها،ثم انطلقوا ينادون بوجوب اعادة انشاء هيكل سليمان على نفس المكان الذي يقوم عليه المسجد الاقصى المبارك ومسجد القبة المشرفة ، وقد ساهم في هذا النداء اقطاب من زعماء بريطانيا (سير الفرد موند ، على سبيل المثال) في حين تلقى المفتي رسالة من حاخام رومانيا يطلب اليه فيه تسليم الحرم المقدسي الشريف الى اليهود ليقيموا صلواتهم فيه . ونظرا لان مكان البراق الشريف يشكل المدخل الغربي لساحة الحرم ولان اليهود كانوا (بفضل تسامح المسلمين وغفلتهم في الماضي) يقومون بزيارة هذا الحائط (وقد اسموه حائط المبكى) ويمارسون بعض شعائرهم الدينية فضلا عن البكاء أمامه فانهم ركزوا جهودهم على الاستيلاء على هذا المكان كخطوة نحو الاستيلاء على الحرم ، ولما كانوا يدركون تمام الادراك بأن الحاج أمين لن يفرط قيد انملة في حقوق المسلمين ولن يتساهل قط في تغيير النظام المتبع (ستاتوكو) بالنسبة للبراق فقد ارادوا

ازاحته من طريقهم ومن هنا انطلقت دعاياتهم الجديدة المركزة ضده ومؤامراتهم الخبيثة على سلامته الشخصية .

وكان اليهود من ناحية ثانية يعدون العدة بسرية وكتمان شديدين لشن عدوان مسلح على العرب والاستيلاء على البراق بالقوة . ولما كان من البديهي أن يرد العرب على القوة بالقوة فتقع الاصطدامات بين الفريقين وتعم البلاد الاضطرابات وتسفك الدماء ، فقد ضمن اليهود برنامجهم العدواني خطة شيطانية ، غرضها التنصل من مسؤولية اثارة الفتنة والاضطراب ،وتحميلها للمفتي والزعماء العرب ، لذلك اخذوا يحاولون اهاجة الرأي العام البريطاني والعالمي ضدهم وراحوا يعدونه ويهيئونه ويجعلونه في وضع يسهل معه موافقته على تحميل المفتي واخوانه مسؤولية اي اضطراب يحدث .. ومن هنا انطلقت صحفهم واجهزة اعلامهم تتهم المفتي بالتطرف والتعصب واثارة الفتن .. والرغبة في سفك الدماء .

ولئن تركت هذه الدعاية المعادية ضد المفتي اثارا ايجابية في اوساط الرأي العام البريطاني والعالمي وافلحت في « اظهار » المفتي امامه بمظهر المتعطش لسفك الدماء والملتزم خطة اثارة الفتن والاضطرابات واعلان حربا « دينية » ضد اليهود ، فان الفلسطينيين خاصة والعرب عامة لم تنطل عليهم احابيل الدعايات المغرضة والحملات المضللة ، فازدادوا تأييدا للمفتي والتفافا حوله في حين اهاجتهم مطامع اليهود في الحرم المقدسي والبراق فصمموا على احباطها وتقويضها .

ونتيجة لهذا كله ساد فلسطين توتر شديد وازداد العداء بين العرب واليهود وندد المفتي بهذه المطامع اليهودية وأكد أن العرب لن يسكتوا عنها ، كما اذاع بيانات وادلى بتصريحات يعلن فيها بوضوح تصميم العرب على الدفاع عن حقوقهم ومقدساتهم مهما كلفهم الامر .

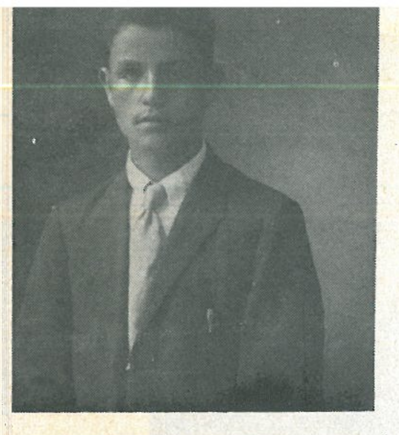
(والواقع أن هذه المطامع اليهودية في الاماكن المقدسة الاسلامية قديمة ولكن اليهود كانوا يتسترون عليها ولا يعلنون عنها ، بينما كانوا يستعدون لتحقيقها . وما انفك الحاج أمين الحسيني يؤكد للعرب والمسلمين منذ احتلال بريطانيا لفلسطين وبدء الهجرة اليهودية اليها أن اليهود يبيتون مؤامرة للاستيلاء على المسجد الاقصى المبارك وسائر المقدسات الاسلامية ، ويحذرهم من

شرورها ويهيب بهم للتأهب والاستعداد لمجابهتها ، ومن المؤسف أن العرب والمسلمين ، الا من عصم الله منهم ، لم يصدقوا أن لليهود مثل هذه المطامع .. حتى ظهرت جلية واضحة في صيف ١٩٢٩) .

اليهود يتحركون

وبلغ التوتر ذروة شدته في شهر تموز ١٩٢٩ ، حين اعلن اليهود عن عزمهم الاكيد على العمل لبلوغ اهدافهم . ففي هذا الشهر انطلقت المنظمات والاحزاب اليهودية المختلفة (ومن ورائها يهود العالم) تعقد الاجتماعات العامة وتقيم المهرجانات الشعبية ، لاعلان حقوق اليهود « الازلية » في الحرم المقدسي ووجوب اعادته اليهم ، وحض اليهود على التأهب والاستعداد للاستيلاء على مكان البراق الشريف (الحائط الغربي المعروف بحائط المبكى) .وارسلت الجمعية الصهيونية العالمية (الوكالة اليهودية فيما بعد) وفودا الى معظم الاقطار الاوروبية والامريكية للدعاية في اوساطها للخطة اليهودية والسعي للحصول على تأييد حكومات هذه الاقطار واحزابها ومنظماتها السياسية « لحقوق » اليهود . في الوقت نفسه تمادت الصحف اليهودية والصحف الاجنبية المؤيدة لليهود وبصورة خاصة الصحف البريطانية ، في شن الحملات على المفتي وامعنت في تحريض العالم عليه .

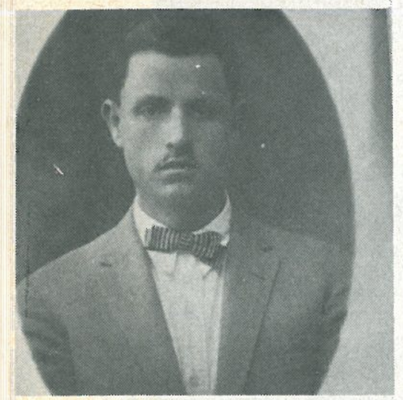
وتولت الصحافة العربية في مختلف انحاء العالم العربي الرد على الحملات اليهودية والدعايات المعادية وتفنيدها وابراز حقوق المسلمين الثابتة في مكان البراق ، في حين انطلقت الصحف الفلسطينية سواء المنتمية منها الى الجبهة الوطنية أو الجبهة المعارضة ، تدافع عن حقوق العرب وتهاجم المطامع اليهودية بصورة قوية . وانبرى المجلس الاسلامي الاعلى لدحض الادعاءات اليهودية وتفنيد مزاعم الاعداء بصورة رسمية واصدر عدة نشرات في تأكيد حقوق المسلمين في البراق واثبات ملكيتهم له ، واجرى اتصالات هامة مع زعماء العالم الاسلامي وصحافته واحزابه ومنظماته التي سارعت كلها الى تأييد عرب فلسطين في موقفهم . وردا على نشاط اليهود عقد الفلسطينيون سلسلة من الاجتماعات الشعبية لتوعية الراي العام وكشف الستار عن حقيقة اهداف اليهود ومخططاتهم ، وقد ساهمنا نحن معشر الشباب بجهود قوية في هذا المضمار .



أميل الغوري سنة ١٩٢٢
عندما طرد من مدرسة المطران



الموظف في شركة كوك ١٩٢٥



عندما ترك القدس للتخصص
في أميركا ١٩٢٩



كشافة المدرسة الارثوذكسية في حفلة المدرسة الوطنية - ايار ١٩٢٩ .

عندما كان اميل الغوري طالبا
في الولايات المتحدة

Comes To School From Jerusalem

Inspired and aided by the general secretary, Dr. A. C. Harte, Emile Ghorey of the Jerusalem Y.M.C.A. has come to Boston to study at Northeastern University. He was a member of the Jerusalem Y for four years and has transferred his membership from there to the Huntington Avenue Branch.

Mr. Ghorey is very enthusiastic over the new building to be erected by the Jerusalem Y to be completed in about a year and a half. The present building has an excellent library, which Mr. Ghorey states is used a great deal, but has little recreational and health facilities. The new Y will have gymnasium, swimming pool and tennis courts in addition to a beautiful library and social rooms.

He Heads List of All Foreign Students


EMILE A. GHORY

Emile Anton Ghory, Jerusalem, Palestine, heads the list of foreign students receiving degrees from President Raymond Walters at the fifty-fifth commencement of the University of Cincinnati, in Nippert Memorial Stadium, Saturday. He completed all requirements for both bachelor and master of arts degrees in three and one-half years of collegiate study.

GIVES ARAB VIEWPOINT OF POLICY IN PALESTINE

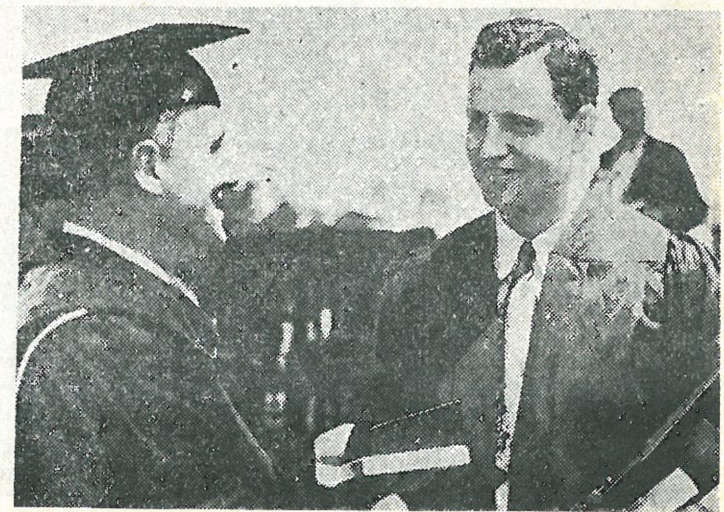
The final meeting for the Fellowship of Faiths was held in Temple Ohabei Shalom, Beacon st, Brookline, last night, with speakers paying tributes to the neighborliness of Jews.

Emile Anton El-Ghorey, Arab resident of Palestine, gave as the Arab viewpoint that they opposed "the persistent practice of an aggressive policy" by Zionists as one which threatened their social, religious and political rights. He quoted a leading Zionist in favor of abandoning the political idea of Zionism.

Julius Lasker, a Jew who has lived in Palestine, spoke of the character of Arabs he had known in the Holy Land. Charles F. Weller, an executive of the "Threefold Movement," explained it and invited his listeners to take part in it. Rabbi Samuel J. Abrams and Rev Douglas Norton, Jew and Christian, exchanged tributes of each other as neighbors.

Dr Albert C. Dieffenbach, was chairman.

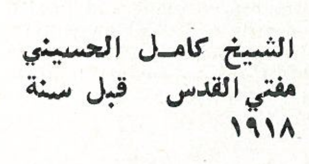

والد أميل الغوري وقد اخذت الصورة سنة ١٨٩١


يتسلم شهـــادة بكالوريوس علوم واستاذ علوم ـ حزيران ١٩٣٣



السيد محمد أمين الحسيني بلباس ضابط في الجيش العثماني





الشيخ كامل الحسيني
مفتي القدس قبل سنة ١٩١٨



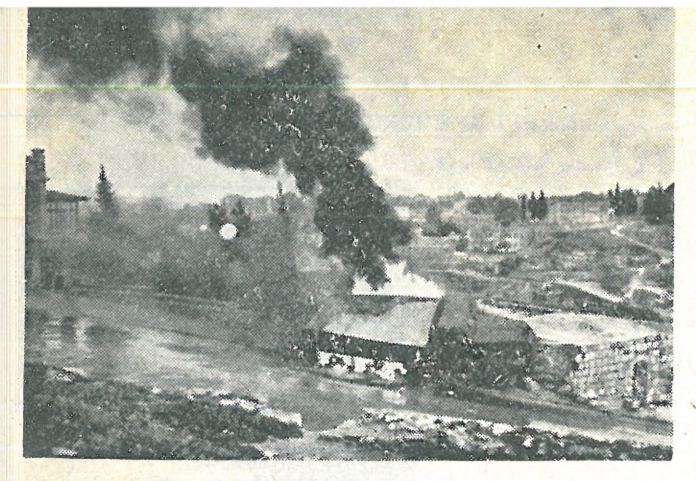
جمال باشا



الحـاج أمين الحسيني ١٩٢٢
باللباس العربي بعد خروجه من
فلسطين على اثر ثورة ١٩٢٢
وصدور الحكم عليه



منظر عام للقدس



حرائق في الحَي اليهودي في القدس

مظاهرة في يافا يفرقها رجـال البوليس البريطاني



وادرك الانكليز واليهود بأنهم لن يستطيعوا بلوغ اهدافهم وان تماديهم في موقفهم سيؤدي الى اشعال نار اضطرابات دامية واسعة النطاق في فلسطين لا يعلم سوى الله نتائجها ، كما ايقنوا بأن المفتي مصمم على الدفاع عن حقوق العرب والمسلمين ، والصمود في ميدان المقاومة مهما كلفه الامر مما حملهم على مضاعفة مؤامراتهم ضده ، ومما هو جدير بالذكر — وللتاريخ — أن اقطاب الجبهة المعارضة انفسهم جمدوا نشاطهم واتخذوا لانفسهم خطة السكوت والمراقبة ، مع ميل ظاهر الى تأييد موقف المفتي والمجلس الاسلامي.

السلطات البريطانية

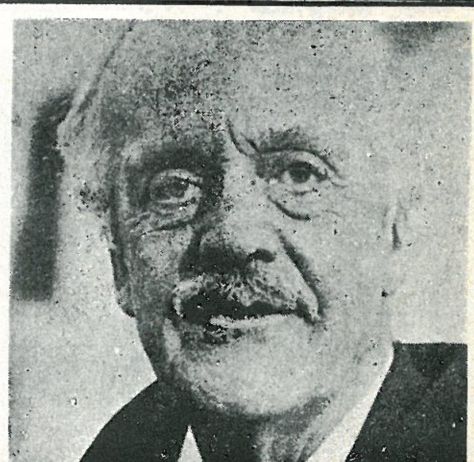
وتبين للوطنيين أن السلطات البريطانية كانت تشجع اليهود سرا وتحرضهم على الحاج أمين وتعدهم بالوقوف الى جانبهم في جهودهم لبلوغ اهدافهم . وامعانا منها في التضليل والمخادعة فانها اخذت تتظاهر بمظهر الحياد ، فدعت الجانبين العربي واليهودي الى التعاون والتفاهم لغرض تهدئة الاوضاع وازالة حالة التوتر ، كما حثتهما على وقف الحملات الصحفية المتبادلة والابتعاد عن المهاترات واعمال الاثارة والتحريض .

الضغط البريطاني

وعلى الرغم من سلامة الموقف العربي ، وثبوت حقوق العرب وعدالة قضيتهم ، فان السلطات البريطانية انطلقت تمارس ضغطا كبيرا على العرب لحملهم على تعديل موقفهم . واجرى المندوب السامي اجتماعين او ثلاثة مع سماحة المفتي حاول خلالها اقناعه باعادة النظر في موقفه والتساهل ،وافساح المجال أمام اجراء « مباحثات ثنائية » بين العرب واليهود تحت اشراف الحكومة ، تؤدي الى تهدئة الاوضاع و « تسوية » الخلاف القائم ، ولجأت الحكومة الى الاغراء والتشويق آنا ، والتهديد والوعيد آنا اخر لحمل المفتي على التساهل ... واوعزت الى بعض « الشخصيات » العربية من فلسطين وغيرها التي تعودت الاستجابة الى رغائب الانكليز بالاتصال بالمفتي ونصحه بتبديل موقفه والتساهل مع اليهود مؤكدين له أن الحكومة عازمة على اتخاذ اجراءات شديدة ضده في حالة تمسكه بموقفه .. ولكن المفتي رفض أن تكون حقوق العرب والمسلمين موضوعا للمساومات والمباحثات ، واكد اصراره على


الشهيد عبد القادر الحسيني


الشهيد سعيد العاصي


اللورد بلفور صاحب الوعد المشؤوم


الصهيوني هوبرت صموئيل اول مندوب سام بريطاني في فلسطين .

وجوب احترام نظام (ستاتوكو) واعلن عن عزمه القاطع على القيام بواجبه كاملا لصيانة حقوق المسلمين والدفاع عنه .

الاغراء بالمال

ولما قطع الاعداء كل أمل في زحزحة الحاج أمين عن موقفه الصلب المستند الى الحق والعدل جاءهم من يقترح عليهم اغراء المفتي واعضاء المجلس الاسلامي الاعلى بالمال .. لتغيير موقفهم ! ورحب اليهود بهذا الاقتراح وبادروا الى محاولة تنفيذه . فاتصل بعض اقطابهم المسؤولين بعضو المجلس الاسلامي المرحوم عبد الرحمن التاجي الذي كانت تربطه بقادة اليهود صداقة قديمة وعلاقة مصلحية .. وعرضوا عليه أن يتوسط (بصورة سرية طبعا) في الموضوع .. وكلفوه أن يعرض على المفتي نصف مليون جنيه فلسطيني (استرليني) وأن يقوم المفتي برحلة الى الخارج يزور خلالها عدة اقطار اوروبية وتكون جميع نفقات الرحلة على حسابهم .. كذلك كلفوه أن يعرض على بعض اعضاء المجلس الاسلامي (المتطرفين) خاصة أمين التميمي مبالغ اخرى من المال .. وكان اليهود يهدفون من وراء اقناع المفتي بالسفر الى الخارج الى تنفيذ خطتهم المتعلقة بالاستيلاء على البراق خلال « غياب » الحاج أمين . وبالفعل اتصل عبد الرحمن التاجي بالمفتي وعرض عليه ما كلف به ، ونصحه بقبول العرض اليهودي واكد له أن المبالغ المقترحة موجودة في حيازته وذلك امعانا منه في محاولة اغراء المفتي ، ولكن الحاج أمين رفض العرض اليهودي بكل شمم واباء ، واستمر على موقفه المشرف . (عندما جاءت لجنة شو البريطانية للتحقيق في أسباب ثورة ١٩٢٩ ، المعروفة بثورة البراق . واجتمعت الى الحاج أمين لمناقشته والتحقيق معه .. كشف المفتي أمام اللجنة النقاب عن العرض اليهودي الانف ذكره فدعمه عبد الرحمن التاجي بشهادة ادى بها أمام اللجنة المذكورة) .

حرس وطني

وفي اواخر تموز ١٩٢٩ ازداد الوضع توترا ، حيث اخذ اليهود يستعدون على المكشوف .. لاقتحام مكان البراق وفرض سيطرتهم عليه .. وخشية الغدر والمفاجأة شكل المفتي حرسا من الشبان الوطنيين (انضم اليهم عدد من الشبان المسيحيين انفسهم) يتناوبون حراسة البراق الشريف ليلا نهارا ، ومراقبة تحركات اليهود .. وعلمنا في حينه أن الحاج أمين نفسه كان يتجول

ليلا (سرا) في احيان كثيرة لمراقبة الحالة والتأكد من يقظة سكان حي البراق (حي المغاربة) وفرق الشباب للحراسة .

المظاهرات والاصطدامات

ولما حل شهر آب ، وهو الشهر الذي يحتفل فيه اليهود بذكرى خراب هيكل سليمان وتدميره اندفع اليهود يتظاهرون ويعقدون الاجتماعات العامة ويقيمون المهرجانات الشعبية يؤكدون فيها عزمهم على « استعادة حقوقهم » في البراق بالقوة .. وعلم الوطنيون بصورة اكيدة ان اليهود شكلوا فرقا خاصة من شبابهم وزودوها بالسلاح للهجوم في الوقت الذي يحدده لهم المسؤولون من قادتهم . وأخذ اليهود يزورون ساحة البراق (حائط المبكى) يوميا وباعداد كبيرة غير مألوفة .. وقد لازمت هذه الزيارة اعمال استفزازية ومسالك تحد اثارت غضب العرب ، وزادتهم تصميما على الدفاع عن مقدساتهم .

وفي يوم الجمعة الواقع في ١٥ آب ١٩٢٩ (وهو اليوم الذي تبدأ فيه احتفالات اليهود بذكرى خراب الهيكل) قامت مظاهرة يهودية ضخمة في القدس ، واندفع المتظاهرون وكان عددهم كبيرا جدا ، يخترقون شوارع المدينة القديمة ، ولما وصلوا الى البراق ، اعتدوا على سكان حيه من العرب ، ورفعوا العلم الصهيوني على الحائط ، ونصبوا مائدة للصلاة والعبادة (خلافا للنظام (استاتوكو) المتبع واستولوا على جامع صغير (هو جامع البراق)ووضعوا فيه الاواني الكنسية ، ونفخ حاخاموهم (بالبوق) وارتفعت عقيرتهم بالصياح (وهو مخالف ايضا للنظام المذكور) خلال ممارسة شعائرهم الدينية ...

وفي مساء اليوم نفسه انقض جمهور من العرب على المتظاهرين اليهود ، فاخرجوهم من ساحة البراق وانزلوا العلم الصهيوني وحطموا المائدة التي وضعها اليهود فيها وطهروا جامع البراق .. ثم قضى شباب العرب الليلة بكاملها وهم يبنون حائطا جديدا للجامع حتى اتموا بناءه .

واصبحت القدس في حالة توتر عظيم وغدا العرب في هياج شديد وعلى الرغم من اندحار اليهود في ١٥ آب ١٩٢٩ تبين للعرب بصورة قاطعة أن الحكومة جعلت توزع على اليهود (بصورة سرية) الاسلحة والعصي الغليظة (الهراوات) في حين انتقل الكثيرون من افراد المنظمات اليهودية العسكرية

السرية باسلحتهم وعتادهم من تل ابيب ومراكز يهودية اخرى الى القدس .. استعدادا للهجوم على اهلها والسيطرة على ساحة البراق .

وقد اثارت هذه الاعمال نفوس العرب واهاجت خواطرهم . وباتـــوا يتوقعون حدوث هجوم يهودي عدواني على البراق والحرم الشريف ،فشعروا بواجب اعداد انفسهم والتأهب لصد مثل هذا العدوان .

واستمر اليهود في تحديهم للعرب واستفزازهم لهم ، تحت نظر الحكومـة وعلى مسمع منها وقد اتضح للجميع انها كانت تقف صراحة الى جانب اليهود . وفي الحين الذي قام اليهود في ٢١ و ٢٢ آب بمظاهرات صاخبة في البـلاد لا سيما في الاحياء اليهودية في القدس فانهم راحوا يعتدون على العرب الذين يمرون عبر هذه الاحياء في طريقهم الى قراهم وعلى القرى العربية الواقعـة على مقربة من المستعمرات اليهودية . وقد ادت هذه الاعتداءات الاجرامية الى المزيد من القلق والهيجان في الاوساط العربية .

وكان يوم الجمعة (٢٣ آب ١٩٢٩) هو اليوم الذي يختتم فيه اليهـود احتفالاتهم بذكرى خراب الهيكل . وفي صباح هذا اليوم نزلت قوات الحكومة من رجال الجيش والشرطة الى شوارع القدس واتخذت لها مراكز (عمـل) في مداخل المدينة القديمة وحول ساحة الحرم الشريف في حين لم تتخذهـــذه القوات المسلحة اي مركز لها في الاحياء اليهودية .

ثورة ٢٣ آب ١٩٢٩

واحتشدت جماهير غفيرة من اليهود في شارع يافا بالمدينة الجديدة وفي طليعتها المنظمات اليهودية العسكرية المسلحة استعدادا لاقتحام المدينـــة القديمة والوصول الى البراق بغية الاستيلاء عليه بالقوة . ولما علم العرب بهذا الاستعداد والتأهب اليهودي ثارت نفوسهم والتهب حماسهم ، وشعـروا بأنه لم يعد امامهم اي مجال للسكوت والصبر ، فخرجت جماهير المسلمين بعد صلاة الجمعة في المسجد الاقصى المبارك يوم ٢٣ آب ١٩٢٣ ، بمظاهـــرة ضخمة ، انطلقت الى ساحة البراق الشريف والاحياء المجاورة له . واذكر ان عددا من الخطباء العرب كان بينهم المرحوم الشيخ حسن ابو السعود ،القوا كلمات في المتظاهرين يحثونهم فيها على الهدوء وضبط النفس ، وفيما كانت هذه الخطب تكاد تؤتى اكلها وتحقق الغرض منها ، بلغ العرب أن مظاهرة

يهودية كبيرة مسلحة انطلقت نحو المدينة القديمة في طريقها الى ساحة البراق فهب شبابهم لصد العدوان اليهودي ، فوقع اصطدام عنيف بين العـــرب واليهود وقف خلاله الانكليز الى جانبهم ولكن العرب استطاعوا أن يتغلبوا على المعتدين وردهم على اعقابهم خاسرين . وعلى اثر هذا العدوان اندلع لهيب ثورة فلسطينية عظيمة (كانت خامس ثورة في فلسطين) ضد الانكليز واليهـود على السواء لم تلبث أن امتدت الى سائر انحاء فلسطين وبصورة خاصة الى الخليل وصفد ومنطقة طولكرم واستمرت اسبوعا كاملا ، سقط خلالها أكثر من ٢٠٠ شهيد عربي وجرح ضعف هذا العدد ، وهلك من الانكليز واليهود وجرح عدد كبير ، وكانت معظم الاصابات التي نزلت بالعرب برصاص القوات البريطانية !

وانقضت الحكومة البريطانية على العرب باشد اساليب الاضطهادوالارهاب المعروفة عنها ، واقسى وسائل البطش والتنكيل فاعتقلت المئات من الوطنيين، وشكلت محاكم عسكرية خاصة لمحاكمة « المتهمين » بالاشتراك بأعمال العنف وساقت اليها العشرات من المجاهدين ، فحكمت بالاعدام على ٢١ متهـم وبالسجن المؤبد على ٣١ اخرين وبالسجن مددا تتراوح بين ثلاثة اعوام و ١٥ عاما على ١٢٧ منهم . وفرضت الحكومة « غرامات » مالية باهظة على عدد من قرى القدس العربية ونسفت بعض بيوتها ، واتلفت بساتينها ومزارعها ، كما فرضت نظام منع التجول على العرب (دون اليهود) والاقامة الجبرية على الكثيرين من القادة والزعماء ، وفرضت « الرقابة » على الصحف ، واطلقت قواتها المسلحة للتفتيش عن السلاح في المدن والقرى لفرض نزعه من ايـدي العرب .

اتهـــام المفتي

واتهم « اليهود » والكثيرون من الانكليز فضلا عن الامريكيين والغربيـين العرب بالتمرد والعصيان والعدوان وانطلقت الصحافة واجهزةالاعلاماليهودية والبريطانية والامريكية تشن حملات قاسية شعواء على الحاج أمين الحسيني وتوجه اليه تهمة اشعال نار الثورة وتطالب بمحاكمته أمام المحكمة العسكرية، وتنعته بسفاك الدماء ، ومثير الفتن والاضطرابات وتسند اليه « اللاسامية » والرغبة في ذبح اليهود واضطهادهم !

بيان تشانسلور

وكان المندوب السامي البريطاني « سير جون تشانسلور » يقضي اجازته

في انكلترا عندما قامت الثورة ، فقطعها وعاد الى فلسطين بطائرة عسكرية، واصدر فور وصوله الى القدس بيانا رسميا اتهم فيه العرب باشعال نار الاضطرابات ووصفهم بالقتلة السفاحين والمجرمين ، فردت اللجنة التنفيذية على بيان المندوب السامي وفندت محتوياته واحتجت عليه احتجاجا شديدا ، وشجب المفتي في بيان صدر باسم المجلس الاسلامي الاعلى ، بيان تشانسلور واتهمه بالتحيز السافر لليهود ، ووصفه بأنه عدو للعرب ، وبالحماقة وقصر النظر ، وطالب بوجوب سحبه من فلسطين فورا ! وبعد صدور هذه البيانات العربية ، القاسية والشديدة اللهجة ، اذاع المندوب السامي بيانا جديدااعتذر فيه للعرب عما جاء في بيانه الاول عنهم .

لجنة التحقيق

واعلنت الحكومة البريطانية تشكيل لجنة برلمانية برئاسة سير والتر شو (قاضي قضاة مستعمرة ملاغا السابق) للتحقيق في اسباب حوادث فلسطين ، وتضمين تقريرها عن مهمتها واعمالها ، ما تراه من مقترحات وتوصيات لمنع تكرر الاضطرابات في البلاد .

(امتدت ايدي الانكليز بالاضطهاد والاعتقال الى عدد من فتياننا وشبابنا المنضوين تحت لواء « حركتنا » التي اشرنا اليها سابقا واتهمت بعضهمبالقيام بأعمال « العنف » والهجوم المسلح على اليهود وقد نقلوا (وكان لي الشرفبأن أكون واحدا منهم) الى معتقل اقامته السلطان البريطانية على مقربة من مدينة عكا ، لاستيعاب المئات من المعتقلين العرب ... وبعد أن هدأت الثورة انهت السلطات المعنية تحقيقاتها .. افرج عنا .. فعدت الى القدس ..)

الى أمريكا

لما افرج عني ورجعت الى القدس ، وجدت رسالة من ادارة جامعة (نورث ايسترن) ببوسطن تؤكد فيها قبولي في الفصل الاول للعام الدراسي ١٩٢٩/١٩٣٠ في كلية الحقوق فيها ، وبأن تسجيلي فيها قد تم وفقا للاجراءات المتبعة ، فهيات نفسي للسفر فورا .. وغادرت فلسطين في ١٥ أيلول ١٩٢٩ كما سياتي الحديث عن ذلك في فصل قادم .

- ١٠ -

سأتحدث في هذا الفصل من مذكراتي بالاقتضاب المستطاع ، عن المدة التي قضيتها «طالب علم» في الولايات المتحدة الامريكية ، وعن بعض الامور العامة التي من حقي أن يطلع عليها القراء الكرام . وسأتجنب ما أمكن الحديث عن أبنائي وأخباري الخاصة التي ليس من حقي أن أثقل بها عليهم .
وفي هذا الفصل والفصول التي تليه شروح وتعليقات لمسائل خطيرة واحداث مثيرة وقعت في فلسطين خلال الاعوام الاربعة التي قضيتها في الخارج ، كنت اطلع عليها من الصحف العربية والامريكية ، ومن رسائل متواصلة كان يوافيني بها أصدقاء حميمون أذكر منهم الاب نقولا الخوري وفوتي فريج ونافذ الحسيني ويوسف عبدو وميشيل عازر واسحق فانوس وعبد القادر الحسيني ، فضلا عن شقيقي عيسى ورجائي . وكانت رسائل عبد القادر تدور حول أمور ما انفكت تشغل أفكاره وتثير حماسته .. وكان مضمون هذه الرسائل الاساس الذي قام عليه تعاوننا الوثيق بعد عودتي من امريكا ..

والدتي

لئن كان للمرحوم والدي فضل لا أنساه في توجيهي نحو طلب العلم في الخارج فان المرحومة والدتي لعبت الدور الاول في تمكيني من تحقيق أمنيتي ، ورغبة المرحوم والدي . واني لا أستطيع في أي بحث أن أفي والدتي حقها علي فينشأتي وجميع نواحي حياتي الخاصة والعامة ، ويشهد الله انها تحملت في هذا السبيل الشيء الكثير من المسئولية ، والتعب والتضحية .

وكانت والدتي قوية الشخصية والارادة ، وعلى مقدرة عظيمة من اخفاء عواطفها وشعورها ، وادعاء السرور والبهجة في الحين الذي كان قلبها يشتعل بنار الحزن والاسى . وتجاوزت علاقاتي بوالدتي العلاقات العادية التي تقوم بين الابن وامه ، الى علاقات الاخوة والزمالة والتعاون . فعندما فقدت والدتي

سندها الاول ، بوفاة المرحوم والدي ، كان شقيقي الاكبر عيسى في ديار هجرته في الولايات المتحدة الامريكية ، فوقع علي (وكنت قد بلغت العام السابع عشر من عمري) واجب ملأ الفراغ الذي أحدثه انتقال والدي الى الرفيق الاعلى ، كما وقع على كاهلي عبء المسئولية نحو العائلة ، وكانت مسئولية خطيرة ، ما كنت لاستطيع تحملها لولا عطف والدتي وحدبها علي ، وعونها ونصحها لي . ومن هنا نشأت العلاقات الانف ذكرها ، حيث جعلت والدتي تعاملني كابن لها من ناحية ، ومن ناحية أخرى كرفيق وزميل يشتركان في تحمل المسئولية الكبيرة .

وكانت والدتي ملوعة القلب من «الغربة» .. فقد كان شقيقي عيسى وشقيقتي (زوجة الياس السلطي) في المهجر منذ أعوام طويلة .. وكان الكثيرون من أفراد عائلتها (حنانيا) وعائلتنا مهاجرين .. فضلا عن أنها فقدت ابنها ابراهيم (وكان في العشرين من عمره) وهو في ديار هجرته في المكسيك .

ولكن هذه «اللوعة» التي كانت تحرق كبد والدتي من «الغربة» لم تؤثر اطلاقا على موقفها من سفري الى الخارج .. فعندما سنحت لي الفرصة في١٩٢٩ للسفر ، وقبل أن أتخذ أي اجراء بشأنه ، كاشفت والدتي بالامر ورجوتها أن تعطيني رأيها بكل صدق وصراحة ، فقالت : الله سيفرجها عليك يا ولدي فاقدم ولا تتردد واياك أن تفكر بنا ، فاننا سنتمكن من تدبير أمورنا .. واذا ما ترددت في السفر ، لا سمح الله ، فانك ستقتلني !

وأذكر أن الاخ العزيز اسحق درويش ، لما تبين له اني عازم على السفر ، زار الوالدة في البيت ، وسألها هل توافق على سفري ، وهي والعائلة في أشد الحاجة الي ،وان الحركة الوطنية في حاجة ايضا الى جهودي وخدماتي.
وحاول اسحق حمل والدتي على عدم السماح لي بالسفر ، أو على الاقل على تأجيله .. فقالت له الوالدة : انت مثل أولادي ، فأقول لك أن سفر اميل صعب علي أكثر مما تتصور .. ولو اني أبديت له رغبة بأن لا يسافر فانه سينزل عند طلبي دونسؤال أو مناقشة . ولكني أضع مصلحته فوق شعوري ومصلحة العائلة ، وان همي الوحيد أن يطلب العلم وأن نسهل له تحقيق رغبته . واذا ما نصحت ولدي بعدم السفر ، وهو سيلبي طلبي بكل تأكيد ، فأخشى أن يأتي يوم يرى فيه أترابه وخلانه وقد تلقوا العلوم العالية ، وانه محروم منها .. فيعتب علي ويؤاخذني ويلومني وأنا في قبري ! لا .. الله معه وهو ولي توفيقه . وعلمت فيما بعد بهذا الحديث .. وقالت لي شقيقتي التي

حضرته ، ان عيني اسحق دمعتا لدى سماعه أقوال والدتي .. فهنأها على موقفها وأعرب عن اعجابه به .

السفر

تجمع لدي من المال ما مكنني من دفع رسوم الفصل الاول من السنة الدراسية في بوسطن ، ونفقات الاقامة والطعام في نادي جمعية الشبان المسيحية فيها لمدة ثلاثة أشهر ، واجرة السفر الى امريكا ولم يبق في جيبي سوى مبلغ أربعين جنيها وكانت في الحقيقة مغامرة كبيرة أن أسافر لطلب العلم وليس لدي غير هذه الحفنة الصغيرة من المال . ولكن الحياة كلها مغامرة .. وكان مما حفزني الى الاقدام عليها اعتقادي بأني سأجد عملا اضافيا يساعدني دخله على تلافي بعض النفقات الضرورية وبأني سأستطيع الفوز في بعض المباريات والمسابقات في الجامعة فأتلافى بعضها الاخر .

وحجزت مكانا في الدرجة «الخاصة» (بين الدرجة الثانية والثالثة) وهي تعادل في هذه الايام درجة السفر السياحية ، على الباخرة الفرنسية «اليسيا» التابعة لشركة (فابرلاين) ، وحمولتها لا تتجاوز (٩٠٠٠) طن ، وهي حمولة صغيرة جدا بالنسبة لمياه المحيط الاطلسي العميقة التي كان العرب يسمونها في القرون الوسطى «بحر الظلمات» . وقد اخترت هذه الباخرة لان اجرة السفر عليها أقل بكثير من أجرة السفر على البواخر الكبيرة التي تقطع الاوقيانوس الى العالم الجديد ، ولان «اليسيا» ترسو في عدد كبير من موانيء البحر الابيض المتوسط ، فتتوفر لي الفرصة لزيارتها ..

ونظرا لاني أتشاءم من البكاء .. فقد رجوت والدتي واخوتي واخواتي ، أن لا يكون هناك وجوم أو حزن أو دمع يوم سفري . وعند الوداع قبلت يد والدتي (وهي عادة يومية لم تنقطع حتى وفاتها) وقبلتني وقالت : مع السلامة .. الله يرضى عليك . وقبلت الشقيقين والشقيقتين وغادرت المنزل بسيارة الى يافا . وأبهجني أن العائلة احترمت «شروط» الوداع .. فلم تذرف دمعة واحدة .. ولكنني أنا الذي خرقت هذه الشروط ! فما أن ابتعدت السيارة عن البيت ، حتى خانني شعوري وخذلني جلدي ، فانهمرت ، دموع غزيرة من عيني .. وشعرت بالخوف من «المجهول» .. مجهول «الغربة» و «المغامرة» في بلاد أجنبية بعيدة .. وكان كل «رأسمالي» اربعون جنيها ، وكتاب توصية خاصة

من سماحة الحاج أمين الى أحد أصدقائه في نيويورك ٠

وأقلعت الباخرة من ميناء يافا مساء ، والتفت الى فلسطين مودعا ، وتركزت عيناي على منظر خلاب عظيم «لعروس» فلسطين ، يافا الحبيبة ٠٠ ولم نأوي الى غرفة النوم الا بعد أن اختفى منظر هذه المدينة الجبارة ٠٠ التي كانت من أقوى معاقل المقاومة الفلسطينية ٠

وتعرفت في اليوم الثاني ، على مسافرين عرب من سورية ولبنان وفلسطين ، منهم وديع رزق ترزي (من غزة) وكان في طريقه الى هافرفورد بولاية بنسلفانيا لطلب العلم في جامعتها ٠ ومنذ هذا التعرف توثقت بيني وبينه عوامل الاخوة والصداقة ، وهي لا تزال قائمة ، وقد ازدادت نموا ، حتى يومنا هذا ٠

ورست الباخرة في استامبول ، وكونستانزا (رومانيا) وأثينا (البريه) ونابولي ، وجنوا ، والجزائر ، وجبل طارق والدار البيضاء ، وقد قمنا بزيارة قصيرة لكل من هذه الموانيء ٠ وكان البحر هادئا لطيفا خلال رحلتنا في البحر الابيض المتوسط ، ولكن ما ان دخلت السفينة مياه الاوقيانوس (بحر الظلمات) حتى بدأت تواجه الامواج الهائجة والانواء العاتية ، فقضينا العشرة ايام الباقية من رحلتنا ونحن في «مهب الريح» ، وكنا نظن ، أن الاوقيانوس لن يلبث أن يبتلع الباخرة ومن عليها ، ولكنها تحدت الاخطار وصمدت في وجهها حتى وصلنا ميناء (بروفيدانس) في ولاية رود ايلاند الى الشمال من ولاية نيويورك ، فنزلنا الى البر سالمين . وأذكر أن احد المسافرين من ابناء القدس (خميس توتنجي) ـ وكان يقصد جنوب الولايات المتحدة لاعمال تجارية ـ كان يتطير جدا من الامواج الصاخبة ويخشى أن نغرق ٠٠ فيعبر عن مخاوفه بقوله : يا ليت بعض بحارة يافا المشهورين الاشاوس كانوا على ظهر «اليسيا» لينقذونا من الموت !!

في بوسطن

غادرت بروفيداس بالقطار الى بوسطن ، فكان في استقبالي في محطتها الصديق العزيز والاخ الكريم ميشيل عبدو (من القدس) فأخذني الى بيته في بلدة (مولدن) القريبة من بوسطن ، حيث قضيت عدة أيام في ضيافته ٠

والتحقت بكلية الحقوق (السنة الاولى) في جامعة «نورث ايسترن» عند ابتداء عامها الدراسي الجديد (١٩٢٩ ـ ١٩٣٠) ورحب بي الرئيس والاساتذة ترحيبا حارا لانني تلميذ أجنبي من ناحية ، ومن ناحية ثانية لاني من مدينة القدس ٠ والتف الطلاب حولي مرحبين ، وجعلوا يتزاحمون في طرح الاسئلة علي عن هذه المدينة المقدسة ، وتاريخها ، معالمها ، اثارها الخ ٠٠ ولكن الاساتذة والطلاب على السواء ذهلوا عندما علموا بأنني عربي ومسيحي ٠٠ فقد كانوا يعتقدون (ولعل الاجانب عامة لا يزالون على هذا الاعتقاد) ان القدس (جيروزاليم) مدينة يهودية لا يقطنها غير اليهود والمبشرين الاجانب ٠٠ فكيف يأتي منها عربي ؟ ولم يستطع هؤلاء أن يفهموا كيف يمكن أن يكون شخص عربي «مسيحيا» ، لان العرب كلهم مسلمون ! ولاحظت فيما بعد أن اقبال الطلبة والاساتذة علي واتصالهم بي ، قد قل وتضاءل جدا بعد أن علموا بأنني لست يهوديا !

وواجهتني صعوبة كبيرة في التفاهم مع الطلبة والانسجام في جوهم ٠٠ ولعل من أهم العوامل في ذلك اني كنت في الثانية والعشرين من عمري ، وهو فوق مستوى معدل سن الطلبة الاخرين في الصف الاول بنحو أربعة أعوام ٠

اولاد عمي

أبرق الي أبناء عمي ، في مدينة سنسناتي من أعمال ولاية أوهايو الامريكية ، مرحبين مبتهجين ، وطلبوا الي قضاء عطلة عيد الميلاد عندهم ٠٠ وأرسلوا لي تذكرة للسفر ذهابا وايابا وخمسين دولارا للنفقات ٠٠ فسررت جدا لهذا المبلغ ، فقد كان ما لدي من المال في طريقه الى النضوب بسبب ارتفاع أسعار المعيشة في بوسطن ، وفشلي في الحصول على عمل على الرغم من المساعي التي بذلها ميشيل عبدو ، وبعض المهاجرين من قضاء رام الله في هذا السبيل .

وكان فرحي كبيرا عندما سافرت الى (سنسناتي) في عطلة العيد والتقيت بأبناء عمي (ابناء أخ والدي) الثلاثة ، عيسى ، وقسطندي وسليم ، وأمهم ، وزوجة أكبرهم (وهي عربية سورية) واولاده ٠ وأقمت في سنسناتي ١٢ يوما ضيفا عليهم في منزلهم ٠ ووجدت أن الطقس في سنسناتي أحسن بكثير من طقس بوسطن ، حيث «قتلني» بردها وأهلكني صقيعها ، فان درجة الحرارة فيها كانت تنخفض في الخريف والشتاء الى عدة درجات مئوية تحت الصفر ٠٠

وأصرابناءعمي علي بوجوب الانتقال الىسنسناتي ، والالتحاق بجامعتها ، والاقامة فيمنزلهم . وبذلك استطيع الانصراف الى الدراسة والعلم دون ان تواجهني مشاكل النفقات .. وقالوا لي بصراحة انهم انما يطلبون مني هذا وفاء لدين كبير لوالدي في أعناقهم ، لانه هو الذي تولى أمور معيشتهم وتعليمهم في القدس ، عندما عضهم اليتم بوفاة والدهم ، المرحوم عمي يوسف ، وهو في مقتبل العمر .. ولم يكن أكبرهم حينئذ قد تجاوز العاشرة من عمره ، وأكبرت فيهم هذه العاطفة ووعدتهم خيرا .

الانتقال الى سنسناتي

عدت الى بوسطن ، واستأنفت الدراسة بعد انتهاء عطلة عيد الميلاد ، ولكن فكرة الانتقال الى سنسناتي ظلت تشغل ذهني ، ومحاسنها بل فوائدها تؤثر على تفكيري وتضغط على شعوري ، فازددت ميلا اليها ، وأخيرا قررت تحقيقها . فبعثت الى أولاد عمي للعمل على تسجيلي في جامعة سنسناتي للفصل الثاني من عامها الدراسي (١٩٢٩-١٩٣٠) وزودتهم بالمعلومات والوثائق اللازمة .

وفي النصف الاول من شباط ١٩٣٠ قدمت امتحان نهاية الفصل الاول من العام الدراسي لكلية الحقوق في جامعة نورث ايسترن ببوسطن ، وقد اجتزت الامتحان بدرجة متوسطة (ولاول مرة في حياتي الدراسية) حيث كنت دائما من المتفوقين البارزين وقد جاءت هذه النتيجة ، على ما أظن ، بسبب صعوبة الدروس - وكلها باللغة الانكليزية - من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب وضعي المالي الذي كان يقلقني ويشغل بالي كثيرا . وانهيت علاقتي ببوسطن وانتقلت الى سنسناتي .

وقررت في سنسناتي العدول عن دراسة الحقوق ، فهذه الدراسة مستطاعة في القدس بعد عودتي اليها في المستقبل ، واخترت الالتحاق بكلية العلوم LIBERAL ARTS في جامعة سنسناتي ، على أن أتخصص في التاريخ والعلوم السياسية . وكان من دواعي سروري ان ادارة جامعة سنسناتي اعتبرت المواضيع التي درستها في بوسطن جزءا من الدراسات المطلوبة للحصول على درجة ب. ع. B. A. ، كما قررت اعفائي من دراسة اللغة الفرنسية ، لان ما كنت قد درسته منها كان أعلى من الدراسة الفرنسية المطلوبة مني في الجامعة.
وبدأت حياتي الدراسية في سنسناتي في الفصل الثاني من العام الجامعي الدراسي ١٩٢٩ - ١٩٣٠ . وقضيت في جامعة سنسناتي ثلاثة أعوام ونصف

العام ، وقد تخرجت منها بدرجة معلم علوم M. A. بالعلوم السياسية . أما كيف استطعت اتمام الدراسة بمدة ٣ أعوام ونصف ، في حين أن الحصول على درجة M. A. يحتاج من خمسة أعوام الى ستة ، فان ذلك يعود الى عدة اعتبارات ، منها اني واصلت الدراسة خلال فصول الجامعة الاضافية (الصيفية) باستمرار ، واني أعفيت ، بسبب تفوقي في عدة مواضيع رئيسية ، من بعض الدراسات المطلوبة . أما رسالتي للدرجة العلمية فكان موضوعها « الاتحاد العربي » وقد قبلت من الاساتذة المعنيين بالاجماع . وقد اقترحت في هذه الرسالة أن يتشكل العالم العربي من الدول الاتية :

١ - المملكة المصرية - وتضم مصر والسودان وليبيا

٢ - المملكة الهاشمية - وتضم فلسطين وشرق الاردن والعراق وسورية .

٣ - المملكة السعودية - وتضم جميع أقطار الجزيرة العربية وأقاليمها .

ويتألف مجلس اتحادي أعلى لهذه الدول الثلاث .

أما لبنان فقد اقترحت له وضعا خاصا في قلب المجموعة العربية . وأما تونس والجزائر والمغرب فلم أتقدم بأي رأي أو اقتراح بشأنها .

(وقد تبدلت أفكاري ، بوجه عام ، بشأن هذه الامور ، في الاعوام التالية من حياتي السياسية) .

ومن دواعي فخري ان نجاحي في جامعة سنسناتي كان عظيما ، وفريدا من نوعه في تاريخ الجامعات الامريكية ، وقد أهلني هذا النجاح العظيم للحصول على مدالية الجامعة الذهبية التي تعطى سنويا لاحسن تلميذ من المتخرجين تتمثل فيه الرجولة الحقة . واني اورد فيما بعد ما قالته الصحف الامريكية والعربية عن هذا النجاح ، الذي لا أزال أفاخر به حتى يومنا هذا .

ومن الحق أن أسجل هنا ، انني لم أواجه صعوبات في دفع رسوم الجامعة وتلافي نفقات المعيشة ، فقد كان أبناء عمي يمدونني ببعض المال ، فضلا عن الاقامة في بيتهم مدة طويلة ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد حصلت على مساعدات مالية من الجامعة لفوزي في المباريات والمسابقات العلمية التي كانت تجريها في كل عام ، ومن ناحية ثالثة فقد أعطيت ، خلال اعوام الدراسة ،

بعض الاعمال التي تدر ربحا ماديا ، مثل العمل في قاعة طعام الاساتذة ، والخدمة فيها ، ومثل القاء محاضرات في بعض صفوف السنة الاولى من الجامعة ، و «تصليح» أوراق الامتحانات النهائية لهذه الصفوف ٠

أما في العام الاخير من حياتي الجامعية ، الذي انصرفت فيه الى اعداد رسالتي وبعض الدراسات المفصلة ، فان أوقاتي لم تسمح لي بالعمل ، في حين كان من المصلحة أن اقيم في الجامعة نفسها لتوفير الوقت ولاكون على مقربة من المكتبات والمراجع ٠ ولما كان هذا الامر يقتضي وجود مبلغ غير قليل من المال ، ونظرا لاني لم أر من الحق تحميل أبناء عمي من المساعدات فوق ما كانوا يقدمونها لي منها ، فقد استعنت بالعائلة ، فهبت المرحومة والدتي وافراد العائلة الى نجدتي فباعوا قطعة أرض للبناء نملكها في «البقعة الفوقا» بالقدس ، وأرسلوا لي كامل ثمنها الذي بلغ ٧٨٥ دولار ٠٠ وقد استطعت أن أوفر من هذا المبلغ ثمن تذكرة العودة الى القدس ٠

ان ما تقدم عرضه هو سجل مختصر لحياتي الدراسية في الجامعة ، التي انتهت ، والحمد لله ، الى أحسن النتائج ٠

ومما هو جدير بالذكر ، في هذه المناسبة ، ان الصحف الامريكية ، والكثيرين من الاساتذة والطلبة في الجامعة ، «استكثروا» أن يحرز «عربي» مثل هذا النجاح ٠٠ فالعرب ، في نظرهم ، بدو رحل ، وقوم متخلفون ٠٠ وغير أهل لطلب العلم ! وقد قالت احدى الصحف الامريكية انه من الغريب جدا أن يستطيع شخص عربي احراز أي نجاح !

١١ ·

على الرغم من انشغالي بطلب العلم ، والصعوبات الكثيرة التي كانت تواجهني ، والعراقيل التي تقف في وجهي ، فاني لم استطع أن أنسى قضية فلسطين وأمتي العربية ، او أن اتخاذل عن القيام ببعض الواجب دفاعا عنها .

المجاهدون السوريون

كان همي الاول ، بعد وصولي الى الولايات المتحدة ، تحقيق العهد الذي قطعناه لسلطان باشا الاطرش ، خلال زيارتنا للمجاهدين السوريين في وادي السرحان ، بأن نعرض اوضاعهم على المهاجرين العرب في أميركا ، فقدمت مذكرة مفصلة بهذا الشأن الى الاستاذ الشيخ عباس ابو شقرا ، السكرتير العام لنوادي الاتحاد السوري في الولايات المتحدة وأمريكا ، التي كانت تعنى بمساعدة الثورة السورية . وأكدت في هذه المذكرة وجوب مضاعفة المساعدات المادية التي ترسل الى سلطان باشا واخوانه ، نظرا للضيق العظيم الذي كانوا يعانون قسوته ومرارته ، وقد وزع الشيخ عباس هذه المذكرة على النوادي المذكورة ، ونشرها في الصحف العربية في المهجر ... وقد علمت منه رحمه الله ، أن المذكرة ساهمت في زيادة التبرعات التي وردت من المهاجرين العرب لاسعاف المجاهدين السوريين .

ونشرت سلسلة مقالات في صحيفتي « البيان » و « مرآة الغرب » اللتين تصدران في نيويورك باللغة العربية عن اوضاع المجاهدين واحوالهم ،وحاجتهم الماسة الى مساعدة المهاجرين ، والقيت عدة محاضرات في جمعيات ونواد عربية في نيويورك وبوسطن وديترويت وغيرها ، عن المجاهدين السوريين ، وكانت هذه الجمعيات والنوادي تتولى نفقات السفر والاقامة .

كان للعرب ، في عهد دراستي ، عدة صحف وطنية عربية تصدر في الولايات المتحدة ، في مقدمتها صحف « البيان » « ومرآة الغرب » و (الهـــدى) و « السمير » في نيويورك ، و « الاستقلال العربي » في واشنطن و (لسان العرب) في ديترويت،فجعلتأكتب المقالات والتعليقات عن قضية فلسطـــين واحداثها وتطوراتها ، في هذه الصحف ، وكانت صحف العرب في امريـــكا اللاتينية تنقلها عن زميلاتها في الولايات المتحدة ونشرت في « البيان »لصاحبها المرحوم سليمان بدور « وهو من بني معروف » سلسلة مقالات اسبوعيـــة عن « رجالات فلسطين » تحدثت فيها عن موسى كاظم الحسيني والحاج أمين الحسيني وعيسى العيسى وراغب النشاشيبي وجمال الحسيني ويعقـــوب فراج و خليل السكاكيني والحاج سعيد الشوا وجبران كوزما وغيرهم ممـــن عرفت من رجالات فلسطين في ذلك العهد ... وكنت صريحا في مقالاتي هذه وتعليقاتي فيها على « دور » كل من هؤلاء الرجال في دعم الحركة الوطنيـــة ومسيرتها ، او في معارضتها ومناهضتها .

النادي الدولي

وتشكل في جامعة سنسناتي « النادي الدولي » من طلبة الجامعة الاجانب ومن يعطف على البلاد الشرقية من الطلبة الامريكيين ويؤيدون قضاياها .وكان بين طلبة الجامعة « الاجانب » عرب وهنود وفيليبينيون ، وأتراك ، وقبارصة، وصينيون ، وصوماليون ، والمانيون ، وايطاليون ، واسبانيون ، وانكليـــز وغيرهم . وقد رفض الطلاب الانكليز الانضمام الى هذا النادي .

وانتخبت رئيسا للنادي لدورتين ، وانتخب هندي لدورة واحدة ، والمانـــي لدورة اخرى . وقد استطعنا الاستفادة من هذا النادي ، وما كان يقيمـــه من اجتماعات ومحاضرات وحفلات ساهرة للدعاية لقضية فلسطين وسائـــر القضايا العربية .

الطلبة العرب

وتشكلت في الجامعة لجنة من الطلبة العرب ، ضمت هيئتها الاداريـــة الزملاء بطرس دغمان (رام الله) وتوفيق منسي « حيفا » ومسوح خبـــاز

« حمص » وبولس عبد الله (رام الله) ووليم غراب « حمص » وهذا العاجز .

وتولت هذه اللجنة مهمة الدعاية لقضية فلسطين في الجامعة وسائر الاوساط الامريكية في ولاية اوهايو . وكانت تعقد الاجتماعات ، وتلقى المحاضرات ، وتجري مناقشات « علنية » مع الطلبة الامريكيين واليهود ، وبعض زعمـــاء الطائفة اليهودية في ولاية اوهايو ، كما تولت هذه اللجنة النشر في الصحـــف (ما استطاعت الى ذلك سبيلا لوقوع هذه الصحف تحت السيطرة اليهودية) وطبع المذكرات وتوزيعها .

واجرينا اتصالات مع الطلبة العرب في سائر الجامعات الامريكية ،وتوفقنا الى تشكيل لجان مماثلة للجنة جامعة سنسناتي في نيويورك وبوسطـــن وديترويت وواشنطن وشيكاغو . فقامت هذه اللجان بأعمال الدعاية والنشر على نطاق واسع ، وأذكر أن الزميلين شفيق منصور (شيكاغو) ووديـــع ترزي (هافر فورد) كانا من انشط العاملين في هذا المضمار .

وكنا نؤلف من هذه اللجان وفودا تتجول في مختلف الولايات المتحـــدة الامريكية ـــ خلال عطلة الاعياد ـــ للدعاية لقضية فلسطين عن طريـــق المحاضرات والاجتماعات والنشر وفي بعض الاحيان القليلة عن طريـــق الاذاعة !

وفي الوقت ذاته اقمنا نحن معشر الطلبة علاقات متينة مع الجاليات العربية في المهجر (لا سيما الجاليات الفلسطينية) فساهمت هذه الجاليات في اعمال الدعاية ، وكانت تجمع الاموال وترسلها مباشرة الى القدس وغيرها مـــن الحواضر العربية لمساعدة الثورات والحركات الوطنية التي كانت تقوم فـــي فلسطين وسورية ولبنان .

وبعثت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني السابع في ١٩٣٠ وفدا الـــى الولايات المتحدة لجمع التبرعات للحركة الوطنية الفلسطينية ومنكوبي ثـــورة ١٩٢٩ (المعروفة بثورة البراق)وكان الوفد مؤلفا من الامير عادل ارســـلان (رئيسا) وعيسى البندك (عضوا) ، وقام الامير عادل بجهود طيبة مشكورة.

ووضعنا نحن الطلبة العرب انفسنا ولجاننا تحت تصرف الوفد ، وقدمنا له كل مساعدة وعون مستطاع .

واعتقد اننا معشر الطلبة العرب قمنا بواجب الدفاع عن قضية فلسطين خاصة والقضايا العربية عامة ، والدعاية لها . وقد تلقينا رسائل شكر وتقدير (لا تزال محفوظة لدى) من كل من السادة : هاشم الاتاسي وشكري القوتلي والحاج أمين الحسيني وفارس الخوري ورياض الصلح .

فرسان الوحدة العربية

واجتمعنا نحن الطلبة العرب في جامعات ولايات اوهايو وانديانا ووست فرجينيا وكنتاكي ــ وكان مجموع عددنا في هذه الجامعات ٧٦ طالبا ــ اجتمعنا في كانون الثاني ١٩٣٣ في مؤتمر بمدينة كليفلند (ولاية اوهايو) لبحث واجبات الطلبة العرب في المهجر الامريكي نحو الوطن العربي وقضاياه ، واتفقنا على أن واجبنا الاول هو الدعاية لهذه القضايا ، وخاصة قضية فلسطين ،والدفاع عن فكرة (الوحدة العربية) التي كان قد بدأ الحديث عنها في الاوساط العربية الرسمية في الوطن ، وطرح هذه الفكرة وما لها من مزايا وفوائد للعرب خاصة والشرق الاوسط عامة ، على الرأي العام الامريكي الذي كان اليهود قد بدأوا حملة دعائية جديدة لتسميم افكار الامريكيين وتضليلهم واقناعهم بأن حركة (الوحدة العربية) هي حركة عنصرية ودينية ، وانها تستهدف مقاومة الديانتين اليهودية والمسيحية .

واتخذ المؤتمر عدة قرارات ، اذكر منها قرارين :

الاول : تشكيل لجنة خاصة للدعاية في كل جامعة امريكية فيها طلبة من العرب ، على أن يشترك فيها ايضا ممثلون عن الطلبة الاجانب الذين يعطفون على القضية الفلسطينية ويؤيدون مواقف العرب ومطالبهم . (ولم يمض وقت طويل حتى تم تشكيل ١٧ لجنة في ١٧ جامعة امريكية) .

الثاني : تشكيل جمعيات من الطلبة العرب في الجامعات الامريكية للعمل ، فضلا عن خدمة القضايا العربية ، على نشر معالم تاريخ العرب ، وفروسيتهم في القرون الغابرة ، واطلاع الامريكيين على أبرز ما في تاريخ العرب من منجزات سياسية وعسكرية وعلمية وفلسطينية الخ ... وتقرر تسمية هذه الجمعيات باسم « فرسان الوحدة العربية » . وبالفعل تشكلت ١١ جمعية تحت هذا الاسم وقامت بواجباتها على الوجه المستطاع .

٥١٢

كانت احداث الوطن وما كان يطرأ على قضية فلسطين وحركتها الوطنية من تطورات خطيرة تشغل افكارنا وتثير اهتمامنا ، ونحن في ديار الغربة ،اكثر من اي موضوع اخر . وكنت اطالع بعض الصحف اليومية الامريكية باهتمام زائد للاطلاع على ما قد يكون فيها من انباء او مقالات او تعليقات عن فلسطين، علما بأن الصحف الامريكية ما انفكت تهمل ــ تعمدا وتقصدا ــ نشر اي شيء عن العرب وقضيتهم ــ الا في حالات الضرورة الصحفية القصوى ــ في حين كانت تتخم صفحاتها بأنباء اليهود ومسيرتهم نحو بلوغ اهدافهم المعروفة .

المجلسيون والمعارضون

أما الصحف العربية التي كانت تردني من الوطن مرتين في الاسبوع بالبريد العادي (حيث لم يكن البريد الجوي موجودا بعد) فقد كنت اطالع بنهم شديد اخبارها ومقالاتها وتعليقاتها ، وبصورة خاصة صحيفتي (الجامعة العربية) و (فلسطين) . وكنت لا ازال اعتبر صحيفة « فلسطين » من الصحف الوطنية الصادقة ، ولذلك لم يكن من السهل علي أن ابدل نظرتي هذه اليها ، عندما كنت الاحظه باستمرار ــ لا سيما بعد ١٩٣١ ــ من اتجاه جديد لهذه الصحيفة في تأييد المعارضة والتعرض للحركة الوطنية والتحامل على الحاج أمين الحسيني « والمجلسيين » ، وهي كلمة كان يطلقها الانكليز واليهود والمعارضون على الوطنيين وجماهيرهم التي كانت تلتف حول الحاج أمين وتؤيده بقوة وتصميم .. وقد اشتق الاعداء هذا النعت يطلقونه على الوطنيين من مواقف عناصر المعارضة من (المجلس الاسلامي الاعلى) ورئيسه الحاج أمين .

وكنت استغرب جدا تسمية الوطنيين « بالمجلسيين » ، اولا لانهم لم يؤيدوا المجلس الاسلامي ورئيسه الا لاعتبارات وطنية صرفة ، وثانيا لان جمهور

المسيحيين العرب كانوا يؤيدون الحاج امين كزعيم وطني صادق ، وليس كرئيس لمجلس طائفي (المجلس الاسلامي الاعلى) لا علاقة لهم به وبشؤونه «الطائفية» البتة . ومن ناحية اخرى كنت استغرب تسمية خصوم الحركة الوطنية « بالمعارضين » ... وقد كان المنطق والواقع يحتمان تسمية خصوم الحركة « بالموالين » للحكم البريطاني وسياسته اليهودية ، وتسمية المجلسيين « بالمعارضين » لهذا الحكم وسياسته . ولكن العكس هو الذي حدث .. ولعل هذه التسمية المغرضة كانت احدى نتائج خطة التضليل والمراوغة التي ما انفك الاعداء ينتهجونها في فلسطين .

الحاج امين الحسيني

على اثر نشوب ثورة ١٩٢٩ (المعروفة بثورة البراق) التي تحدثت عنها سابقا ، انطلق الانكليز واليهود والمعارضون على السواء يشنون الحملات الشعواء على الحركة الوطنية ، ويركزون شرورها بصورة خاصة على الحاج امين الحسيني ، حيث راحوا يسندون اليه اتهامات وافتراءات ما انزل الله بها من سلطان . وتولت الصحف البريطانية والامريكية ، فضلا عن الكثيرين من رجال السياسة والدين في بريطانيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول الاجنبية ، لا ترديد الحملات الانف ذكرها فحسب ، بل ايضا ابتكار دعايات مغرضة وحملات اخرى لتشويه سمعة سماحته . وسعى الاعداء ودعاتهم الى تحميل الحاج امين مسئولية الثورة واشعال نارها ، فنعتوه بالمتعطش لسفك الدماء ، ومثير الفتن والاضطرابات، واتهموه بالتعصب الديني والعنصرية واللاسامية ... وكثيرا ما حاولنا نحن الطلبة العرب في الولايات المتحدة الرد على هذه الدعايات في الصحف الامريكية ، ولكن دون جدوى ، لانها كانت واقعة كلها (ولعلها لا تزال كذلك في يومنا هذا) تحت سيطرة اليهود واجهزة اعلامهم .

وكان يفرحنا — في جو هذه الدعايات والحملات — أمر واحد ، هو أن العرب في المهجر كانوا يعرضون عنها ويسفهون اقوال اصحابها ويحظرون الناس من انطلاء احابيلها عليهم ، فيما كانوا يزدادون احتراما للحاج امين ومحبة له وتعلقا به وتأييدا لمواقفه .

وواصل الاعداء حملاتهم على المفتي ، وقد اختلقوا ، ابتداء من عام ١٩٣١ تهمة جديدة وهي تهمة « النازية » ... يضيفونها الى تهمة سابقة ما انفكوا يطلقونها ضده وهي « الفاشية » ، فقد اخذوا يزعمون انه يتعاون مع حزب النازي وزعيمه هتلر (ولم يكن هتلر قد تولى الحكم في المانيا بعد !) كما كان يتعاون مع موسوليني وحزبه ! وكان الرأي العام الغربي قد اخذ يتجه — بعد عام ١٩٣٠ — بفضل الدعاية اليهودية والاستعمارية ، ضد النازيين الالمان والفاشيين الطليان ... فوجدت اتهامات الاعداء للمفتي بالنازية ، والفاشية ، ردود فعل ايجابية لصالح اليهود في الاوساط الامريكية والاوروبية ، بما فيها الاوساط الروسية .

لجنة التحقيق

أعلنت الحكومة البريطانية ، بعد انتهاء ثورة ١٩٢٩ ، تشكيل لجنة بريطانية برلمانية للتحقيق في قضية فلسطين وشؤونها واسباب الاضطرابات التي نشبت فيها . وكان الاعداء يحرصون دائما على استعمال اسم «اضطراب» بدلا من اسم (ثورة) ، لان التسمية الاولى تثير في العادة شعور الرأي العام العالمي ضد الذين يسببون اضطرابات .. في حين أن كلمة « ثورة » تكسب ، في العادة ، المتهمين باثارتها ، تأييد الكثيرين من احرار العالم وتثير اهتمام الناس وتحفزهم الى التفتيش عن اسبابها ...

أما لجنة التحقيق « البرلمانية » الانف ذكرها فقد تشكلت من مندوبين عن الاحزاب البريطانية الثلاثة التي لها ممثلون في البرلمان (المحافظون والعمال والاحرار) . واسندت رئاسة اللجنة الى سير والتر شو ، وهو قاضي قضاة سابق في مستعمرة ملاغا . واعتبر الفلسطينيون أن تشكيل هذه اللجنة البرلمانية دليل على اهتمام جدي من جانب الحكومة البريطانية لتسوية الاوضاع في فلسطين وايجاد حل معقول لقضيتها . واعتقدوا أن المثول أمامها والتعاون معها يتيح لهم مجالا دوليا وسياسيا عاما لعرض وجهة نظرهم والدعاية لقضيتهم ، واملوا بأن تكون هذه اللجنة نزيهة ومحايدة وحرة في تحقيقاتها ودراساتها وتواصيها ، فترى الحقيقة وتوصي بالعدالة والحق . لذلك انطلقوا يعدون العدة ، وفقا لما كانت توفره لهم ظروفهم من امكانات ، للدفاع عن قضيتهم أمام اللجنة وعرض مطالبهم عليها ، فشكلت اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني (قيادة الحركة الوطنية) عدة لجان من المحامين والخبراء

والمطلعين لاعداد الدراسات والمذكرات عن قضية فلسطين وحقوق اهلها ، واختارت عددا من المحامين ورجال السياسة والاقتصاد والعلم والخبرة للادلاء ببيانات أمام اللجنة ومناقشتها بشأن وجهة نظر الشعب الفلسطيني ومطالبه . وكان من الذين اختيروا للقيام بهذه المهام السادة المطران غريغوريوس حجار وعوني عبد الهادي وجمال الحسيني وسليم فرح وعزت دروزه . ومن ناحية اخرى قام المجلس الاسلامي الاعلى بدوره باعداد التقارير والدراسات المتعددة بشأن قضية فلسطين والاماكن المقدسة وحقوق المسلمين فيها ، وتقرر أن يتولى عرضها على اللجنة باسم الشعب الفلسطيني سماحة الحاج أمين الحسيني .

فضلا عن هذا فقد تعاقدت اللجنة التنفيذية مع محام بريطاني مشهور (المستر ستوكر) للدفاع عن العرب امام اللجنة واختارت لمساعدته المحامي البريطاني في القاهرة (المستر سيلي) وشريكه في مكتب المحاماه ، المحامي الفلسطيني المقيم في القاهرة السيد وهبة العيسى .

أما اليهود فانهم علقوا آمالا كبيرة على هذه اللجنة ، يدفعهم تغلغلهم في الاحزاب والهيئات البريطانية ونفوذهم المعروف في الاوساط السياسية البريطانية والدولية ، الى الاعتقاد بأنها ستقف الى جانبهم . واظهرت الجمعية الصهيونية العالمية (الوكالة اليهودية فيما بعد) اهتماما كبيرا في الاستعداد لمقابلة اللجنة وللدفاع عن وجهة نظر اليهود ومطالبهم أمامها ، فشكلت سبعة لجان فنية ، ضمت عضويتها خبراء من اليهود والبريطانيين والامريكيين ، لاعداد الدراسات والتحقيقات والتقارير اللازمة ، واختارت بعض كبار اعضائها للمثول أمام اللجنة بالنيابة عن اليهود . وفي الوقت نفسه تعاقدت الجمعية الصهيونية مع عدد من كبار المحامين البريطانيين ، يراسهم السير بويد ماريمان ، ويساعدهم بعض كبار المحامين اليهود انفسهم ، لتولي مهمة الدفاع عن اليهود ومطالبهم ...

وعلم حينئذ أن اليهود خصصوا مبلغ نصف مليون جنيه استرليني لانفاقها على اجور المحامين البريطانيين ، واستضافة مندوبين عن كبريات الصحف ودور النشر الاجنبية ، وبعض الاختصاصيين الاجانب في اعمال الدعاية .

وقامت لجنة التحقيق بمهمتها في جو مشحون بالحماسة والاهتمام، واجتذبت لنفسها عناية الرأي العام العالمي ، لا سيما البريطاني ، بشكل ملموس .

وكانت اللجنة تعقد جلساتها العلنية (فقد عقدت بضعة اجتماعات سرية ، حضرها ممثلون عن حكومة الانتداب) في دائرة العدلية في العمارة الروسية بالقدس المعروفة (بالمسكوبية) وكانت ساحة هذه العمارة تعج دائما بقوات بريطانية كبيرة مدججة بالسلاح .. تجنبا ، كما زعمت السلطات البريطانية ، لقيام اصطدامات بين العرب واليهود .. أما الحقيقة فان حشد هذه القوات كان الغرض منه ارهاب العرب ..

ودارت مناقشات اللجنة بصورة خاصة حول مواضيع (١) الحكم الذاتي و (٢) الهجرة و « ٣ » الاراضي و « ٤ » اوضاع فلسطين الاقتصادية . واستمعت اللجنة الى افادات العرب ومحاميهم ، وافادات موظفي حكومة الانتداب وافادات اليهود ومحاميهم . وعند انتهائها من مهمة التحقيق ، انتقلت اللجنة الى لندن حيث وضعت تقريرها واصدرته ، كما سيأتي ذكر ذلك في سياق الحديث .

اتهامات اليهود

وركز اليهود جهودهم أمام لجنة التحقيق على اتهام العرب عامة ، والحاج امين الحسيني خاصة ، باثارة الاضطرابات والفتن ، وزوروا سلسلة من الوثائق والبيانات لاثبات الاتهامات التي اسندوها الى المفتي والزعماء العرب وقدموها الى لجنة التحقيق . وكان مما قدموه اليها صورة عن رسالة زعم اليهود أن المفتي وجهها الى زعماء العشائر والقرى « للحضور مع رجالهم » الى القدس في ٢٣ آب ١٩٢٩ للقيام بهجوم على اليهود ! وذكر اليهود اسماء بعض العرب الذين ادعوا أن المفتي ارسل اليهم الكتب المشار اليها ، فارسلت لجنة التحقيق تستدعيهم للمثول امامها ، فجاءوا وعلى راسهم الشيخ فريح ابو مدين « شيخ مشايخ قضاء بئر السبع » وكان معروفا بصداقته للانكليز وعدم اندفاعه في الحركة الوطنية وتأييدها ، وعلق اليهود آمالا كبيرة على هؤلاء « الشهود » .. فلما مثلوا أمام اللجنة كذب كبيرهم (فريح أبو مدين) الادعاء اليهودي ، وقال انه لم يتلق أي كتاب او اية دعوة من المفتي . واكد انه لو كان قد تلقى مثل هذه الدعوة لما احجم عن تلبيتها . وادلى سائر الشهود ببيانات مماثلة فظهر للجنة التحقيق كذب اليهود وباطل ادعاءاتهم .

وحدث أن أحد اصدقاء اليهود (موسى هديب) شهد زورا وبهتانا أمام اللجنة بأن المفتي ارسل اليه كتابا للحضور الى القدس مع رجاله في اليوم

المحدد للهجوم على اليهود .. وانه رفض هذه الدعوة ! ولكن التحقيق الذي تعرض له أمام اللجنة اثبت كذبه ومراوغته . وما كاد هذا الرجل يغادر قاعة اللجنة ، تحت حراسة قوية من الجنود الانكليز لحمايته ، حتى فتك به الشعب الحانق وقتله !

موقف مشرف

كان من المقرر أن يدلي سماحة الحاج أمين بافاداته (بيانه) أمام لجنة التحقيق البرلمانية ، وقد اهتم الرأي العام اهتماما خاصا بما سيقوله المفتي، وباجوبته على الاسئلة التي ستوجهها اليه لجنة التحقيق ، لا سيما أن اليهود ما انفكوا ، منذ حضورها وبدء جلساتها ، يحاولون اقناعها بأن المفتي مسئول عن اشعال نار الاضطرابات ، بغية استصدار قرار منها بادانته .

وخصصت اللجنة جلسة لها للاستماع الى بيان المفتي ومناقشته ، وبعثت اليه دعوة (ورقة حضور) لهذه الجلسة . وفي اليوم المحدد لها ، وقد احتشدت جماهير غفيرة في ساحة المسكوبية ، وامتلأت قاعة اجتماعات اللجنة على رحبها بكبار العرب والانكليز واليهود ومراسلي الصحف الاجنبية ، ولم يحضر الحاج أمين ، مما اثار استياء اللجنة وغضب رئيسها .. وانتهز اليهود مناسبة عدم تلبية المفتي لدعوة اللجنة لتشديد حملاتهم عليه ، وراحوا يفسرون سبب عدم حضوره بأنه الخشية من ادانته !

واتصل حاكم القدس (البريطاني) بسماحة المفتي يستفسر منه عن سبب عدم حضوره ، فقال له المفتي : انك تعلم أن لرؤساء الدين حصانة وامتيازات معروفة ، منها عدم جواز مثولهم أمام المحاكم ، وان العادة جرت أن تنتقل المحكمة الى مراكز رؤساء الدين في حالة الحاجة الى مناقشتهم او الاستماع الى بياناتهم . فاذا شاءت اللجنة أن تستمع الى شهادتي ، فما عليها الا أن تحضر الى مكتبي في المجلس الاسلامي الاعلى ! فاعتذر الحاكم ، ومن بعده اللجنة ، عن خطأهم ، وقد اسموه « هفوة » ، وتحدد موعد آخر تجتمع فيه اللجنة بسماحته في قاعة المجلس الاسلامي .

الهزيمة وقوة الحجة

وفي اليوم المحدد حضر رئيس اللجنة واعضاؤها الى قاعة المجلس الاسلامي الاعلى ، كما حضر ممثلو اليهود ومحاموهم ، وممثلو حكومة الانتداب ،وحضر هذا الاجتماع جمهور كبير من الناس وعدد ضخم من مراسلي الصحف ووكالات الانباء الاجنبية .

وبعد أن استمعت اللجنة الى بيان ممتاز القاه سماحة المفتي ، فتح باب المناقشة والتحقيق معه ، فأجاب على استيضاحات رئيس اللجنة واعضائها، بلباقة وقوة حجة ، تركت أحسن الاثر في نفوسهم . ثم تولى سير بويد ماريمان (محامي اليهود الدولي) مناقشة المفتي ، فدارت بينهما المناقشة التالية :

س — هل صحيح أنه صدر عليك حكم بالسجن مع الاشغال الشاقة في عام ١٩٢٠ ؟

ج — نعم

س — ولماذا صدر هذا الحكم ؟

ج — لانه قبل نحو ١٩٠٠ عام صدر حكم من الحاكم الروماني في القدس ، في قاعة لا تبعد أكثر من ٢٠٠ متر عن هذه القاعة ، على السيد المسيح ، لان اليهود تقدموا بشكوى ضده ؟

فذهل بويد ماريمان لهذا الجواب ... وسكت ... ولم يوجه اي سؤال اخر الى المفتي ... ثم انتهت الجلسة ...

(كان السيد المسيح قد حوكم في دار المحافظة الرومانية بالقدس ، وهي اليوم دار « روضة المعارف » التي لا تبعد أكثر من ٢٠٠ متر من دار المجلس الاسلامي الاعلى) .

تقرير لجنة التحقيق

بعد انتهاء مهمتها وضعت لجنة التحقيق تقريرها ورفعته الى الحكومة البريطانية وقد اعترفت فيه ، بأن الهجرة تلحق بالعرب اضرارا ، لا سيما في الناحية الاقتصادية وأن الضغوط التي يتعرضون لها ، والانظمة والقوانين

السارية المفعول ، تهدد ملكيتهم للاراضي ، وتنذر بتسربها الى اليهود شيئـا بعد شيء ، وانه ليس في البلاد تشريعات لحماية المزارعين وحقوقهم . كذلك اعترفت اللجنة في تقريرها بأن حقوق العرب في الادارة والحكم مغموطة ، وانهم لا يشاركون في الحكم الذي يفتقر ايضا الى الاجهزة الدستوريـة والديمقراطية . أما اسباب الاضطرابات فتعود ، في نظر اللجنة كما جاء في تقريرها ، فضلا عن الامور الانف ذكرها ، الى تخوف العرب على مستقبلهم ، وخشيتهم من سيطرة اليهود على فلسطين ، والسياسة اليهودية المتطرفـة وبرامجها ومخططاتها . أما المفتي وزعماء الحركة الوطنية فان اللجنة لم تجد ما يبرر اتهامهم باشعال نار الثورة . وفيما يتعلق بالنزاع او الخلاف حـول ملكية البراق الشريف ، فان اللجنة ، ابدت اعترافا ضمنيا بحقوق المسلمين وملكيتهم له ، ولكنها اقترحت تشكيل لجنة دولية — عن طريق عصبة الامم — لدراسة هذا الموضوع والبت فيه .

وكانت الحكومة البريطانية في ذلك العهد من حزب العمال (يؤيده حـزب الاحرار) برئاسة المستر رامزي ماكدونالد زعيم الحزب ، وكان اللورد باسفيلد يشغل فيها منصب وزير المستعمرات . (وكان اسمه قبل اعطائه لقب اللوردية هو المستر سدني ويب ، وهو معروف بأنه من كبار رجال الثقافة والعلـم في بريطانيا ومن ابرز قادة حزب العمال ، وكان الكثيرون يعتبرونه فيلسـوف الحزب ، والمعروف عنه ايضا انه كان من ابرز مؤسسي الحركة (الفابية) في بريطانيا واوربا) .

وفد فلسطيني ...

على اثر صدور تقرير لجنة التحقيق الانف ذكره ، ابدت الحكومة البريطانية رغبة في استقبال وفد عربي فلسطيني في لندن . للتباحث معه بشأن قضية فلسطين ومفاوضته للوصول الى حل نهائي لها .

وكانت الحكومة البريطانية تتوقع ان يختلف العرب حول هذا الموضوع ، وان تنشب خلافات حزبية ومنازعات محلية بشأن الوفد وانتقاء اعضائه ، ومسألة تمثيل الشعب الفلسطيني . كانت الحكومة البريطانية تتوقع حدوث مثل هذه الامور ، فلا يذهب وفد فلسطيني الى لندن ، وتسحب بريطانيا دعوتها حينئذ وتواصل تنفيذ سياستها .

ووافق الزعماء العرب على ارسال وفد فلسطيني الى لندن ، على امل ان يوفق في اقناع بريطانيا بتغيير سياستها ، وقد شجعهم على هذا الامل تقرير لجنة التحقيق وما تضمنه من توصيات ومقترحات . وعملوا على صيانة وحدة الصف الفلسطيني وتعزيزها فانتدبوا وفدا اعتبره الشعب الفلسطيني ممثـلا له احسن تمثيل . وجاء تشكيل الوفد يخيب أمل بريطانيا في قيام اختلافـات ومنازعات بين الفلسطينيين ...

وتألف هذا الوفد برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني وعضوية السادة : الحاج أمين الحسيني ، راغب النشاشيبي ، الفريد روك ، عوني عبد الهادي، جمال الحسيني .

واختار الوفد عددا من الشبان لمرافقته الى لندن ، كمستشارين لـه وسكرتيرين ، وكان بين هؤلاء عز الدين الشوا ومصطفى كامل الحسيني .

وقضى الوفد بضعة اشهر في بريطانيا اجريت خلالها مباحثات ومفاوضات بين الجانبين العربي والبريطاني . وانتدبت الحكومة البريطانية رئيسها رامزي ماكدونالد ووزير المستعمرات اللورد باسفيلد لمفاوضة الوفد نيابة عنها . أما الوفد فقد اتفق اعضاؤه بالاجماع على أن يتولى المفاوضة نيابة عن الوفد الحاج أمين وان يكون الناطق الرسمي باسمه . وانتدب الوفد عضوه جمال الحسيني لاعمال الترجمة ، في حين انتدبت الوزارة البريطانية المستر بارون ، وكان مديرا للجمارك في فلسطين ، للقيام بهذه المهمة ايضا . وعلى الرغم من ظهور حق العرب وعدالة مطالبهم ، والبراعة التي أظهرها الوفد والناطق باسمه في المفاوضات والمباحثات والمناقشات ، فانها لم تسفر عن اية نتيجة ، فعادالوفد الى فلسطين .

وكانت الجلسة الاخيرة للمفاوضات حامية صاخبة ، سادها جو تام من القلق والتجهم . وكان وزير المستعمرات في حالة عصبية ... وفيماكان المفتي يتحدث ويناقش . كان الوزير يسجل على ورقة أمامه ارقاماوبدا عليه انه لم يكن يصغي لما يقوله المفتي . فتوقف المفتي عن الكلام ... وطلب من جمال أن أن يسأل الوزير عما اذاكانت الارقام التي يسجلها هي اعداد القوات البريطانية التي يعتزم ارسالها الى فلسطين لاخضاع العرب ؟ فكان من رأي جمال أن لا يطرح هذا السؤال ، لكن المترجم البريطاني تطوع فترجمه الى الانكليزيـة فانتفض اللورد باسفيلد واعتذر للمفتي عما بدا منه من عدم اصغاء له ،واكد

انه كان يصغي بامعان وأن من عادته دائما أن (يخربش) على الورق ويكتب ارقاما ... دون أن يعني ذلك انه لا يصغي ، فقبل المفتي هذا الاعتذار ، وواصل حديثه .

ولما انتهت الجلسة وهم الوفد الفلسطيني بالانصراف وقف رامزي ماكدونالد وكان يحضر الجلسة ، ليودع الوفد ، وتقدم من المفتي وصافحه وقال له: آمل أن تبذل كل جهد تستطيعه لمنع تكرر الاضطرابات في فلسطين ، واني اعتبرك مسؤولا عن كل نقطة دماء تسفك . فرد عليه المفتي قائلا : ان واجبنا هــو الدفاع عن وطننا ، ولم نكن في يوم من الايام من المعتدين .. بل ضحايا للاجرام والارهاب والعدوان ... وأؤكد لك يا مستر ماكدونالد أن العرب والمسلمين يعتبرونك انت المسؤول عن كل نقطة دم تسفك في فلسطين .

وهنا ادعى ماكدونالد بانه يمزح .. فرد عليه المفتي قائلا بأن المزاح لا يكون على حساب الدماء ... ولا على حساب وطن وشعب وسلامته !
ونشرت الصحف البريطانية نبأ الحديث ... فانحت باللائمة على رئيس الوزراء ووزير المستعمرات ...

وعلى الرغم مما هو ثابت من ضلوع هذه الحكومة (بل جميع الحكومات البريطانية ، من عمالية ومحافظة) مع الحركة اليهودية ، فانها رحبت بقرار لجنة التحقيق وما تضمنه من توصيات وآراء ، واعربت عن استعدادها للنظر فيها واتخاذ ما تستطيعه من التدابير والاجراءات لتحقيقها . أما اليهــود فانهم ثاروا على تقرير لجنة التحقيق ، لانه لم يأت حسب ما كانوا يشتهون ، واتهموا اللجنة بالتحيز للعرب ، ومحاباتها لهم ضد المصلحة اليهودية ، واكدوا استعدادهم لمقاومة توصياتها ومقترحاتها . فاضطرت الحكومة البريطانيــة بسبب الموقف اليهودي الى تأجيل وضع سياسة جديدة لفلسطين ، تبنى على اساس توصيات لجنة التحقيق المذكورة ، وبررت موقفها هذا (بزعمها أن الاوضاع في فلسطين تحتاج الى مزيد من الدرس والتحقيق) . فانتدبت خبيرا عالميا بشؤون الاراضي والهجرة (هو سير جون هوب سمبسون البريطاني) للقيام بهذا التحقيق . فرفع الى الحكومة تقريرا جاء مؤيدا لتوصيات لجنــة التحقيق بوجه عام . وتضمن ايضا دراسات وملاحظات خطيرة تبين الاضرار والاخطار التي تلحق بالعرب سياسيا واقتصاديا ، من جراء الهجرة اليهودية، ومساعي اليهود لاستملاك اراضي فلسطين ، وعدم حماية حقوق المزارعــين

العرب . ولم تكتف الحكومة البريطانية بتقرير هذا الخبير العالمي ،فانتدبت خبيرا عالميا آخر (هو المستر فرانش البريطاني) للقيام بالتحقيق والدراسة، فقدم تقريرا جاء مماثلا لتقرير سير جون هوب سمبسون وشبيها به . ولكــن الحكومة البريطانية ترددت في اعتماد التقريرين الانفي الذكر .. ارضاء لليهود وتحت ضغط احتجاجاتهم ، فشكلت لجنة فنية جديدة ، تألفت من موظفــين كبيرين في حكومة الانتداب (جونسون وكروسبي) ، فجاء تقريرها منسجما مع تقريري سمبسون وفرانش .

أما العرب فانهم ابدوا سرورهم بتقرير لجنة التحقيق البريطانية بوجه عام، ولكنهم اعترضوا على بعض ما جاء فيه مما كان يعتبر مجافيا لحقوقهم ومصالحهم فلما ابدت الحكومة عزمها على اجراء المزيد من التحقيق الفني ، فان العرب لم يعترضوا على هذا الاتجاه ، ليقينهم بأن اي تحقيق نزيه سيثبت صحـــة شكاواهم وسلامة موقفهم .

الكتاب الابيض

وأخيرا اصدرت الحكومة البريطانية في تشرين الاول ١٩٣٠ « كتابا ابيض » تضمن سياسة جديدة لفلسطين ، بنتها بوجه عام ، على التوصيات والمقترحات التي اشتملت عليها تقارير لجنة التحقيق البرلمانية واللجان الفنية التي عينــت بعدها . (وعرف هذا الكتاب باسم كتاب – باسفيلد – نسبة لوزيـــر المستعمرات اللورد باسفيلد) . ونص الكتاب الابيض – ضمن ما نص عليــه من تدابير واجراءات جديدة تتخذ في فلسطين – على ما يلي :

١ – تنمية مؤسسات الحكم الذاتي في فلسطين .

٢ – تشكيل مجلس تشريعي لفلسطين ، يتألف من ٩ عرب (٨ مسلمون ومسيحي واحد) وثلاثة يهود ، ينتخبون من قبل السكان ، ومن عشرة رؤساء دوائر يعينهم المندوب السامي .

٣ – اخضاع الهجرة اليهودية وجداول هجرة الذين يسمح لهم بدخــول فلسطين ، لمبدأ قوة استيعاب البلاد الاقتصادي .

٤ – سن تشريعات وانظمة لصيانة حقوق المزارعين ومساعدتهم .

وأشار الكتاب الابيض الى مسئولية الحكومة البريطانية في فلسطــين ،

فوصفها بأنها مسئولية مزدوجة ، نحو كل من العرب واليهود ، وان الحكومة البريطانية لا تعتزم اخضاع اي فريق منهما الى الفريق الاخر ، وانها تعتقد أنه لا يوجد أي تناقض بين مسئوليتها نحو العرب ومسئوليتها نحو اليهود !

وأعلن وزير المستعمرات أمام كل من مجلسي العموم (مجلس النواب) واللوردات البريطانيين ، ان الحكومة البريطانية تتمسك بهذا الكتاب الابيض وانها مصممة على وضعه موضع التنفيذ .

موقف العرب

اعلنت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية (اللجنة التنفيذية العربية) ، في تقرير رسمي اصدرته ، ان الكتاب الابيض الانف ذكره لا يحقق مطالب العرب ولا يبدل تبديلا جذريا السياسة الخاطئة الضارة التي ما انفكت بريطانيا تتبعها في فلسطين . وابدى الزعماء العرب المسؤولون عدة تحفظات على هذا الكتاب الابيض ورفعوا مذكرة الى الحكومة البريطانية يقترحون فيها ادخال بعض تعديلات على السياسة التي اشتمل عليها .

ولم يعلن العرب رفضهم للكتاب الابيض المذكور ، وقرروا تجربة التعاون مع الحكومة البريطانية على اساسه ، آملين أن تبادر الحكومة الى ادخال التعديلات المطلوبة عليه . فقدكان العرب وزعماؤهم يتهمون « بالسلبية والتطرف والتعنت الخ ... » كما هو معروف ... فارادوا — على ما يبدو — أن يتبعوا هذه المرة سياسة « ايجابية » كما يصفها بعضهم ، فوافقوا على السياسة الجديدة من حيث المبدأ ، واعربوا عن استعدادهم للتعاون مع الحكومة البريطانية علىاساسها، على الرغم من أن هذه السياسة بنيت على تصريح بلفور وصك الانتداب .

(سألت لما عدت الى فلسطين ، سماحة المفتي وبعض اقطاب الحركة الوطنية الفلسطينية عن الاسباب التي حملتهم على اتخاذ هذا الموقف من السياسة البريطانية « الجديدة » .. ففهمت من اجوبتهم وملاحظاتهم انهم كانوا قانعين بأن الحكومة البريطانية لن تضع هذه السياسة موضع التنفيذ بسبب اعتراض اليهود عليها ومقاومتهم لها .. وانهم لم يروا بأسا من الاقدام على هذه التجربة .. لعل نتائجها تقنع الذين كانوا يعترضون على مواقف الزعامة الفلسطينية ... بأن جميع هذه المواقف كانت سليمة ووطنية صادقة) .

موقف اليهود

احتج اليهود بشدة على الكتاب الابيض وطالبوا بالغائه والعدول عن سياسته ، ورفضوا بصورة خاصة اخضاع الهجرة اليهودية لمبدأ قوةاستيعاب البلاد الاقتصادي وربطها به ، واعتبروا ذلك بمثابة وقف للهجرة ، كما رفضوا بشدة ايضا فكرة انشاء مجلس تشريعي ، واعلنوا انهم لن يوافقوا على انشاء مثل هذا المجلس او اي نظام دستوري اخر للبلاد ، الا بعد أن يصبح اليهود أكثر من نصف سكان فلسطين !

وقام اليهود في فلسطين بمظاهرات صاخبة ضد الحكومة البريطانية وسياستها الجديدة ... كذلك قام اليهود في المدن الامريكية الكبرى وفي لندن وباريس ووارسو ولاهاي وغيرها من العواصم الاوروبية وفي مدن أمريكا اللاتينية وافريقية الجنوبية بمظاهرات ضد الحكومة البريطانية ، في حين انطلق انصارهم (وما أكثرهم) في العالم — لا سيما في بريطانيا والولايات المتحدة — يشجبون الكتاب الابيض ويستنكرونه ويطالبون بالغائه .

واعلن الدكتور حاييم وايزمان ، رئيس الجمعية الصهيونية العالمية(الوكالة اليهودية فيما بعد) استقالته من منصبه احتجاجا على الكتاب الابيض ،وتبعه عدد آخر من رجال هذه اللجنة .

وأخيرا ... وتحت ضغط اليهود وانصارهم والتزاما لخطة بريطانيا الاستعمارية ... ارسل المستر رامزي ماكدونالد ، رئيس الوزارة ، كتابا الى الدكتور وايزمان ، يفسر فيه الكتاب الابيض وسياسته ، ويؤكد له فيه انها لا تتعارض مع تعهدات بريطانيا لليهود ، وان صدوره لا يعني أن الحكومة البريطانية تعتزم التخلي عن هذه التعهدات وجاء كتاب ماكدونالد في حقيقته وطبيعة محتوياته نسخا كاملا للكتاب الابيض .. وقد اسمى العرب كتاب ماكدونالد « بالكتاب الاسود » مقارنة له « بالكتاب الابيض »الذي توضحه رسالة رئيس الوزارة البريطانية ... ولحس ماكدونالد جميع تعهدات حكومته ووزير المستعمرات بعزم بريطانيا على تنفيذ الكتاب الابيض ... فعاد الدكتور وايزمان عن استقالته ... حيث تأكد لليهود أن الحكومة البريطانية لن تتمسك بالكتاب الابيض المذكور ... ولن تنفذ أي نص من نصوصه ! وعرض الكتاب الابيض للمناقشة أمام مجلس العموم ... فعارضته اكثرية اعضائه .. فكانت

هذه المعارضة (وليس من شك في أن الوزارة البريطانية غذتها واوجدتها) سببا لسحب الحكومة للكتاب الابيض المذكور ، والاستمرار في اتباع سياستها (القديمة) !

وهكذا ثبت للعرب من جديد ضلوع الحكومة البريطانية السافر مع الحركة اليهودية وتواطؤها معها ضد المصلحة العربية ... كما تبين لجميع الذين تعودوا انتقاد مواقف الزعامة الفلسطينية ... أن هذه المواقف كانت سليمة وصحيحة ومنبثقة عن اعتبارات مصلحة العرب والوطن فحسب .

أما اللورد باسفيلد ، صاحب الكتاب الابيض المذكور بوصفه وزيرا للمستعمرات ، فان اليهود وانصارهم خصوه بحملات شعواء وانتقادات قاسية ... مما ادى الى استقالته ثم الى (ابعاده) عن الميدان السياسي ... فلم يعد للورد باسفيلد (مستر سدني ويب) اي ذكر في بريطانيا منذ ذلك التاريخ

لجنة التحقيق الدولية

وشكلت عصبة الامم (بمعرفة بريطانيا وموافقتها) لجنة دولية للتحقيق (تألفت من ثلاثة قضاة دوليين : سويدي ، وهولندي وسويسري) في موضوع البراق الشريف والنزاع الدائر حوله . واهتمت الدوائر العربية عامة والمجلس الاسلامي الاعلى خاصة ، بهذه اللجنة واعداد التقارير والدراسات اللازمة لاثبات حقوق المسلمين في هذا المكان المقدس . واشترك عدد من كبار المحامين العرب والمسلمين في العالم — نذكر منهم المحامي المصري الكبير المرحوم محمد علي علوبة باشا — في الدفاع عن حقوق العرب والمسلمين أمام هذه اللجنة . كذلك ابدى اليهود اهتماما عظيما في الدفاع عن مزاعمهم ومطالبهم ، وتعاقدوا مع عدد من كبار المحامين البريطانيين وغيرهم للتكلم باسمهم امام لجنة التحقيق الدولية .

واستمعت لجنة التحقيق الدولية الى افادات مندوبين عن الحكومة البريطانية ، وممثلي المجلس الاسلامي الاعلى واللجنة التنفيذية العربية ، ومندوبي الجمعية الصهيونية ومحاميها ، كذلك استمعت اللجنة الى عدد من رؤساء الطوائف المسيحية وبعض زعمائها والى بعض المهندسين والبنائين والعمال من مسلمين ومسيحيين الذين قاموا ببعض الاعمال الهندسية

والعمرانية في المكان المذكور ، وبعد القيام بتحقيقاتها على اكمل وجه ، اصدرت اللجنة الدولية تقريرا ، رفعته الى عصبة الامم ، اعترفت فيه بحقوق المسلمين في البراق الشريف وصحة ملكيتهم له ، ونفت مزاعم اليهود وما ادعوه من حقوق لهم في البراق الشريف .

المقاومة العربية

عادت الحركة الوطنية الفلسطينية الى اتباع خطة المقاومة العنيفة (بعد فشل تجربة القبول بالكتاب الابيض) واستأنفت مساعيها في شتى الميادين للدفاع عن قضية فلسطين ومطالب شعبها . فعادت الحكومة الى وسائل البطش والقمع تطبقها ضد العرب ، ولجأت الى مختلف الوسائل لارهابهم . وكان من ابشع ما فعلته بهذا الصدد انهاشنقت في ١٧ حزيران ١٩٣١ في مدينة عكا ثلاثة من المجاهدين الذين ابلوا بلاء حسنا في ثورة ١٩٢٩ ، هم الشهداء محمد جمجوم وعطا الزير (الخليل) وفؤاد حجازي (صفد) .

وقامت في فلسطين عدة مظاهرات عام ١٩٣١ احتجاجا على سياسة الحكومة البريطانية ومواقفها ، فوقعت اصطدامات عنيفة بين المتظاهرين والقوات البريطانية التي تدخلت لقمع هذه المظاهرات .

وتبين من جديد أن اليهود يتسلحون — بمساعدة الحكومة البريطانية ومعرفتها — وينظمون عصابات وقوات عسكرية (سرية) ، فتجددت المظاهرات في فلسطين وكان ابرزها واشدها عنفا مظاهرة وقعت في مدينة نابلس ، طالب فيها المتظاهرون بالسلاح ، وخطب فيهم عدد من القادة الشبان اذكر منهم اكرم زعيتر ، والشيخ صبري عابدين ، ومحمد علي دروزه شقيق (عزة دروزه) وغيرهم ، فدعوا الشعب الى التسلح ... واصطدم المتظاهرون بالقوات البريطانية فوقع عدد من القتلى والجرحى الانكليز وسقط عدد من الشهداء العرب وجرح آخرون .

مؤتمر العالم الاسلامي

كان قادة الحركة الوطنية عامة — وسماحة المفتي الحاج أمين الحسيني خاصة — يسعون باستمرار الى اثارة اهتمام العالم الاسلامي بقضية فلسطين ، ودعوة مسلمي العالم للدفاع عنها وعن الاماكن المقدسة فيها . وكان الهدف الاساسي الذي رمى اليه المفتي من هذا المسعى هو أن تقوم في العالم قوة عالمية تواجه قوة اليهودية العالمية . ورأى أن العالم الاسلامي يستطيع تشكيل مثل هذه القوة المجابهة .

وبعد اتصالات واسعة النطاق اجراها الحاج أمين مع زعماء العالم الاسلامي واحزابه ومؤسساته السياسية والدينية ، دعا الى عقد مؤتمر اسلامي عالمي في القدس في خريف ١٩٣١ ، وقد لبى اقطاب المسلمين هذه الدعوة ، فكان اول مؤتمر اسلامي عالمي عرفه المسلمون في تاريخهم الحديث ، وكان من الذين اشتركوا في هذا المؤتمر التاريخي العظيم الشاعر محمد اقبال (أبو باكستان) ومولانا محمد علي واخوه مولانا شوكت علي ، وعبدالرحمن صديقي ، وشودري خليق الزمان ، وغيرهم من زعماء مسلمي الهند ، وقادة اخرون من ايران وافغانستان واندونيسيا والاقطار الافريقية . وكان ايضا من الذين اشتركوا في هذا المؤتمر قادة الاقطار العربية نذكر منهم عبد الرحمن عزام ومحمد علي علوبة وعبد الحميد سعيد ومحمود لطيف ومحمود البسيوني وشكري القوتلي ورياض الصلح وعبد الحميد كرامي وتوفيق السويدي وسعيد الحاج ثابت واحسان الجابري وعبد الرحمن الكيالي ومحمد ناصيف وغيرهم ، فضلا عن زعماء الحركة الوطنية الفلسطينية من المسلمين .

ومما هو جدير بالذكر أن مسيحيي فلسطين العرب شكلوا وفدا عنهم يضم بعض رؤساء الدين فيهم ، وزار الوفد المؤتمر الاسلامي في ساحة الاقصى المبارك — حيث كان ينعقد المؤتمر — واكد للمجتمعين تأييد النصارى للمؤتمر وترحيبهم بدخول مسلمي العالم فريقا مباشرا في قضية فلسطين ، وقد تأثر زعماء العالم الاسلامي بهذه الظاهرة الوطنية الاخوية ، وراحوا يدعون الى وجوب قيام وحدة وطنية في جميع الاقطار الاسيوية والافريقية كالوحدة الوطنية القائمة بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين . وقرر المؤتمر تأييد الحركة الوطنية الارثوذكسية في فلسطين ومطالبها.

(ما زال مؤتمر العالم الاسلامي قائما حتى اليوم ، حيث عقد سلسلة من المؤتمرات العالمية الاسلامية الدورية ، في كراتشي ، ومكة المكرمة ، وبغداد ، وموقاديشو بالصومال ، وكانت هذه المؤتمرات تنتخب بالاجماع سماحة الحاج امين الحسيني رئيسا لها . وهو لا يزال — اطال الله عمره — يشغل هذا المنصب حتى يومنا هذا) .

مؤتمر الشباب

ووقعت في فلسطين ، خلال مدة غيابي في الولايات المتحدة الامريكية ، تطورات واحداث اخرى هامة ، سواء في ميدان الحركة الوطنية والمقاومة

الفلسطينية أو في الميدان السياسي .

ولكن امرا هاما وقع في البلاد جعلني ازداد يقينا بعزم الفلسطينيين على الصمود في ميدان المقاومة والثبات في وجه الاعداء . هذا الامر ، وقد ابتهجت جدا لدى اطلاعي عليه في الصحف العربية التي كانت تصلني الى امريكا ، هو انعقاد مؤتمر للشباب الفلسطيني في مدينة يافا ، مما دل على أن الشباب قرروا بدورهم اقتحام غمار المعركة . وقد ضم هذا المؤتمر أكثر من ٢٠٠ من الشباب ، ومعظمهم من المثقفين وخريجي المعاهد العليا ، وقرر تأييد الحركة الوطنية الفلسطينية ، والتمسك بميثاقها الوطني والمساهمة في خدمة فلسطين وقضيتها ، على اساس التعاون مع قادة البلاد وزعماء الحركة الوطنية ومؤسساتها المختلفة .. وانتخب المؤتمر السيد راسم الخالدي (القدس) رئيسا له ، كما انتخب لجنة (تمثلت فيها اقضية فلسطين كلها) مهمتها العمل على تنفيذ مقررات المؤتمر ، والاعداد لعقد مؤتمر الشباب الثاني في الوقت الذي تراه اللجنة مناسبا وضروريا .

اقول اني سررت جدا بهذا النبأ ،لان دخول الشباب ، من الطراز الذي اشتمل عليه المؤتمر ، ينطوي على خطة جدية وعزم أكيد على ولوج الشباب « المثقف » ميدان المقاومة الوطنية الفلسطينية ، ذلك لان الاعداء ما انفكوا يتهمون الحركة الوطنية الفلسطينية ، ظلما وبهتانا ، بأنها حركة يقوم بها بعض الوجهاء والاعيان من طبقة « الافندية » للحفاظ على مراكزهم ومصالحهم وزعاماتهم التقليدية ، كما كان الاعداء يشيعون بأن صفوف قادة الحركة الوطنية لا تضم مثقفين ومتعلمين من العرب .. وهذا القول كاذب ، حيث أن هذه الصفوف ضمت ، في اوسع مجالاتها ، محامين واطباء ومهندسين وصيادلة وأساتذة وأمثالهم . فجاء عقد مؤتمر الشباب ، على ما اعتقد ، ردا عمليا على الدعايات الاجنبية المغرضة .

والحقيقة أن عنصر الشباب لم يكن مفقودا ابدا في الحركة الوطنية الفلسطينية وقيادتها ، بل كان اكثر بروزا فيها من اية فئة اخرى من الوطنيين. فقد تألفت قيادة الحركة من شيوخ (مثل موسى كاظم باشا الحسيني وعارف باشا الدجاني وسعيد الشوا وعمر الصوراني وتوفيق حماد وعمر زعيتر وعثمان آغا عون الله وسليمان الصلاح وقاسم آغا النمر وحافظ اغاطوقان ويوسف عاشور وغيرهم) ومن كهول (مثل أمين التميمي وانضوني الغوري وفريد العنبتاوي وعمر البيطار وفهمي الحسيني ويوسف الصايغ وشبلي جمل وخليل

السكاكيني وجميل الحسيني ويعقوب فراج وطالب مرقة ، وموسى الصوراني ورشدي الشوا ومحمد علي النحوي وحنا الخليل خليف وابراهيم شماس ووديع البستاني وطلال عابدين وغيرهم) ومن شباب (لم يتجاوزوا الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمرهم حينئذ) نذكر منهم أمين الحسيني ، واسحق درويش وجمال الحسيني وعزة دروزة ومصطفى البوشناق واحمد الامام وحنا البحري وجبران كوزما وابراهيم درويش ومنيف الحسيني وسعد الدين عبد اللطيف وعبد الله السمارة وفهمي العبوشي ومعين الماضي وغيرهم . (في ذلك العهد لم تكن قد غزت البلاد « حرب الطبقات » التي غزتها في الأعوام الاخيرة ، كما لم تكن البلادقدابتليتبمثل ما ابتليت به في الستينات والسبعينات من مباديء مستوردة وعقائد وآراء دخيلة ... التي بات الناس يعرفون عنها الشيء الكثير) .

فخلال الثلاثين عاما من تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية في عهد الاحتلال البريطاني (١٩١٨ — ١٩٤٨) كانت زعامتها تضم دائما ابدا شيوخا وكهولا وشبانا ، يتعاونون ويتضامنون ويعملون بصدق واخلاص ، الصغير منهم يحترم من هو أكبر منه ، ولا تجمع بينهم غير فلسطين وقضيتها والعمل في سبيلها ، وكانت هذه الروح الطيبة المثالية متجلية تماما في شباب « مؤتمر الشباب» الانف ذكره ، فانهم قرروا المساهمة في خدمة الحركة الوطنيةبالتعاون مع قيادتها ومؤسساتها .

ونعود الان الى ذكر هذا المؤتمر فنقول انه عقد مرة ثانية في مطلع ١٩٣٣ ، وانتخب لرئاسته يعقوب الغصين (وادي حنين — الرملة) ولجنة تنفيذية جديدة ، ضمت بدورها عددا من الشباب ومن اخرين منهم كانوا على ابواب الكهولة . فقد كانت روح الشباب ، وليس سن الشباب ، هي الحافز الاول للعمل والكفاح .

حركة عمالية

وحدث تطور اخر في صفوف العرب اثار اعجابي وسروري ايضا ، ذلك عندما اخذ العمال العرب (وكانت الحركة اليهودية ومؤسسات العمال اليهودية تهدد مصالحهم وكيانهم ..) ينظمون انفسهم في جمعيات ونقابات، للدفاع عن حقوق العمال ومصالحهم وللمساهمة في الوقت ذاته في خدمة

قضية فلسطين ضمن اطار الحركة الوطنية الفلسطينية وقيادتها المعروفة . وقد شعرت بأن في دخول « العمال » العرب دور التنظيم النقابي والاسهام في خدمة الحركة الوطنية ، قوة جديدة لها ودعاية صادقة لاهدافها ومطالبها .

العـــودة

عندما انهيت دراستي في جامعة سنسناتي بولاية اوهايو،ونلتشهادةم.ع. M. A. في حزيران ١٩٣٣ ، بتفوق وامتياز أشادت به الصحف الامريكية نفسها ، عرض علي المسؤولون عن الجامعة أن أواصل الدراسة فيها — على حسابها — للحصول على درجة الدكتوراه ، كما قدمت الي هيئات امريكية تدريسية مختلفة عروضا للتدريس فيها ، وبمرتبات مغرية . ولكني لم أستطع أن أقبل أيا من هذه العروض الكثيرة ، لاني كنت مصمما على الرجوع الى وطني فلسطين فور تخرجي لاقدم ما أستطيع تقديمه من خدمة للبلاد والشعب .

وغادرت مدينة سنسناتي في أواخر حزيران ١٩٣٣ الى مدينة نيويورك ، فقضيت فيها ثمانية أيام ،أحاطني خلالها اصدقائي واخواني العرب فيها بالعطف والرعاية وحسن الضيافة ، الامر الذي لا أنساه . وأذكر من هؤلاء الاخوان الكرام سليمان بدور (صاحب جريدة البيان) ونجيب دياب (صاحب جريدة مرآة الغرب) وعبد المسيح انطاكي والشاعر ايليا ابوماضي (صاحب مجلة السمير) وحنا عودة ، وحسن صعب وفارس معلوف ، وسليم ملوك — وهم من مهاجري سورية ولبنان ، كما أذكر الاصدقاء عبد الحميد شومان ، وحمدان عبد الحميد غنام ، وحسن محمود ، وعلي جودة ، ورضوان غنام ، وابراهيم العبد ، وعبده قرط ، وعيسى الباتح ، وحسن اسماعيل ، وعيسى القسيس ، وجميعهم من المهاجرين الفلسطينيين من القدس وقضاء رام الله .

وفي ٣ تموز ١٩٣٣ غادرت ميناء نيويورك على ظهر الباخرة الايطالية (ريكس) المتجهة الى نابولي ، الميناء الايطالي الشهير . وكانت (ريكس) من أكبر السفن التي كانت تخوض غمار مياه المحيط الاطلنطي حينئذ واحسنها . وكان موسوليني ، يحرص على «احياء مجد ايطاليا» البحري القديم .. فانطلق يغدق المساعدات المالية على شركات الملاحة الايطالية لبناء السفن الضخمة العصرية . وأحسست عندما أقلعت (ريكس) من ميناء نيويورك ، بشيء غير قليل من الحزن وضيق الصدر والوحشة .. ويعود السبب في ذلك الى شعوري بأني

أترك الولايات المتحدة والعشرات من الاصدقاء المخلصين الذين عشت معهم أربعة أعوام ، اعتبرها من أحسن أيام حياتي ، بل ربما زهرتها ، ولكن رغبتي الملحة في العودة الى فلسطين الحبيبة لم تلبث أن قضت على هذا الاحساس ٠

وكان المسافرون على (ريكس) مجموعة من الاجناس والجماعات والجنسيات ، بينهم ايطاليون (وكانوا يشكلون أكثرية المسافرين)، وامريكيون وبريطانيون ويونانيون واسبانيون واتراك والمان ، وعدد من الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين الذين كانوا في طريقهم الى أوطانهم بعد غياب طويل عنها ٠ وكنت أقضي معظم أوقاتي اما في المطالعة واما مع هؤلاء الاخوة المهاجرين العرب العائدين ٠

عهد العرب ٠٠٠

صعدت في احدى الليالي ، وكانت الليلة مقمرة والجو هادئا ، الى ظهر الباخرة لاستنشاق الهواء والقيام برياضة السير على القدمين ٠ ولما اقتربت من المكان الذي تربط فيه «قوارب النجاة» سمعت غناء حزينا بلغة أجنبية يطلقه صوت عذب جميل ترك أثرا كبيرا في فؤادي ، وخلت النغم عربي وان صاحب الصوت عربي ٠٠ فاتجهت الى مصدر الصوت فوجدت امرأة متقدمة في السن ترتدي السواد ، قابعة عند أحد قوارب النجاة على حافة السفينة ، تغني وهي شاردة الذهن تتطلع الى البحر الصافي وكأنها تشكو اليه همومها ٠ وانتفضت المرأة عندما اقتربت منها ، وكفت عن الغناء ٠٠ وبعد التحدث اليها ، قالت انها امرأة اسبانية ، فقدت زوجها وابنها الاكبر في المهجر الامريكي ، ولم يتركا لها أية ثروة ، فبعث اليها ذووها في غرناطة باسبانيا ببعض المال وتذكرة السفر ، لتعود الى مسقط رأسها تقضي فيه بقية حياتها ٠ أما الاغنية التي كانت تنشدها فقالت انها اندلسية الاصل ، ترجمت كلماتها عن اللغة (العربية القديمة) ٠٠ وان لحن الاغنية عربي قديم أيضا ٠٠ وقد أثار في غناء هذه المرأة الاسبانية الاندلسية ، شعورا غريبا وتيها بأيام العرب في الاندلس ٠٠

يافا الحبيبة

وصلت الباخرة الى ميناء نابولي ، بعد سبعة أيام من مغادرتها لميناء نيويورك وكنت أود أن أقضي بضعة أيام في مدينة نابولي الجميلة ، التي كان جمالها قد

أخذ بلب أحد الشعراء البريطانيين الكبار ، فقال : زر نابولي ثم مت ٠٠ ولكن شدة اشتياقي للاهل والوطن ، وقلة المال المتوفر لدي ، دفعاني الى عدم المكوث في نابولي سوى ليلة واحدة ٠ فغادرتها فجر اليوم الثاني على باخرة ايطالية اخرى ، أصغر وأقل حمولة من الباخرة ريكس ، هي الباخرة (اسبيريا) ، الى ميناء يافا ، ووصلنا يافا بعد خمسة أيام ، ونظرا لعدم وجود مرفأ فيها ، رست الباخرة في عرض البحر على مسافة غير قصيرة من الميناء ٠ (كان الانكليز يتعمدون اضعاف يافا ، المدينة الجبارة ، وافتقارها والقضاء عليها كميناءفلسطين الاول، وذلك لحساب اليهود ومدينتهم تل ابيب المحاذية لها ٠٠ والتي بنوا فيها فيما بعد مرفأ عصريا ٠٠) ٠

فرحت جدا لوصولي الى يافا ، ولما تطلعت اليها من على ظهر الباخرة ، وجدت انها قد اتسعت ونمت ، وغدت أضخم بكثير من البلدة التي ودعتها عام ١٩٢٩ ٠٠ ولكني شعرت في الوقت ذاته بأن هذه القلعة الوطنية الصامدة لن تلبث أن تلاقي أسوأ مصير على أيدي الانكليز واليهود ٠

ونقلني ، مع عدد من المسافرين ، قارب (فلوكه) من مكان مرسى السفينة الى الميناء ٠ ورغم خشونة البحر وهياج أمواجه فاننا لم نشعر لا بخوف ولا بتعب ، حيث كنا في أيد أمينة مجربة مشهورة بتغلبها على البحر الهائج وأمواجه العاتية، هي أيدي بحارة يافا الاشاوس المشهورين ٠

وتطل مدينة يافا القديمة (التي نسفها الانكليز ودمروها عام ١٩٣٦) على البحر وهي اشبه بجبل عال يتيه ببيوته وسكانه على البحر وقوته ٠٠ ويعلو هذا الجبل بناء ضخم هو بناء (دير الروم) ، فتطلعت الى هذا الدير ، المشرف مباشرة على البحر ، فرأيت على أعلى سلمه الحجري الطويل العالي امرأة تلوح بمنديلها الى القوارب التي تنقل الركاب ٠٠ دون أن تخص قاربا منها بتلويح منديلها ٠ فلما اقتربنا من الميناء ، أمعنت النظر في هذه المرأة التي تلوح بمنديلها ، فاذا بها والدتي ٠٠ فاغرورقت عيناي بدموع الفرح لانها ما زالت على قيد الحياة ، وقد تكبدت مشاق السفر ، وتسلق سلم الدير ، رغم اعتلال صحتها ، لتستقبل ولدها الذي شجعته على السفر لطلب العلم في الخارج ،

وازدادت الدموع تدفقا في عيني شكرا لله لان هذه الوالدة الطيبة الحنونة قد تحققت لها أمنيتها ، وأمنية والدي من قبلها ، بأن أحصل على دراسة جامعية ٠ ولما انتهت معاملات الامن العام والجمرك ، نزلنا الى البر ، فركضت الى والدتي

ألثم يديها ، والى من رافقها من أفراد العائلة أقبلهم ٠

وانتقلنا بسيارة أجرة الى مدينة القدس ، فوصلناها بعد الظهر ، ولا أستطيع أن أعبر عما ساورني من سرور عظيم لعودتي الى مسقط رأسي ، والى بيتي ، بيت العائلة ٠ وهرع الاقارب والاصدقاء للسلام علي ٠ ومكثت أسبوعا كاملا في البيت وأنا أستقبل الزائرين وأتقبل تهانيهم ٠٠ واتخمت معدتي المآكل الطيبة اللذيذة المتنوعة التي كانت والدتي وشقيقاتي يعددنها لي . كأنهن يردن أن يعوضنني عما خسرته من هذه المآكل الشهية خلال اقامتي في امريكا !

وحمدت الله من جديد لنجاحي وتوفيقي ، وحمدته تعالى لاعادتي سالما الى بلدي ، ومنحني نعمة العيش من جديد في كنف والدتي الحنونة ٠

ونشرت الصحف الفلسطينية نبأ عودتي ، مرحبة مشجعة ورجت لي «مستقبلا زاهرا» ٠٠

١٣

الاختيار الصعب

أصبح من واجبي ، ومسئوليتي نحو نفسي وعائلتي ، وقد انقضت أيام الاستقبال والراحة ٠٠ أن أفتش عن عمل يدر علي من الدخل ما يمكنني من مواجهة أعباء الحياة والمساهمة في ميزانية البيت ٠ وكان مجال العمل الذي أستطيعه ضيقا محدودا ٠ فانعدام وجود مال لدي كان يحول دون عملي في التجارة أو الزراعة ، وافتقاري الى الثروة لا يمكنني من بناء العمارات والاعتماد على دخلها من الايجارات ٠ اذا ما هو العمل ؟

وفيما كنت أتخبط في موضوع اختيار العمل الذي أريده أو أستطيع القيام به ، جاءني بعض الاصدقاء الاعزاء من كبار موظفي الحكومة ، وأبلغوني أن الحكومة مستعدة لتوظيفي في مركز عال في دائرة السكرتيرية العامة ، وكان من كبار موظفي الدائرة العرب حينئذ رجائي الحسيني وموسى العلمي وجورج انطونيوس وروحي عبد الهادي ٠ وقالوا لي أن أقدم طلبا الى السكرتير العام للتوظف في الحكومة وان «عليهم الباقي» ٠ وعلى الرغم من حاجتي الى العمل ، والى المال ، وعلى الرغم من المرتب «الضخم» الذي كان سيخصص لي ، فاني اعتذرت للاصدقاء عن عدم استطاعتي قبول وظيفة حكومية ، أولا لاني كنت كارها للانكليز وحكومتهم ، وثانيا لاني شعرت بأن الغرض من «العرض» المقدم كان ابعادي عن العمل في الميدان الوطني السياسي ٠ وبعد أيام استدعاني المرحوم سعيد الحسيني (وهو عين أعيان القدس وأكبر كبرائها ، ومعروف بالصدق والاخلاص وبعد النظر والتجرد ٠ وكان صديقا حميما للمرحوم والدي وقد ازدادت هذه الصداقة متانة عام ١٩٠٤ عندما انتخب سعيد الحسيني رئيسا لبلدية القدس ووالدي عضوا في مجلسها وكثيرا ما سمعت أهل القدس يقولون أن سعيد الحسيني كان رئيس البلدية الوحيد الذي خرج منها مدينا وفقيرا ٠٠) استدعاني المرحوم الى بيته وحدثني في موضوع الوظيفة،

ونصحني باصرار بوجوب قبولها ، مؤكدا لي اعتقاده بأني أستطيع اسداء أكبر الخدمات للوطن والشعب عن طريق الوظيفة ٠٠ وقال لي لو أن الحاج أمين كان موجودا الان (فقد كان سماحته يتجول حينئذ في العالم الاسلامي لخدمة قضية فلسطين) لنصحني أيضا بقبول الوظيفة المعروضة ٠ وعلى شدة احترامي لسعيد الحسيني ، ومحبتي له ، فاني لم أستطع أن أقبل بنصيحته ، وتخلصت من موقفي الحرج أمامه ، بقولي له اذا فلنترك المسألة الى حين عودة المفتي !

فقال لي رحمه الله ، الرأي رأيك ، كل ما أرجوه أن لا تندم في المستقبل على اضاعتك لهذه الفرصة ٠٠

بقي أمامي مجالان ، ما زلت أتطلع منذ الصغر ، لخوض غمارهما وأتوق للعمل فيهما ، أو في أحدهما ، هما مجال الصحافة وميدان المحاماة ٠ أما المحاماة فاني لم أدرس القانون (كما سبق لي أن ذكرت في فصل سابق) في امريكا ، مؤثرا دراسته في القدس بعد تخرجي من أمريكا . لذلك لم استطع في ١٩٣٣ العمل في سلك المحاماة ، ولكني سجلت نفسي «تلميذا» في «معهد الحقوق» في القدس ، التابع للحكومة ٠ وتتطلب الدراسة فيه أربعة أعوام ، ويستطيع المتخرج منه ، بعد عامين من التمرين ، ممارسة المحاماة ٠

الصحافة

وهكذا لم يبق أمامي مجال للعمل سوى ميدان الصحافة ، وهو مجال في فلسطين ، خاصة في ظروف عهد الانتداب البريطاني ، من أصعب المجالات أمام الوطنيين وأخطرها ٠ لا يختاره الا من عزم على التضحية والتحمل والثبات والتعرض لغضب الحكومة ومحاكمتها ، ولنقمة الجماعات التي كان أفرادها يقفون موقف المعارضة والمقاومة من الحركة الوطنية ٠ ولقد صممت على انتهاج مهنة الصحافة ، على الرغم من جميع هذه الاعتبارات القائمة ، وعزمت على اصدار صحيفة وطنية باللغة الانكليزية ، لاعتقادي بأن البلاد والقضية الفلسطينية في أمس الحاجة لصدور مثل هذه الصحيفة ؛ فانطلقت أمهد السبيل وأعد العدة لاصدارها ، وعملت بجهد كبير للتغلب على الصعوبة الكبرى التي واجهتني ، وهي عدم توفر المال اللازم ٠

الجامعة العربية

كان الاخ الصديق العزيز منيف الحسيني ، يصدر في القدس جريدة «الجامعة العربية» ، وكانت تعتبر الناطقة باسم الحركة الوطنية والمجلس الاسلامي الاعلى ، ويشهد الله انه تحمل في سبيل اصدار هذه الصحيفة الوطنية الصامدة ، والاستمرار في اصدارها ، ما لا يستطيع تحمله غير المؤمن الصادق الذي يقبض على الجمر !

وكنت قد درست بعد عودتي من امريكا أوضاع البلاد وأحوالها السياسية والتطورات التي طرأت على الحركة الوطنية ٠٠ ورأيت أن أنشر مقالات وتعليقات حول هذه الامور والشؤون ، فأفسح لي الاخ منيف مجال الكتابة في (الجامعة العربية) ٠٠ فنشرت فيها سلسلة من المقالات (بلغت ٢٦ مقالا) بعنوان «فلسطين بعد أربعة أعوام» ٠ وترك لي منيف كامل الحرية ومطلقها لكتابة ما أريد وتسجيل ما أشاء ، دون أي تدخل لا منه ولا من أحد من رجال الحركة الوطنية الذين كان لهم اتصال «بالجامعة العربية» ٠ وأقول بكل تواضع ، ان هذه المقالات قوبلت باعجاب الوطنيين وفئات الشباب ، وتركت ردود فعل مختلفة متعددة في أوساط الفئات والجماعات التي لم تكن اراؤها واتجاهاتها منسجمة مع اراء الوطنيين واتجاهاتهم ٠ وبفضل هذه المقالات ، والفضل الاول فيها لمنيف الذي أفسح لي المجال لنشرها ، وضعتني السلطات البريطانية «من جديد» على «اللائحة السوداء» وجعلت تعتبرني من خصومها العنيدين ٠٠

في حين اسبغت علي هذه المقالات صفة «المجلسية المتطرفة» ٠٠ وجعلتني في أعين الناس عامة واحدا من انصار الحاج أمين الحسيني والحركة الوطنية .. وهو شرف لا ازال افاخر به حتى اليوم ٠ وفضلا عن هذا كله فان مقالاتي المذكورة في الجامعة العربية رفعت من اسهمي وسمعتي في الميدان الوطني وابرزت اسمي في اوساطه ٠

مقاومة بريطانيا

كنت اعتقد دائما أن بريطانيا مصممة على تهويد فلسطين ، وعازمة بكل تأكيد على تنفيذ سياستها المرسومة لوطننا ، وانها كانت تخادع العرب وتداورهم وتضللهم ، وتخدرهم بالوفود والوعود والمفاوضات ولجان التحقيق

والمباحثات ... في حين كانت تعمل باصرار على تحقيق خطتها . كذلك كنت اعتقد أن الخطة المثلى للقضاء على المؤامرة المبيتة هي مقاومة بريطانيا مباشرة ، فهي الاصل واليهود الفرع .

فلما عدت الى البلاد بعد غياب دام اربعة اعوام ، ودرست الاوضاع السائدة والاحوال القائمة ، واتجاهات بريطانيا السياسية وما كانت تتخذه من تدابير واجراءات ، وتسنه من انظمة وقوانين ، لتنفيذ مخططها ، فاني ازددت قناعة بوجوب مواجهة الحكم البريطاني مباشرة ومجابهته بالقوة ، فقد يؤدي هذا السبيل الى بلوغ اهدافنا الوطنية .

ومع يقيني بأن الحاج أمين الحسيني والصادقين من اخوانه العاملين تحت لوائه ، كانوا يؤمنون بهذه الفكرة ، ويعملون على تحقيقها ، دون ما ضجة او دعاية ، فاني شعرت بأنه من واجبنا نحن الشباب « الجدد » أن نبادر الى العمل ايضا ، بطرقنا الخاصة ووسائلنا المستطاعة ، الى توجيه الشعب ضد بريطانيا مباشرة ، وخلق جو يمهد السبيل الى مجابهة الحكم البريطاني بالتمرد والعصيان ... وكان خصوم الحركة الوطنية يتهمون رجالها وقادتها بأنهم يقاومون اليهود فحسب ، ويهادنون السلطات البريطانية ويتجنبون الاصطدام بها ومع علمي بأن هذه الدعاية ضد الحركة الوطنية وقادتها كانت مغرضة ومضللة ، الا اني لا استطيع أن أنكر انها تركت اثرا في نفسي وحفزتني الى العمل ، في الميدان الذي ما زلت اؤمن بنفعه وجدواه .

اللجان السرية

وكنت اؤثر عدم الاقدام على اية خطوة في هذا السبيل قبل الاطلاع على راي سماحة المفتي والاسترشاد بنصائحه وتوجيهاته . ولكن الحاج أمين كان خارج البلاد حينئذ في جولة في العالم الاسلامي ، وان عودته الى القدس ليست قريبة . ونظرا لذلك ، ولسرعة التطورات الخطيرة التي كانت تطرأ متعاقبة على الوضع السياسي في فلسطين ، رأيت المبادرة الى العمل ، واثقا بأن المفتي سيباركه ويدعمه لدى اطلاعه عليه . فاجريت اتصالات سرية ، مع عدد من اخواني الشباب ، وفي طليعتهم الاصدقاء الذين عملت معهم في عهد الدراسة وبعده وقبل سفري الى الولايات المتحدة لانشاء « عمل سري » في البلاد ... واتصلت بصورة خاصة بالمرحوم عبد القادر الحسيني ، فوجدت،

لشدة سروري وابتهاجي انه كان قد سبقنا في هذا الميدان واوجد تنظيما سريا منذ ١٩٣١ لتهيئة الشباب وتسليحهم واعدادهم للقتال ، دون أن يدري بذلك أحد من اقرب قادة الحركة الوطنية الى عبد القادر !

وتم الاتفاق فيما بيننا على ايجاد تنظيم سري في القدس ، يكون له فروع في مختلف انحاء فلسطين اسميناه « منظمة المقاومة والجهاد » وجعلنا في طليعة مهام هذا التنظيم توعية الشعب ونشر روح التمرد على الحكم البريطاني في اوساطه ، وانشاء منظمات سرية — شبه عسكرية — من الشباب المؤمنين وتسليحهم وتدريبهم واعدادهم للقتال . وقد احطنا اعمالنا باطار كثيف من السرية والكتمان ، الامر الذي كان السبب الاكبر في النجاح الذي حالفنا .

وانضم تنظيم عبد القادر السري الى التنظيم السري الجديد ، واخترنا عبد القادر الحسيني لقيادته ورئاسته . واستطعنا انشاء ١٧ فرعا لهذا التنظيم، في مدن فلسطين وقراها ، وبعد أن قطعنا شوطا هاما في العمل والاعداد ، بدلنا اسم التنظيم وجعلناه (الجهاد المقدس) .

وكان من الشباب الذين ساهموا في هذا العمل الاخوان نافذ محي الدين الحسيني وجمال ابو السعود ، وعلي محي الدين الحسيني ، ومحمود العكرماوي ، وجوليود دانيل ، وعبد الرحمن العلي ، ويوسف ابراهيم صهيون ، وعبد الحي عرفه ، ومحمد علي التايه ، ومحمود علاء الدين ، واحمد حسين الغول ، واحمد العيساوي ، وفائق الريماوي ، وصالح الريماوي ، ونجيب الترزي ، وغيرهم وغيرهم من خيرة الوطنيين وزبدة الشبان المؤمنين .

في اللجنة التنفيذية ومؤتمر الشباب

كانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني السابع ، هي القيادة المسئولة للحركة الوطنية الفلسطينية ، برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني ، وكان يمثل مدينة القدس في هذه اللجنة رئيسها موسى كاظم وعدد من زعمائها بينهم نخلة كتن . وفي ١٢ آب ١٩٣٣ عقدت هذه اللجنة جلسة استثنائية لاعادة تنظيم نفسها استعدادا لمجابهة الاخطار العظيمة التي باتت تهدد البلاد من جراء تفاقم الهجرة اليهودية بعد أن تولى هتلر وحزبه حكم المانيا .

وفي هذه الجلسة اعلن نخلة كتن أن الوضع الخطير يحتاج الى مشاركة الشباب « الجدد » في الحركة الوطنية ، وافساح مجال العمل امامهم ، ولذلك فانه طلب من اللجنة قبول استقالته من عضويتها وانتخاب (اميل الغوري) ليحل مكانه فيها . فاستغرب بعض الاعضاء هذا الاقتراح على اعتبار اني كنت صغير السن (٢٦ عاما) حينئذ ، بالنسبة لمعدل سن اعضاء اللجنة ، ولكن المرحوم موسى كاظم رئيس اللجنة رحب بهذا الاقتراح ودعا اللجنة الى قبول استقالة نخلة كتن من اللجنة وانتخابي عضوا فيها . فوافق اعضاؤها بالاجماع على قبولي عضوا فيها . وهكذا دخلت الحركة الوطنية لاول مرة بصورة علنية ورسمية ... وكنت اصغر اعضاء اللجنة التنفيذية سنا ...

وكانت لجنة مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني ، تعمل بدورها على اعادة تنظيم نفسها وتوسيع نطاق اعمالها ، فقررت في اجتماع لها عقدته في ٢٧ آب ١٩٣٣ ، برئاسة يعقوب الغصين ، ضمي والاخ نافذ الحسيني الى عضويتها.

مظاهرات ١٩٣٣

تدفقت الهجرة اليهودية على فلسطين ، عام ١٩٣٣ ، بشكل مثير خطير ، وذلك على اثر تولي ادولف هتلر وحزب النازي حكم المانيا . وكانت هذه الهجرة تعتبر « شرعية » من جانب الحكومة البريطانية ، فتجري بحماية حرابها وفي ظل انظمتها وقوانينها . ولكن هجرة اخرى كانت تتدفق ايضا على فلسطين، عن طريق التسلل والتهريب ، برا وبحرا ، كانت الحكومة تعتبرها هجرة سرية ، وغير شرعية ... ولكنها لم تتخذ اي اجراء جدي لمكافحتها ، الامر الذي يقطع بضلوع السلطات البريطانية مع اليهود في مجال « تهريب » المهاجرين اليهود الى فلسطين .

وقد اثارت هذه الهجرة اليهودية ، على نوعيها ، مخاوف العرب وخشيتهم واوجدت جوا من التطير والقلق في البلاد ، شعرنا نحن معشر الشباب بأنه مؤات للدعوة الى فكرة مجابهة الانكليز مباشرة ، وحث الشعب على العصيان والتمرد على الحكم البريطاني . فبالاضافة الى الاعمال التي كان يقوم بها (التنظيم السري) الذي أشرت اليه آنفا ، والتي كانت في حاجة الى وقت غير قصير لاتمامها ، فقد اجرينا بعض الاتصالات مع نفر مخلص من ابناء القدس ، من الفئة التي كان وصفها حينئذ بالشباب أمرا معقولا ، للقيام بأعمال جدية لمناهضة السياسة البريطانية تكون باكورة خطة التمرد والعصيان .

ووجهت دعوة سرية الى بعض الاخوان المخلصين لعقد اجتماع خاص في ٢٧ ايلول ١٩٣٣ لبحث الموقف واتخاذ ما يقتضيه الوضع من تدابير واجراءات .

وكان الحافز الى السرية والكتمان ، الرغبة في العمل دون ما ضجة وتظاهر، وتجنب « عيون » السلطات البريطانية التي كانت قد اندفعت تراقبنا وتلاحقنا ... وعقد هذا الاجتماع « السري » في بيتي وقد حضره الاخوان الدكتور فوتي فريج ، ومنيف الحسيني ، وانسطاس حنانيا ، ونافذ الحسيني ، وموسى عبد الله الحسيني ، وابراهيم درويش ، ومينا الحلبي ، ويوسف عبدو ، وطاهر الفتياني .

وقرر المجتمعون ، بعد بحث طويل للاوضاع السائدة والاحوال القائمة ، وجوب دعوة الشعب الى التظاهر ضد الحكومة وسياستها ، بمظاهرات دورية في المدن الفلسطينية الكبرى ، ابتداء من القدس في يوم الجمعة ١٣تشرين الاول ، ثم في يافا ، فحيفا ، فنابلس فسائر المدن الفلسطينية بحيث تستمر المظاهرات عدة اشهر ..

وكانت الحكومة قد سنت سلسلة من الانظمة والقوانين تحظر فيها على الشعب القيام بالمظاهرات ، وتخول سلطات الامن العام والجيش حق قمعها بالقوة . ولكننا قررنا الدعوة الى المظاهرات رغم وجود هذه الانظمة والقوانين، وفي هذا الموقف تكمن خطة التمرد والعصيان .

وقرر المجتمعون مطالبة اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني السابع ، وهي الممثلة للبلاد ، تبني هذا القرار والدعوة الى تنفيذه لان في قيام اللجنة التنفيذية بهذه المهمة وهي الممثلة الشرعية للشعب ، معنى تمرد الشعب بأسره على القوانين والانظمة البريطانية ، وسبيل الى انجاح الاقتراح . واختار المجتمعون السيدين نافذ الحسيني واميل الغوري للقيام بما يقتضى من الاعمال لتنفيذ هذا القرار ، وهو اول قرار من نوعه في تاريخ المقاومة الفلسطينية .

وتولينا ، نافذ الحسيني وأنا ، تنفيذ المهمة المنوطة بنا . فأجرينا اتصالات مع مختلف فئات الشعب فوافقت على الفكرة ، فرفع ابناء القدس والقرى المجاورة عشرات العرائض الى رئيس اللجنة التنفيذية موسى كاظم باشا الحسيني ، يطالبون فيها اللجنة بالدعوة الى الاضراب والمظاهرات ،ويعلنون استعدادهم وتصميمهم على تنفيذ كل قرار تصدره اللجنة التنفيذية بهذا

الشأن . واجرينا اتصالا بلجنة مؤتمر الشباب الفلسطيني فوافقت على القرار وانطلقت تعمل على تنفيذه .

واجتمعنا بالشيخ الجليل موسى كاظم الحسيني (وكان قد تلقى عشرات العرائض من الشعب) ، وباحثناه في هذا الموضوع ، وكنا نظن أن شيخوخة هذا الزعيم الكبير ستدفعه الى الدعوة للاعتدال والتزام القانون وتجنب التمرد والعصيان ... ولكننا وجدنا أن هذا الرجل كان اشد تحمسا وابعد استعدادا للتمرد والعصيان من الشباب انفسهم ، فتبنى القرار ودعا اللجنة التنفيذية الى الاجتماع في ٦ تشرين الاول لعرضه عليها واستصدار قرار منها بالدعوة الى الاضراب والمظاهرات .

اجتماع اللجنة التنفيذية

وساد القدس وسائر انحاء فلسطين جو من الحماس الشديد ، قابلته السلطات بالتهديد باللجوء الى « القانون » لصيانة الامن والنظام في البلاد . وقد نجم عن هذا التهديد الحكومي قيام حالة من القلق والتطير ، ولكنها لم تؤثر على حماس الشعب وتصميمه .

وكان السادس من شهر تشرين الاول ١٩٣٣ هو اليوم المقرر لاجتماع اللجنة التنفيذية ، فاحتشد حول مقرها في القدس جمهور غفير من ابناء المدينة المقدسة وقراها ، تأييدا لرئيسها وموقفه ، وتشجيعا لاعضاء اللجنة ، واعرابا عن رغبة الشعب بوجوب القيام بأعمال جدية في سبيل الدفاع عن الوطن .

وكان اجتماع اللجنة التنفيذية هذا من اخطر اجتماعاتها واهمها ، فلم يتغيب عنه احد من اعضائها . وطرح الرئيس على اللجنة موضوع الدعوة الى مظاهرات واضرابات عامة في البلاد ، ودافع عنه بقوة وصلابة ، واهاب بأعضاء اللجنة الموافقة عليه بالاجماع . ودارت مناقشات هامة حول هذا الموضوع ، ظهر من خلالها تردد من بعض اعضائها في الموافقة عليه ، ولكنهم لم يلبثوا أن بدلوا موقفهم بعد الاستماع الى كلمات حماسية وموزونة القاها الرئيس ، فأصدرت اللجنة بالاجماع القرارات التالية :

١ — القيام بمظاهرات عامة دورية في مختلف مدن فلسطين سواء وافقت الحكومة على قيامها أو لم توافق .

٢ — تبدأ المظاهرة الاولى في القدس يوم الجمعة في ١٣ تشرين الاول ١٩٣٣ ، وتعقبها المظاهرة الثانية في يافا في ٢٧ تشرين الاول ، ثم في حيفا فنابلس فغزة فالخليل وهلم جرا .

٣ — تضرب فلسطين كلها اضرابا عاما في الايام التي تجري فيها المظاهرات.

٤ — يشترك جميع اعضاء اللجنة التنفيذية والمؤتمر الفلسطيني السابع في هذه المظاهرات .

ولما انتهت جلسة اللجنة التنفيذية خرج رئيسها ليعلن قراراتها على الجمهور المحتشد ، فقابله الشعب بحماس شديد وهتاف عظيم ، وهجم عليه عدد من الشبان وحملوه على الاكتاف ، وقوبل قرار اللجنة في سائر مدن فلسطين وقراها بمثل الحماس والترحيب الذي قوبل به في القدس .

الحكومة تتدخل ... وتهدد

ذهلت السلطات البريطانية لصدور قرار اللجنة الانف ذكره ، فلم تكن لتعتقد بأن اللجنة التنفيذية ستنزل عند رغبة بعض الشبان « الطائشين » ...وراع الحكومة أن يصدر هذا القرار بالاجماع حيث كانت تعتمد على بعض اعضاء اللجنة (من الذين كانوا ينتمون الى فئات المعارضة) لمناهضة الاتجاه السياسي الجديد . لذلك ردت الحكومة على قرار اللجنة باصدار بيان تعلن فيه تمسكها بالقانون والنظام ، وتؤكد فيه عزمها على منع اية مظاهرة بالقوة، وحذرت اللجنة التنفيذية والشعب من مغبة الاصرار على التظاهر .

وجاء رد الحكومة يزيد من حماس الشعب وتصميمه ، فتدخل المندوب السامي شخصيا في الموضوع ، وحاول اقناع موسى كاظم بالعدول عن المظاهرات ، وأعلن عن استغرابه لصدور مثل هذا القرار عنه ، وهو الرجل المشهور ببعد النظر وحسن التصرف والميل للسلام والنظام . فقال له الباشا « لقد قضيت خمسين عاما من عمري ، موظفا في الدولة العثمانية ، وتوليت مناصب قائمقام ومتصرف ووال في ديار بكر وعسير والعراق وسورية وفلسطين واماكن اخرى من بلاد الدولة العثمانية . وكنت مسئولا عن الامن والنظام . فهل تعتقد انه من اليسير علي أن ادعو اليوم الى ما تعتبرونه خروجا على الامن والنظام ؟! ان حكمكم الظالم وسياستكم الخرقاء هي التي دفعتني الى توقيع قرار المظاهرات

والاضرابات ! » . وعبثا حاول المندوب السامي ثني موسى كاظم عن عزمه، او تعديل موقفه . وانتهى الاجتماع بين الزعيم والمندوب السامي بتوله لموسى كاظم : اني اعتبر قراركم تمردا على الحكومة وعصيانا لقوانينها ... فـرد عليه الباشا قائلا : اما انا فاعتبره عملا مشروعا تحتمه مصلحة وطني وشعبي .

وقبيل الموعد المحدد لمظاهرة القدس ، وسط المندوب السامي السيدة فرانسيس نيوتن (وهي سيدة بريطانية اقامت اعواما طويلة في حيفا ، وعرفت بصداقتها للعرب) لاقناع الباشا بالعدول عن قراره ، او تأجيل تنفيذه الى تاريخ لاحق لعل سعاة الخير ينجحون في انقاذ الموقف . لكن وساطة المس نيوتن لم تنفع في حمل الشيخ الثائر على تحقيق رغبة الحكومة ؟ !

مظاهرة القدس

اضربت فلسطين باسرها يوم الجمعة في ١٣ تشرين الاول ١٩٣٣ ، وأمت القدس جماهير غفيرة من القرى المجاورة للاشتراك في المظاهرة الوطنية المقرر قيامها في هذا اليوم ، ووصل الى العاصمة عدد من اعضاء اللجنة التنفيذية ، في حين احجم اخرون منهم ، ربما بضغط من الحكومة او لخوفهم من الاصطدام ، عن الحضور .

أما الحكومة فقد حشدت قوة كبيرة من الشرطة وافراد الجيش في القدس، واحتلت فيها مراكز عديدة ، لغرض فض المظاهرة بالقوة . كذلك اتخذت الحكومة اجراءات بوليسية وعسكرية مماثلة في يافا ونابلس وحيفا .واذاعت في صباح هذا اليوم بيانا جديدا دعت فيه الشعب الى احترام القانون والنظام وانذرت باللجوء الى القوة لمنع التظاهر . ولكن هذا الانذار الحكومي زاد الشعب تصميما على التظاهر .

وغص المسجد الاقصى المبارك ، على رحبه ، بالمصلين ، بينما احتشدت في ساحته الواسعة جماهير غفيرة من الشعب بانتظار انتهاء « صلاة الجمعة» للاشتراك في المظاهرة . وخرج المصلون من المسجد الاقصى المبارك وعلى رأسهم موسى كاظم الحسيني ، الذي اعلن بدء المظاهرة وتشكل موكب يربو عدده على العشرة الاف شخص وبدأ يتجه نحو باب السلسلة . وقبل وصول

المظاهرة الى هذا المكان تدفق على ساحة المجلس جمهور كبير من المسيحيين، يتقدمهم ممثلوهم في اللجنة التنفيذية ، وعدد من الكهنة والزعماء .فاستقبلهم المسلمون بالتصفيق والهتاف وبحماس شديد ، وبعد أن انضم الشقيق الى شقيقه ، خرجت من ساحة المسجد الاقصى المبارك مظاهرة عظيمة كانت، رغم ضخامتها سلمية ، فلم يحمل احد من المتظاهرين سلاحا او عصا !

ونظرا لان المظاهرة كانت موجهة ضد الحكم البريطاني مباشرة ، فقد اثرنا عدم مرورها في الشوارع والاحياء المشتركة بين العرب واليهود تجنبا لوقوع اصطدام بين الفريقين ، يشوه روعة المظاهرة ، ويقضي على الغرض منها — وهو التمرد والعصيان على الحكم البريطاني ، ويستغله الاجانب والاعداءعلى السواء لاظهار العرب بأنهم يناهضون اليهود ويقتتلون معهم فحسب .وأن وجود بريطانيا في فلسطين أمر واجب لمنع القتال بين الفريقين ... والحكم بينهما ، واتفقت الكلمة على أن تسير المظاهرة عبر الاحياء العربية فحسب(١).

وخرجت هذه المظاهرة الضخمة ، من ساحة الحرم الشريف ، عبر باب

---

(١) كان بعض الوطنيين قد شكلوا ، عام ١٩٣١ ، حزبا سياسيا باسم « حزب الاستقلال » بزعامة المحامي المعروف عوني عبد الهادي . وكان من رجال هذا الحزب البارزين عزة دروزة ، ومعين الماضي ، ورشيد الحاج ابراهيم، واكرم زعيتر ، وصبحي الخضراء ، والدكتور سليم سلامه وحربي الايوبي ، ولما كان رجال هذا الحزب من صميم الجبهة الوطنية ، فان الشعب جعل ينظر اليهم باحترام وتقدير ،وراح يعتبرهم جهازا من اجهزة الحركة الوطنية تم انشاؤه بمعرفة قادتها وزعمائها . ومن الحق أن نسجل أنرجال هذا الحزب لعبوا دورا اساسيا موفقا في اثارة الشعب ضد الحكم البريطاني الظالم ، والترويج لفكرة توجيه الحركة الوطنية ضد بريطانيا مباشرة . وقد ساهم هذا الحزب مساهمة جدية في تطوير الكفاح الشعبي الفلسطيني وتوجيهه ضد الانتداب البريطاني . فلما قامت مظاهرة القدس هرع معظم اقطاب هذا الحزب الى الاشتراك فيها .

ولمناسبة هذا البحث نقول أن احمد الشقيري ادعى في الصفحة ١٣١ من مذكراته التي نشرها قبل مدة ، بعنوان « اربعون عاما في الحياة العربية والدولية » انه كان من رجال هذا الحزب ، بل من قادته ، كما زعم في الصفحة ١٣٨ انه اشترك في مظاهرة القدس ، وأن الحاج أمين الحسيني لم يشتركفيها ، بل كان يراقبها من نافذة بيته المطل على ساحة الحرم الشريف . أما الحقيقة فهي غير ما ورد في مذكرات الشقيري . فهو لم يكن عضوا في حزب الاستقلال ، لسبب واحد هو أن قيادة الحزب لم تقبله عضوا فيه . وكذلك لم يشترك أحمد الشقيري اطلاقا في مظاهرة القدس ، بل لازم يومها مكتبه « مكتب محاماة » في عكا ... أما الحاج أمين فانه لم يشترك في المظاهرة لانه كان غائبا عن البلاد في جولة في اقطار العالم الاسلامي ، الامر الذي يقطع بكذب الشقيري في كل ما قاله بهذا الشأن .

السلسلة ، وبدأت سيرها وفقا للمنهاج الموضوع لها . وكان الشيخ الزعيم موسى كاظم الحسيني ، رئيس اللجنة التنفيذية ، يتقدم المتظاهرين ،يحيط به عدد من اعضاء اللجنة والشبان . وقد تخلف عن الاشتراك في المظاهرة بعض اعضاء اللجنة التنفيذية ، كما ذكرنا آنفا ، لاسباب متعددة ليس هذا مجال بحثها . وكذلك تخلف عن الاشتراك فيها عدد اخر من الزعماء والقادة المعروفين ، منهم من ينتمي للجبهة الوطنية ومنهم من ينتمي الى جبهة المعارضة على السواء .

أما المظاهرة فقد اخترقت شوارع المدينة القديمة الى ساحة باب الخليل . وعند وصولها الى هذه الساحة استبد الحماس بالكثيرين من الشبان المتظاهرين فعولوا على الانطلاق بالمظاهرة الى خارج باب الخليل ، ولكن كاظم باشا تدخل بنفسه واقنع الشبان بالعدول عن رأيهم ، لانه كان يعرف أن اليهود كانوا مستعدين للاصطدام بالمتظاهرين فور خروجهم من ساحة باب الخليل باتجاه شارع يافا ، وان من شأن مثل هذا الاصطدام تشويه روعة المظاهرة ، وتدمير الهدف الذي قامت عليه ، وهو هدف مجابهة بريطانيا مباشرة . وواصلت المظاهرة سيرها داخل المدينة الى الباب الجديد ، حيث كان مقررا أن تخرج منه باتجاه دار الحكومة في باب العمود .

أما الحكومة فان قواتها لم تتعرض للمتظاهرين ، في داخل المدينة ، ولكنها حشدت في خارج الباب الجديد قوة اضافية كبيرة من رجال الجيش والشرطة مسلحين بالهراوات الغليظة ، وعددا من (الفرسان) الانكليز ، مدججين بالسلاح ، وهم يمتطون جيادهم الضخمة ، لمنع المظاهرة من الخروج من المدينة القديمة . فلما رأى المتظاهرون هذه القوات البريطانية المحتشدة ثارت ثائرتهم واندفعوا بحماس نحو ساحة باب الجديد الخارجية وهم ينادون بسقوط بريطانيا وقواتها الغاشمة .

وكان جمال الحسيني يمسك بذراع موسى كاظم الحسيني اليمنى ، واميل الغوري (صاحب هذه المذكرات) يمسك بذراعه اليسرى ، وحولهم عدد من الشبان الصناديد ، واعضاء اللجنة التنفيذية المشتركين في المظاهرة . فلما وصل الباشا — وما زال على رأس المظاهرة — أمام ساحة الباب الجديد ، تقدم منه الميجور وينرايت البريطاني (مدير شرطة لواء القدس) ، وهو كبير الجثة وطويل القامة ويحسن التحدث باللغة العربية . تقدم من كاظم باشا

وطلب اليه فض المظاهرة . فرفض الباشا طلب وينرايت وسار بخطوات ثابتة نحو صفوف القوات العسكرية المحتشدة مصمما على اختراقها . . فانقض عليه وينرايت وعدد من كبار الضباط الانكليز وانتزعوه بالقوة من بين ايدي الشباب وحملوه الى مدرسة الفرنسيسكان (فراديكو) خارج الباب الجديد ، ثم هاجم الجند البريطاني المتظاهرين بالهراوات الغليظة وراحوا يعملون فيهم ضربا لمنعهم من الخروج من الباب الجديد ، فثبت المتظاهرون في وجه القوة الغاشمة واخترق جمال الحسيني ومن حوله من المتظاهرين صفوف الجند ، رغم تعرضهم للضرب وتهديد الفرسان باطلاق النار ارهابا . وواصلوا سيرهم نحو باب العمود . فصدرت عندئذ الاوامر الى القوات البريطانية لاطلاق النار على الشعب الاعزل من كل سلاح ، ولكن الشعب لم ينهزم ، ولم يتراجع . فوقع اصطدام عنيف بين الانكليز والمتظاهرين الذين جعلوا يخلعون نعالهم — وكانت سلاحهم الوحيد — ويقذفون بها الجنود ! وجرح ٣١ من المتظاهرين، وعلى الرغم من همجية الجنود الانكليز فان عددا آخر من المتظاهرين استطاعوا اختراق صفوف القوة البريطانية واللحاق بالمظاهرة التي غدا جمال الحسيني يتولى قيادتها .

(وقد اصيب وجرح في معركة (الباب الجديد) من اعضاء اللجنة التنفيذية جمال الحسيني وعوني عبد الهادي وعزة دروزة والفريد روك وموسى الصوراني واميل الغوري ، اصيبوا بجراح وبضربات شديدة من هراوات الجنود . . .) .

وكانت النساء العربيات قد شكلن بدورهن مظاهرة مستقلة ، فلما وصلت الباب الجديد هاجمها الانكليز بالقوة لفضها . ولكن المتظاهرات استطعن اختراق صفوف الظالمين ، وقد اصيب عدد منهن بجراح ، ومواصلة السير نحو دار الحكومة في باب العمود .

ووصل المتظاهرون والمتظاهرات الى ساحة باب العمود ليجدوا قوة بريطانية ضخمة اخرى في انتظارهم لفض المظاهرة والحيلولة دون وصولها الى دار الحكومة . فوقع اصطدام اخر شديد بين المتظاهرين والمتظاهرات من جهة وبين الانكليز من جهة اخرى ، اطلق الجنود خلاله النار على الشعب فجرحوا ١٧ متظاهرا و ١١ متظاهرة .

وأخيرا ، وقد حل الظلام ، تفرق المتظاهرون بعد أن نفذوا برنامج المظاهرة تنفيذا كاملا .

بعد انفضاض المظاهرة مساء ، توجه اعضاء اللجنة التنفيذية الذين اشتركوا فيها ، وعدد من الشبان الى بيت موسى كاظم ، وعقدوا فيه اجتماعا للبحث في موضوع المظاهرة القادمة . وكان موسى كاظم قد نقل إلى بيته من مدرسة دير الفرنسيسكان (فراديكو) حيث لازم فراشه بسبب ما كان يعانيه من تعب وما اصابه من كدمات في جسمه عندما انقض عليه الضباط الانكليز وانتزعوه بالقوة من وسط المتظاهرين ، على أن الباشا ما أن علم بالاجتماع في بيته حتى غادر فراشه الى قاعة الاجتماع ، فهنأ الشعب بنجاحه وتصميمه ودعا المجتمعين بحماس شديد الى الاستعداد لاجراء المظاهرة الثانية في مدينة يافا يوم الجمعة في ٢٧ تشرين الاول ١٩٣٣ . فتمت الموافقة على ذلك بالاجماع .

موقف السلطة

ظن الانكليز أن اعتداءهم بقوة الحديد والنار على مظاهرة القدس ، سيكره العرب على اعادة النظر في قرار التظاهر الدوري ، لذلك فقد راعهم تصميم الشعب على التظاهر وهالهم القرار الذي صدر في بيت الزعيم الشيخ . فاجرى المندوب السامي وكبار رجال الحكومة اتصالات جديدة مع كاظم باشا وزعماء البلاد لاقناعهم بالعدول عن قرار التظاهر ، واعربوا لهم عن استعداد الحكومة للنظر بجدية واهتمام الى مطالب العرب ووجهات نظرهم . ولكن هذه المحاولات البريطانية ذهبت ادراج الرياح ، حيث تمسك العرب بقرارهم واعربوا عن تصميمهم على تنفيذه مهما كلفهم الامر ... حينئذ اذاعت الحكومة بلاغا رسميا تنذر فيه الشعب باستعمال القوة لفض اية مظاهرة تجري في البلاد . فرد موسى كاظم باشا على بلاغ الحكومة ببيان اصدره في ٢٣ تشرين الاول يدعو فيه الشعب الى الاضراب العام في فلسطين والتظاهر في مدينة يافا في اليوم المحدد ، وقال في بيانه انه يحمل الحكومة مسئولية كل ما قد ينجم عن موقفها المتعنت من اضرار وسفك دماء .

وتوترت الاوضاع في البلاد ، وازداد هياج الشعب على الحكومة . فحاولت من جديد تهدئة الشعور الوطني ، فعرضت على موسى كاظم واللجنة التنفيذية اقتراحا ، للخروج من الازمة ، مآله أن تطلب اللجنة من الحكومة ترخيصا باجراء المظاهرة ، وأن تصدر الحكومة هذا الترخيص . ولكن الزعماء رفضوا

هذا الاقتراح وقالوا انه من حق الشعب أن يتظاهر احتجاجا على تصرفات الحكومة وسياستها ، وان ممارسة هذا الحق لا تحتاج الى ترخيص رسمي ! فاعتبرت الحكومة البريطانية رفض القادة والزعماء طلب ترخيص للتظاهر ، بمثابة عمل تمرد وعصيان ، فأعلنت حالة الطواريء في فلسطين وأذاعت بلاغا تقول فيه انها تعتبر اللجنة التنفيذية مسئولة عن تهديد الامن وقطع حبل السلام !

مجزرة ... لا مظاهرة

واعتقد الحكام البريطانيون ، وعدد من « وجهاء » البلاد « وأعيانها » ايضا أن أكثرية الشعب ستحجم عن الاشتراك في مظاهرة يافا ، خوفا من بطش الحكومة وجبروتها . وجدد المسئولون البريطانيون — في اليوم السابق لموعد المظاهرة — مساعيهم لدى الباشا ، للعدول عنها ، وارسلوا من اعوانهم من ينصح الباشا بعدم الاشتراك في المظاهرة بنفسه ، بسبب حالته الصحية وتقدمه في السن ، ولان وجوده على رأس المتظاهرين يعرضه للاذى الشديد ، ويثير حماس الجماهير ويجعله مسئولا عن كل ما قد ينتج عن ذلك من سفك دماء . ومرة أخرى رفض الباشا هذه الوساطات وصمم على تزعم المظاهرة حتى ولو أدى ذلك الى موته !

واصبحت فلسطين يوم الجمعة في ٢٧ تشرين الاول ١٩٣٣ مضربة من اقصاها الى اقصاها ، وهرعت وفود الزعماء والشباب من سائر انحاء فلسطين الى يافا للاشتراك في المظاهرة ، فيما احتشد اهل هذه المدينة الجبارة منذ الصباح الباكر في ساحة الجامع الكبير ، ووصل موسى كاظم باشا ووفد القدس قبيل بدء صلاة الجمعة الى يافا ، ودخل المسلمون منهم الجامع الكبير لاداء الصلاة . وكان هذا المسجد الواسع الكبير يغص على رحبه بالمصلين أما الحكومة فانها حشدت قوة ضخمة من رجال الجيش والشرطة «والفرسان» الانكليز ... في يافا ووزعتها على شوارعها الرئيسية ، وحول الجامع الكبير ، وخاصة في الساحة التي أمام دار الحكومة ، ودعا ضباط بريطانيون — بواسطة المذياع الشعب الى التفرق وعدم التجمهر وانذروه باستعمال القوة اذا لم يتفرق !

وبعد انتهاء صلاة الجمعة خرجت جموع المصلين من الجامع الكبير ، وعلى رأسهم موسى كاظم الحسيني ، وعدد من اعضاء اللجنة التنفيذية ، وزعماء

مدينة يافا الوطنيين ، فانضم اليهم المجتمعون خارج المسجد ، وتوجهوا في مظاهرة كبيرة حماسية نحو الساحة التي تقع أمام دار الحكومة ، حيث حشد الانكليز أكثر من ٥٠٠ شرطي وعشرات الفرسان على خيولهم .. وكانوا كلهم مدججين بالسلاح ..

وجاء حاكم يافا البريطاني ومدير شرطتها العام وطلبا من موسى كاظم باشا فض المظاهرة ولكنه رفض وصمم على السير .. ولما رأى الشعب هذا هاج وماج واندفع بحماس عظيم يسير في مظاهرته ... فانقض الجنود والشرطة والفرسان على الشعب ، بالهراوات والاسلحة ، واطلقوا عليه النار ، ولكن المتظاهرين تغلبوا على القوة الغاشمة واتجهوا نحو دار الحكومة ونادى العديدون منهم باحتلالها . وهنا انهمر الرصاص من الرشاشات والبنادق من الجنود الانكليز الذين كانوا يحتلون مراكز لهم على سطح دار الحكومة وسطوح المنازل المجاورة على المتظاهرين .. فقتل ٣٧ شخصا وجرح نحو ٢٠٠ ... وعلى الرغم من هذه المجزرة ، صمد موسى كاظم باشا في موقعه وقاد من بقي من المتظاهرين حوله ، في شوارع يافا ، فلاحق الجنود الانكليز المتظاهرين واطلقوا عليهم النار .

وفي هذه الاثناء جاء رجل عربي ببزة مدنية (عرف فيما بعد انه يعمل في دائرة الاستخبارات البريطانية) جاء الى موسى كاظم وابلغه أن المستر ريغز (مدير عام دائرة الاستخبارات البريطانية) اصدر اوامره الى بعض الجنود لقتل الباشا وجمال الحسيني والشيخ عبد القادر المظفر واميل الغوري ... ونصح الباشا أن يتوارى هو وهؤلاء عن الانظار ... وفجأة انقض الفرسان الانكليز على من بقي من المتظاهرين واطلقوا النار عليهم ، وبخاصة على الباشا ومن حوله ، فتقدم رجل شهم من ابناء الخليل (من آل قويدر على ما اذكر) ووقف أمام الباشا يتلقى عنه الرصاص ، فسقط قتيلا ، فيما اندفع عدد من المتظاهرين وحملوا الباشا الى دار الجمعية الاسلامية المسيحية . ولاحق الجنود جمالا والمظفر والغوري ، واطلقوا عليهم النار ، ولكن التفاف المتظاهرين حولهم حال دون قتلهم ، فاصيبوا بجراح غير خطرة ... وهنا اندفعت نسوة مسلمات عربيات من الحي القديم في يافا وحملن الاشخاص الثلاثة المذكورين بالقوة واخفينهم داخل الحي ...

وانتهت المظاهرة الساعة الرابعة وكانت حصيلتها ٥٣ شهيدا من العرب ونحو ٢٠ جريح وهلك ٧ جنود انكليز وجرح ٣٧ منهم !

اجتماع ....

وما كادت المظاهرة تنتهي حتى عقد اجتماع في دار الجمعية الاسلامية المسيحية في يافا ، اشترك فيه عدد من اعضاء اللجنة التنفيذية ورئيس واعضاء لجنة الشباب وزعماء مدينة يافا . وقرروا فيه أن تكون المظاهرة القادمة في حيفا بعد اسبوعين ، فداهمت قوة من الشرطة دار الجمعية الاسلامية المسيحية وفضت الاجتماع ، ولكن الشعب علم بالقرار المتخذ فرحب به ، رغم الحوادث الدامية التي وقعت ، ترحيبا حارا .

وعلى الرغم من اصابة موسى كاظم خلال المظاهرة ، والتعب الشديد الذي تحمله ، وألمه الممض لرؤية احد الشبان العاملين تحصده نيران الظالمين وهو يصدها عن صدره ، فقد بقي في يافا يشرف على الوضع ويؤاسي الشعب ولكنه لم يعد يستطع البقاء اكثر ، فنقلناه الى سيارة خاصة تحمله الى القدس ، فأبى الا أن يركب سيارة نقل الركاب الكبيرة (باص) التي كانت تحمل عددا من رجال القدس وشبانها من الذين اشتركوا في المظاهرة . وكان للباشا ما اراد ، واني لاتصوره اليوم كيف كان يحيطنا بعطفه ورعايته ، كالاب الرؤوم ، ويشجعنا ويهون علينا ...

اعتقالات واعمال وحشية

وقررت السلطات ، بموافقة المندوب السامي ، القاء القبض على السادة جمال الحسيني ويعقوب الغصين وسليم عبد الرحمن وادمون روك ومحمد علي الغصين وسعيد الخليل وصليبا عريضة والشيخ عبد القادر المظفر وعزة دروزة ونافذ الحسيني وعبد القادر الحسيني واميل الغوري بتهمة انهم المسؤولون عن المظاهرة وحوادث يافا !

وعلمنا ، ونحن في طريقنا الى الرملة قاصدين القدس ، بهذا القرار ، فرأينا ، وبناء على نصيحة الباشا ، الاختفاء حتى لا نقع في ايدي الانكليز ، فغادرنا الباص أنا ونافذ وعبد القادر ، أما جمال فقد ابى الاختفاء وصمم على مرافقة الباشا الى القدس . فقبض الانكليز عليه في قرية قالونية ، على بعد ٧ كيلو مترات من القدس ، ونقلوه ليلا الى سجن عكا . وسأل ضابط بريطاني موسى كاظم باشا : اين الشبان يا باشا ؟ فأجابه : فتشوا عنهم !

أما في يافا فقد استطاع الانكليز القاء القبض على يعقوب الغصين وسعيد الخليل وسليم عبد الرحمن وادمون روك وصليبا عريضة ومحمد علي الغصين، فنقلوهم الى قيادة الشرطة حيث انهال عليهم الضابط البريطاني (الكابتن فرادى) وزبانيته بالضرب المبرح بالهراوات فضلا عن اللكم (البوكس) . وعلى الرغم من الدماء التي اخذت تنزف من أولئك الوطنيين ، فقد نقلهم الانكليز ليلا الى عكا ... ثم تمكن الانكليز من القبض على عزة دروزة والشيخ المظفر (رغم اصاباته) ، فنقلوهما ايضا الى عكا ...

هياج واصطدامات

وكانت انباء حوادث مظاهرة يافا قد سرت الى سائر مدن فلسطين ، فعم الشعب هياج شديد ، وقامت مظاهرات صاخبة في اللد والرملة وغزة وحيفا وصفد ونابلس وعكا وجنين وغيرها من المدن الفلسطينية ، ووقعت اصطدامات دامية بين المتظاهرين والقوات البريطانية .

الاضراب العام

واصبحت فلسطين ، في ٢٨ تشرين الاول ١٩٣٣ ، مضربة من اقصاها الى اقصاها احتجاجا على السياسة البريطانية واستنكارا للمجزرة التي اقترفتها القوات البريطانية ضد المتظاهرين . فاعلنت الحكومة حالة الطوارىء واكدت عزمها من جديد على استعمال القوة لقمع كل مظاهرة تقوم .

خليل السكاكيني

وحضر موسى كاظم ، رغم مرضه واصابته ، الى مقر اللجنة التنفيذية في القدس ، كما هرع اليه عدد من القادة والزعماء ، فقرروا أن يواصل الشعب الاضراب حتى يتم الافراج عن جميع المعتقلين ، ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن الاستاذ خليل السكاكيني وهو عين من عيون الوطنيين الصادقين ، وكان يشغل منصبا رفيعا في دائرة المعارف الحكومية ، جاء صبيحة هذا اليوم الى دار اللجنة ووضع نفسه تحت تصرف الزعيم موسى كاظم باشا . واجرى مدير المعارف البريطاني (المستر فاريل) اتصالا بالاستاذ السكاكيني وعاتبه لعدم حضوره الى عمله ، فأجاب السكاكيني غاضبا : كان يجب أن يكون

لك من الذكاء ما يجعلك تفهم أن مكاني هو مع الشعب ... وليس معكم (وظل السكاكيني منقطعا عن وظيفته مدة الاضراب ، ثم استقال من خدمة الحكومة ...)

واستمر الاضراب العام مدة اسبوع كامل ، تخللته مظاهرات هنا وهناك ، واخيرا افرجت الحكومة عن المعتقلين وقررت احالتهم الى المحاكمة . فلما عاد المعتقلون الى بيوتهم انهي الاضراب العام ... (جرت محاكمة الاشخاص المذكورين أمام القاضي البريطاني المنفرد .. فقرر ربطهم بكفالات « حسن سلوك » فقبلوا بهذا الحكم ليتمكنوا من اسداء الخدمة لوطنهم وقضيته ، أما الشيخ المظفر فقد رفضه فسجن ستة اشهر) أما كاظم الحسيني فقد ازدادت صحته سوءا واعتلالا ، فانتقل الى اريحا ، وأقام في بيت ابن عمه محي الدين الحسيني في عقبة جبر .

قلق وتوتر

اشتد الشعور الوطني ضد الحكومة البريطانية ، بشكل خطير ، وجعل ابناء الشعب ينظرون الى بريطانيا كعدوتهم الاساسية والاولى . وسادت البلاد حالة من القلق والتوتر ، وبات الجميع يتوقعون حدوث اضطرابات جديدة واسعة النطاق في فلسطين .

ولجأت الحكومة من جديد الى بذل الجهود والقيام بمحاولات متعددة لتهدئة الخواطر والشعور العام في البلاد ، والتخفيف عن حدة نقمة الشعب وكرهه الجديد الشديد للحكم البريطاني .

ولما شعرت الحكومة بأن مساعيها الانف ذكرها لن تعود عليها بالنتائج التي كانت تنشدها ، انصرفت الى محاولة اثارة المنازعات والاختلافات بين الاحزاب والفئات السياسية ، وبعث روح الطائفية الذميم ... وهذه امور سنتحدث عنها ، وعن نتائجها في سياق الحديث .

العدول عن التظاهر

ذكرنا كيف كان من المقرر أن تجري المظاهرة الثالثة في مدينة حيفا .. ولكن ظروفا خطيرة ، وتطورات في آراء بعض القادة والزعماء ، وفئات التجار ،

واقتراب موسم قطف الاثمار الحمضية .. ادت الى تأجيل تنفيذ قرار التظاهر الى وقت اخر ...

سماحة المفتي ..

وفي اواخر شهر تشرين الثاني ١٩٣٣ عاد سماحة الحاج أمين الحسيني الى فلسطين ، بعد جولة في الاقطار الاسلامية استغرقت أكثر من عام . وجرى لسماحته استقبال شعبي منقطع النظير في اريحا ، ثم في القدس ، ساعة وصوله اليها .

وكنت واحدا من الوف المستقبلين ... المحتشدين في رأس العمود بانتظار قدوم المفتي من اريحا بالسيارة ... فلما وصل الى رأس العمود التف حوله الشعب بحماس عظيم ، وسار افراده في مظاهرة شعبية رائعة الى ساحة الحرم الشريف ، والقى سماحة المفتي خطبة من شرفة المجلس الاسلامي الاعلى ، شكر فيها الشعب على حسن استقباله ، وتعهد أمام الله والناس على مواصلة العمل في خدمة الوطن والذود عن حياضه ، وترحم على الشهداء الابرار الذين سقطوا في يافا وغيرها ، وانهى كلمته بقوله : ايها الشعب الكريم ، عول على الصمود والبذل ، فسيطلب اليك قريبا بذل اعظم التضحيات ...

(لم أكن قد رأيت الحاج أمين منذ سافرت الى أمريكا عام ١٩٢٩ ، وأذكر أن سماحته لمحني بين الجماهير يوم وصوله الى القدس ، فأشار لي أن اتقدم منه ، فشققت طريقي بصعوبة حتى وصلت اليه ، فسلم علي وهنأني بسلامة العودة وبما احرزته من نجاح ...)

مظاهرات عامة

حاول القادة والزعماء احياء قرار التظاهر ، وأن تجري المظاهرة الثالثة في حيفا والرابعة في نابلس ، والخامسة في غزة .. ولكن الاوضاع العامة ، واعتبارات محلية في المدن التي كان من المقرر القيام بالمظاهرات فيها ، حالت لسوء الحظ ، دون الاتفاق على خطة معينة ! وقد لمسنا حينئذ أن اصابع الانكليز وتدخلهم .. بشتى الوسائل ومختلف الاساليب .. كان الحائل الاكبر

دون اجتماع الكلمة .

وفي منتصف شهر كانون الاول عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعا في القدس ، تولى ادارته جمال الحسيني (وكان يشغل منصب السكرتير العام للجنة) ، بسبب مرض موسى كاظم باشا ، وقررت اللجنة القيام بمظاهرات عامة في جميع مدن فلسطين في يوم واحد ، وحدد لها اليوم الاول من عيد الاضحى المبارك (الاسبوع الاول من شهر كانون الثاني ١٩٣٤). وقد حفز اللجنة الى اتخاذ هذا القرار عدد من الاعتبارات ، كان في طليعتها (الصعوبات) التي نشأت في وجه تنفيذ قرار القيام بمظاهرات دورية ... واعتقاد الزعماء المسئولين أن قيام مظاهرات في جميع المدن في يوم واحد ، يشغل الحكومة كثيرا ، ويوزع قواتها المخصصة لتفريق المظاهرات .. ويضعف من امكاناتها القمعية !

وقابلت الحكومة هذا القرار بالفزع والقلق ... وفي الحين الذي اعلنت انها لن تسمح بقيام مظاهرات ، وأنها ستلجأ الى القوة لتفريق كل مظاهرة تقوم ... فانها بادرت الى اجراء اتصالات مع الزعماء والقادة لاقناعهم بالعدول عن قرار القيام بالمظاهرات العامة ... فلما لم تنجح محاولات الحكومة وتدخلاتها ، لجأ المندوب السامي الى سماحة المفتي يرجوه « استعمال نفوذه ومركزه الرفيع لاقناع القادة بالرجوع عن قرارهم » . ورد المفتي على رجاء المندوب السامي باعلانه بيانا على الشعب يؤكد فيه تأييده المطلق لقرار اللجنة التنفيذية ، ويهيب به الى القيام بواجباته الوطنية وتحمل مسؤولياته القومية على أكمل وجه ! وترك بيان الحاج أمين رد فعل شديدا في الاوساط الشعبية ، فاندفع الشعب يعرب عن استعداده للتظاهر ، وتحمل كل تضحية تطلب منه في سبيل الوطن ! .

واسقط في ايدي الحكام البريطانيين ... واقتنعوا بأن المظاهرات المقررة ستجري رغم ارادتهم ، وأن بيان المفتي الانف الذكر سيزيد من شدتها وعنفها وقبيل عيد الاضحى المبارك ، اعلن المندوب السامي ، بصورة مفاجئة ، ان السلطات ستسمح بقيام المظاهرات في اليوم الاول من العيد ، على أن تكون مظاهرات سلمية ! فطلب المفتي والقادة من الحكومة عدم السماح لقواتها بالنزول الى شوارع المدن ، وتجنب القيام بأي عمل استفزازي ضد العرب !

وترك تراجع المندوب السامي عن موقفه السابق ، و (عدول) السلطات عن استعمال القوة لفض المظاهرات ... موجة من الحماسة العارمة في

اوساط الشعب ، الذي اعتبر هذا التراجع بمثابة نصر له وفوز لارادته !

ووقعت في اليوم الاول من عيد الاضحى المبارك (مطلع ١٩٣٤) مظاهرات شعبية رائعة في كل من القدس ويافا ونابلس وحيفا وغزة وعكا والناصرة والخليل وصفد ورام‌الله وبيت لحم وجنين واللد والرملة وسائر المدن والقرى (الكبيرة) الفلسطينية . ولم يتدخل الانكليز ... ولم تظهر قواتهم المسلحة في اية مدينة أو قرية ، في حين تولى القادة وزعماء الشباب الاشراف على الامن والنظام ... فانتهت هذه المظاهرات التاريخية بسلام ...

٠١٤

ادت حوادث عام ١٩٣٣ ، ومظاهرتا القدس ويافا ، ومن بعدهما مظاهرات عيد الاضحى العامة ، ادت الى ترسيخ روح التمرد والعصيان على الحكم البريطاني في نفوس الشعب ، وكرست مبدأ توجيه الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ضد هذا الحكم . وانصرف الوطنيون الصادقون والشبان المتوثبون المؤمنون يبذلون الجهود لبلوغ هدف التأهب والاعداد لمعركة ضارية ضد الاعداء . وسيأتي الحديث عن هذه الامور فيما بعد .

في ميدان الصحافة

ان انهماكي المتواضع في العمل السياسي لم يثبط من عزيمتي على ولوج ميدان الصحافة ، فواصلت الكتابة في (الجامعة العربية) ، وبعد مدة اختارني الصديق صاحبها رئيسا لتحريرها .

وانطلقت اعد العدة لاصدار صحيفة اسبوعية ، باللغة الانكليزية ، للدعاية لقضية فلسطين والدفاع عنها في الاوساط الاجنبية ، فقد كانت حرارة «عقلية» فوائد الدعاية لا تزال تلازمني في ذلك الحين ... ونظرا لعدم توفر المال لدي للقيام بهذا المشروع ، فقد استقرضت من البنك العربي بالقدس مبلغ الف جنيه فلسطيني ، بكفالة نسيبي السيد الياس السلطي ، احد كبار تجار القدس . وفي اواخر ١٩٣٣ اصدرت الصحيفة الاسبوعية المنشودة واسميتها « الاتحاد العربي » تيمنا باسم الوحدة العربية التي نشأنا على حبها والايمان بها .! واستطيع أن أقول أن هذه الجريدة ، وكانت ذات ست صفحات من الحجم الوسط ، لاقت رواجا كبيرا في الاوساط العربية والاجنبية على السواء . وأفادت ، الى بعض المدى ، في اطلاع الاجانب على وجهة نظر العرب ومطالبهم . ولم تكن الحكومة مرتاحة اطلاقا لصدورها ، فانطلقت تحاربها وتقاومها بشتى الوسائل والاساليب ، من مثل «قطع» الاعلانات الرسمية عنها ،

وتقديمي للقضاء ٥ مرات بتهمة الحض على كراهية الحكم والدعوة الى الثورة والاضطراب ... وقد برأتني المحاكم المختصة في جميع هذه القضايا ، التي كان يدافع عني فيها متطوعا مشكورا المرحوم المحامي اللامع فخري الحسيني (شقيق سماحة المفتي) .

وحاولت الحكومة ومن كانت « توسطهم » من كبار موظفيها العرب ، اقناعي باتباع ما وصفوه بسياسة « الاعتدال والمسايرة » ، وعدم التعرض للحكم البريطاني والاكتفاء بمقاومة « الحركة الصهيونية » ... وقيل لي ان السير على هذه الخطة يوفر علي متاعب كثيرة ، ويخفف من نقمة الانكليز علي ، ويفسح أمامي مجال الحصول على « الاعلانات الرسمية » لصحيفتي ، واشتراك عدد كبير من موظفي الحكومة البريطانيين فيها .. (وأحسب أن الانكليز كانوا يحاولون اغرائي بهذه الوعود ..)

ولكني رفضت الموافقة على ادخال اي تعديل على خطة الجريدة وسياستي، وقلت للوسطاء انني اوثر أن اغلق الصحيفة ولا اقبل بالعروض المطروحة .. فاتهمني « الوسطاء » بالبلاهة ... بل بالجنون ... ولا أنكر اطلاقا انني كنت اتوقع أن تناصرني الحركة الوطنية وقيادتها في موقفي ، وأن توفر لي بعض المال لاستطيع مواصلة العمل ... ولكن أملي هذا مني بخيبة عظيمة .. فلا الحركة الوطنية والمتولون قيادتها قدموا لي اية مساعدة ، ولا « الوطنيون » بادروا الى نصرتي ... في حين كان الكثيرون منهم « يمنون » علي بقيمة الاشتراك التي كانوا يدفعونها .. بعد مراجعات كثيرة كان يقوم بها المحصلون !

ووقعت بسبب ذلك من ناحية ، ومن ناحية اخرى بسبب ارتفاع اسعار الورق والطباعة ، وانعدام مصدر الاعلانات بالجريدة ، وقعت في أزمة مالية حادة ، وتضاعفت ديوني ... فاضطررت مكرها الى التوقف عن اصدار صحيفتي الانكليزية ، بعد أن استمر صدوررها مدة عام واحد .

مجلة الشباب

شعرت بحزن شديد لاضطراري لتوقيف اصدار صحيفة « الاتحاد العربي » باللغة الانكليزية ، ولكنني على الرغم من قسوة التجربة المريرة التي صدمتني نتائجها ، فاني لم اتخل عن الصحافة ولم اهرب من ميدانها الشائك المضني ،

فاصدرت مجلة اسبوعية باللغة العربية ، باسم مجلة « الشباب » ، واني اعترف بأني كنت متطرفا جدا ومندفعا للغاية في كتاباتي وتعليقاتي في «الشباب» .. واقول،بكل تواضع وفخر ، بأنهاكانت قوية صريحة في دعوتها الى مقاومة الحكم البريطاني ، ونفيرا صادقا في حث الشباب الفلسطيني على خوض معركة الوطن . وتخصصت المجلة ، في مقاومة محاولات اليهود لشراء الاراضي واستملاكها ، ودعوة الشعب الى الاحتفاظ بها والضرب بأيدي من حديد على كل من يفرط بذرة من تراب فلسطين . فتولت المجلة شن حملات عنيفة على باعة الاراضي والذين كانوا يسمسرون عليها ، وفضح اعمالهم وكشف الستار عن الصفقات المشينة التي كانوا يعقدونها في الظلام ، وبالسر والكتمان ، مع السمسار اليهودي الشهير « خانكين » واخرين من طرازه ، ومنظمات (البيكا) و (الكيرين كايمت) و (الكيرن هايسود) وغيرها من الجمعيات والمؤسسات اليهودية التي كانت تبذل المبالغ الطائلة (وكانت خيالية في أكثر الصفقات) لشراء اراضي العرب وجعلها ملكا (وقف) للشعب اليهودي بتسجيلها باسم الصندوق القومي اليهودي ! .

وكان من بين الاسر والاشخاص الذين هاجمتهم مجلة (الشباب) وبينت بالوثائق والارقام أن بعضهم باع اراضيه الى اليهود ، وأن بعضهم الاخر سمسر عليها لحساب الاعداء : محمد داود ، نخلة عبد الله ، محمد الزيناتي ، عبد الفتاح درويش ، سعيد عواد الخوري . جميل الابيض ، جميل الكعكة ،صدقي العلمي ، سلامه بن سعيد ، سلامة الحاج ابراهيم ، أحمد القاسم ، واسر سرسق وسلام والتيان واليوسف والجزائري والمطران والشماع ، والى جانب هذا كله فان مجلة الشباب وقفت موقفا متشددا (ومتطرفا) من الفئات والاشخاص الذين كانوا يعملون ضد الحركة الوطنية ويسيرون في ركاب السياسة الاستعمارية البريطانية ... وكانت تذكرهم باسمائهم وتنشر البينات والحقائق عن ادوارهم ...

وكان من البديهي ان يغضب الانكليز ، او بالاحرى أن يزدادوا نقمة على شخصي ، بسبب خطة « الشباب » وسياستها ، لا سيما بعد أن لمسوا انها اخذت تحتل مركزا مرموقا في الاوساط الشعبية .. لذلك فانهم راحوا يضايقونني بشكل عدواني لئيم . فحاربوا المجلة بمنع « الاعلانات الرسمية » عنها ، وتحذير موظفي الحكومة العرب من الاشتراك فيها ، والضغط على وكالات الاعلان الاجنبية لعدم نشر اعلاناتها في « الشباب » . فضلا عن هذا فقد ساقتني الحكومة امام المحاكم ست مرات بتهمة اثارة الشعب ضد

« السلطات الشرعية » الحاكمة ، وحضه على الثورة والتمرد ... وعطلت باوامر ادارية صادرة عن المندوب السامي صدور المجلة ثلاث مرات ..

ومن ناحية اخرى تصدى انصار الحكومة من العرب ، ومعارضو الحركة الوطنية ، وباعة الاراضي والسماسرة ، تصدوا بكل قواهم ووسائلهم لمقاومة المجلة ومحاولة القضاء عليها . وحدث أن المجاهدين اغتالوا عددا من باعة الاراضي والسماسرة وبعض الموظفين العرب في دائرة الاستخبارات البريطانية ، وكانت « الشباب » قد فضحت اعمالهم وذكرتهم باسمائهم ، فحملني أهلهم وذووهم ، فضلا عن اعداء الوطن ، مسئولية اغتيالهم ..

وقد رفع علي هؤلاء سلسلة من القضايا أمام المحاكم البريطانية بتهمة الذم والقدح بهم والاساءة الى سمعتهم .. وبرأتني المحاكم في بعض هذه القضايا، وحكمت علي بغرامات مالية في بعضها الاخر !

وضاق الاعداء وانصارهم ذرعا بمجلة « الشباب » وهالهم صمودي في الميدان ، رغم الصعوبات والعقبات الكثيرة التي اقاموها في وجهي ، وراعهم عجزهم عن اسكات « صوت الشباب » ، فقرروا العمل على تصفيتي جسديا .. فراحوا يبيتون المؤامرات لاغتيالي ، ولكني استطعت كشف امرها واحباط اغراضها ... غير أن الاعداء والعملاء لم يكفوا اذاهم عني ، فدبروا مع شخص معروف بالاجرام (هو محمود علي من قرية كفراشوع ، في قضاء رام الله) ليتولى هذه العملية الاجرامية ، وانقدوه مبلغ (٥٠٠) جنيه فلسطيني « على الحساب » وتعهدوا له بدفع (١٠٠٠) جنيه اخرى بعد تنفيذ المؤامرة !

فعندما غادرت مكاتب مجلة « الشباب » عند الغروب في احد ليالي اذار ١٩٣٥ وركبت سيارتي وجعلت ادير محركها ، تقدم مني رجل ضخم الجثة ملثم (هو محمود علي المذكور)وسألني عن الوقت .. فأدركت قصده ولكنني اردت الاحتيال عليه .. فابتعدت عنه قليلا بحجة التطلع الى ساعتي لمعرفة الوقت .. فما كان منه الا أن انقض علي بعصا غليظة ، يضربني بها على وجهي ورأسي ، ثم انتضى سكينا وحاول طعني بها ، ولكني تفاديت السكين ثم قفزت من السيارة وهجمت عليه وسددت الى وجهه بضعة لكمات ، واستوليت على سكينه .. وهددته باطلاق الرصاص عليه (ولم أكن احمل مسدسا ..) وكان بصحبتي ابن شقيقتي وكان لا يتجاوز الاحد عشر عاما فأوقف محرك السيارة ... فما كان من الجاني الا أن اطلق لساقيه الريح ،

وهرب متجها الى حي (شميدت) على مدخل الاحياء اليهودية .. فركضت خلفه رغم اصابتي محاولا الامساك به . وكان نافذ الحسيني واستاوري السكاكيني وشقيقي رجائي (وكان صغير السن حينئذ) قد سبقوني في مغادرة مكاتب المجلة ، ولكنهم لم يكونوا قد ابتعدوا عنها فناديت عليهم بصوت عال ، فهرعوا الى نجدتي .. ولكني كنت قد غادرت المكان لاحقا بالمعتدي .. فلحقوا بي بدورهم ... وبعد تفتيش دقيق في حي شميدت عثرت على محمود علي مختبئا في بستان يملكه احد اخواننا السريان ، فهاجمته وانهلت عليه ضربا ، «بباكور» من المحلب كنت احمله .. فادعى انه (عامل) في البستان ولا يدري لماذا هاجمته ، فسقته الى الشارع العام وعرفته على حقيقته تحت نور الكهرباء الساطع ... وكان اصدقائي قد وصلوا الى المكان ، فقبضنا عليه وقررنا تسليمه الى الشرطة ! (واشهد لوجه الله ان محمود علي كان وفيا لمن ارسلوه ... حيث طلبنا اليه أن يذكر اسماءهم ، فنكتفي منه بذلك ، فلا نسلمه الى الشرطة ... ولكنه ابى وزعم اني اعتديت عليه من« الباب الى الطاقة » .. واخذه نافذ الحسيني جانبا وعرض عليه خمسين جنيها ليذكر اسماء الذين كلفوه بقتلي ، وتعهد له ايضا بدفع مبلغ عشرة جنيهات شهريا له .. ولكن محمود علي رفض البوح باسماء المتآمرين وظل يزعم اني أنا الذي اعتديت عليه بدون سبب .. عندئذ اضطررنا الى تسليمه للسلطة) .

واصبت بجراح في وجهي ورأسي ، ولكن « الضربة » جاءت سليمة ! وانتشر الخبر في القدس ، فهرع الى منزلي العديدون من اهل المدينة ، يهنئونني على نجاتي ويعلنون سخطهم على المؤامرة والجناة .. واذكر أن جمال الحسيني كان مريضا وملازما فراشه في بيته ، فلما بلغه نبأ الاعتداء غادر فراشه ليلا وزارني في بيتي مهنئا بسلامتي .

وافتقدت وسط الجماهير التي كان افرادها يتوافدون على بيتي ، الاصدقاء نافذ الحسيني وابراهيم درويش وعبد القادر الحسيني ، فاستغربت عدم مجيئهم الى منزلي ، سيما أن نافذا نفسه كان موجودا عند وقوع الحادث .. ولكني علمت فيما بعد انهم توجهوا فور وقوع الحادث الى قرية قالونية ، القريبة من القدس ، حيث كان سماحة المفتي يمضي بعض ايام الصيف ، وابلغوا الحاج أمين النبأ ، وكانوا جد متأثرين ومتهيجين .. فهدأ المفتي من روعهم وطلب اليهم الانطلاق الى الاحياء الشعبية في القدس القديمة لتهدئة شعور الشباب والحيلولة دون وقوع اي اعتداء ، على سبيل الثأر ، على أي شخص من الاشخاص المعروفين بانتمائهم الى الجبهة المعارضة ، واكد لهم أن

الاعداء يريدون اشعال فتنة بين الناس ، وأن مصلحة الوطن تحتم تفويت الفرصة عليهم . وكان سبب عدم مجيء هؤلاء الاخوة الثلاثة الى بيتي انشغالهم بالمهمة التي كلفهم بها الحاج أمين ... وقد نجحوا في ادائها . وفي صبيحة اليوم الثاني تفضل سماحته بزيارتي في البيت مهنئا ، وقال انه يعتبر ان الاعتداء السافل الذي وقع هو اعتداء على الحركة الوطنية وجميع الوطنيين .

وسيق المجرم الى المحاكمة ، فقضت بسجنه ١٠ اشهر فقط .. واذكر ان نافذا وبعض الاصدقاء من آل الريماوي كانوا يرسلون له الطعام والهدايا الى السجن ، ويقدمون له المال ، على أمل أن يذكر لهم اسماء الذين كلفوه باقتراف الجريمة ، ولكنه ابى ذلك .. ولما انتهت مدة سجنه خرج منه بصحبة أهله وذويه وجلسوا في مقهى بباب العامود ، وهناك القى عليه احد الشبان من بلدة بيت ريما ، قضاء رام الله متفجرة سببت له جراحا ..)

وعندما شكلت الحكومة البريطانية في ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ جماعات مسلحة باسم « فصائل السلام » لمقاومة المجاهدين ، قبض الثوار على عدد منهم ، واصدرت محكمة الثورة حكما باعدامهم جزاء خيانتهم لوطنهم وغدرهم بالثورة .. وكان بينهم محمود العلي المذكور . ولكن عبد القادر الحسيني أمر بعدم اعدامه حتى لا يظن أحد بأنه اعدم لانه اعتدى علي وأمر باطلاق سراحه ، مقابل تعهده بعدم مقاومة الثورة فعاد الى بيته لينضم من جديد الى فصائل السلام .. وقبض عليه المجاهدون مرة أخرى ... وأنزلوا به عقوبة الاعدام)

وواصلت مجلة « الشباب » صدورها ، على الرغم من اشتداد مقاومة الحكومة لها ومحاولات الفئات المعارضة للحركة الوطنية وباعة الاراضي والسماسرة للقضاء عليها وعلى صاحبها .. ولما لم تعد هذه المقاومة والمحاولات تجدي فتيلا في بلوغ اهدافها ، اصدر المندوب السامي البريطاني امرا اداريا بالغاء الامتياء الممنوح لي لاصدار المجلة .. فتوقفت عن الصدور في شهرها الحادي عشر .

ولا يسعني وأنا اتحدث عن مجلة « الشباب » الا ان اسجل خالص الشكر والامتنان للعديد من الاصدقاء الشبان الذين تطوعوا لخدمة المجلة ، وخدموها أحسن خدمة خلال صدورها .. وفي طليعتهم يوسف فرنسيس ، وتحسين كمال ، وجورج صالح الخوري ، وعبد الله نعواس ، وصالح الريماوي ، وخالد الفرخ ، وطاهر الفتياني . كما أذكر بالتقدير الصادق والشكر العميق

الشيخ محي الدين الحسيني واولاده مصطفى ونافذ وعلي ، الذين يعود الفضل في استمرار صدور المجلة الى مساعدتهم المالية التي كانوا يقدمونها لي ، وهي مساعدات لا انساها مدى الحياة .

جريدة الوحدة العربية

وكنا معشر الشباب نشعر بأن الحركة الوطنية في حاجة ماسة الى صحيفة عربية يومية ، تمثل الفكرة الوطنية الصحيحة وتنطق باسم الشعب وتدافع عن مصالحه وتحمل لواء الاتجاه السياسي الجديد نحو التمرد والعصيان ومحاربة الحكم البريطاني مباشرة . فباستثناء جريدة « الجامعة العربية » لصاحبها منيف الحسيني ، فانه لم يكن بين الصحف العربية الفلسطينية ، على كثرتها حينئذ ، من تتوفر فيها الشروط والعوامل الاساسية التي يصح الاعتماد عليها من ناحية قومية ووطنية .. في حين كان معظم هذه الصحف تسير في فلك السياسة البريطانية ومقاومة الحركة الوطنية وقيادتها ، فقررنا ، بعد مشاورات ومباحثات طويلة ، اصدار مثل هذه الصحيفة المنشودة . وكلفني اخواني الشباب بأن اتولى بنفسي هذه المهمة ، متعهدين بتقديم كل ما يستطيعون تقديمه من المساعدات الضرورية .

ونظرا لان صدور جريدة يومية يحتاج ، اول ما يحتاج اليه ، الى مطبعة خاصة بها ، فقد استدنت مبالغ جديدة من البنك العربي بكفالة نسيبي الياس السلطي ، وحصلت على بعض المال من الشيخ محي الدين الحسيني واولاده واشتريت مطبعة قديمة (ولكنها صالحة للاستعمال) وما يلزمها من حروف والات وقطع حديدية الخ .. وبعد جهود عظيمة ، حصلت من الحكومة على رخصة لاصدار جريدة يومية باسم (الوحدة العربية) ... وهو الاسم الذي شغفنا به منذ ايام الطفولة .

وصدرت (الوحدة العربية) في ايار عام ١٩٣٥ ، فأقبل عليها الشعب اقبالا منقطع النظير ، فلم يمض على صدورها أكثر من عشرين يوما حتى تجاوز عدد ما كانت تطبعه من نسخ يوميا ، مجموع ما كانت تطبعه الصحف العربية الفلسطينية يوميا .

لكن الحكومة البريطانية وقفت (للوحدة العربية) بالمرصاد ، تماما كما وقفت في الماضي من جريدتي باللغة الانكليزية ومجلتي (الشباب) ، فانطلقت

تقاومها وتحاربها بكل شدة وضراوة ، وساقتني الحكومة في حزيران ١٩٣٥ أمام القاضي البريطاني المنفرد ، بتهمة تحريض الناس على كراهية الحكم البريطاني . فحكم علي القاضي (المستر بوديللي) بغرامة قدرها (٢٠٠) جنيه فلسطيني ...

وظلت جريدة (الوحدة العربية) في تقدم مستمر ، وازدادت انتشارا ، فصارت اعدادها تباع ايضا في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد ، وجعل كبار الرجال العرب وكتابهم ينشرون فيها المقالات والتعليقات ... واذكر من هؤلاء الامير شكيب ارسلان والامير عادل ارسلان واسعد داغر وخليل بيدس وسامي السراج وحبيب جاماتي وتوفيق دياب وعبد القادر المازني ..واوغر تقدم الجريدة وانتشارها ، وما غدا لها من تأثير قوي على الراي العام ، صدر الحكومة وصدور انصارها واتباعها علي ، فازدادوا امعانا في مقاومتها ، ومحاربتها ، واخذوا يتربصون بها الدوائر للقضاء عليها .

ابو جلدة والعرميط

كانت قد ظهرت ، في اواخر ١٩٣٤ ، عصابة في جبل نابلس ، بقيادة شخص من قرية طمون يعرف باسم (ابو جلدة) جعلت تقوم باعمال السلب والنهب وقطع الطرق . وكان من ابرز رجال هذه العصابة رجل من قرية قبلان اسمه (العرميط) . وتعقبت القوات البريطانية هذه العصابة وطاردتها ، ولجأت الى شتى الوسائل للقضاء عليها . فوقعت سلسلة من الاصطدامات بين (ابو جلدة) ورجاله وبين قوات الامن العام ، قتل خلالها بعض الجنود البريطانيين ، وعلى الرغم من اتسام (ابو جلدة) وعصابته بأعمال «التشليح» والنهب وقطع الطرق ، فان الشعب ، بوجه عام ، جعل يبدي عطفا على (ابو جلدة) ورجاله ، لانهم كانوا يقاتلون قوات الحكومة .

وجرى اتصال بين « التنظيم السري » الفلسطيني — الذي اشرت اليه في فصل سابق — وبين ابو جلدة وجماعته ، نجم عنه قيام اتفاق (سري) خاص .. مآله أن يتخلى أبوجلدة مقابل مساعدة التنظيم عن أعمال السلب والنهب وقطع الطرق ، والانصراف كلية الى ازعاج السلطات البريطانية ومحاربة قواتها والسطو على مراكز الشرطة والجيش ... (وهذا الاتفاق السري مع ابو جلدة ظل مكتوما لم يعرف به احد غير المتعاقدين .. واحسب أن حديثي

هذا هو أول مرة يكشف فيها النقاب عنه) ، وبالفعل انصرف ابو جلدة ورجاله الى مقاتلة السلطات فحسب ، وتوقفت جميع اعمال السلب والنهب ، وبسبب هذا انضم الى العصابة سبعة اشخاص اخرون من رجال القرى ، في حين ازداد الشعب عطفا على هذه العصابة وراح الكثيرون يؤيدونها بالسبل المستطاعة ، وغدا ابو جلدة ، بعد اشتداد المعارك بين العصابة وبين قوات الحكومة ، غدا في نظر الشعب بطلا وطنيا ، الامر الذي اقلق الانكليز كثيرا، وجعلهم يضاعفون جهودهم للقضاء عليه والتخلص من عصابته .

وتولت جريدة (الوحدة العربية) نشر الانباء والتعليقات عن ابو جلدة واعماله ، بشكل انطوى على معنى الثناء عليه والاشادة ببطولته . فأقامت الحكومة (النيابة العامة) قضية على (الوحدة العربية) بتهمة التحريض على « السلطات الشرعية » الحاكمة .. وتشجيع (اعمال السلب والنهب) !

واصدرت المحكمة قرارا بتغريمي مبلغ (١٠٠) جنيه فلسطيني ووقف صدور الجريدة مدة سبعة ايام !

واخذ العديدون من الشباب يهتفون — في المواسم الوطنية والاجتماعات العامة — لابي جلدة ويحيونه ، واحسب انهم كانوا مدفوعين الى هذا المسلك بكرههم للانكليز اكثر من عطفهم على ابو جلدة ! فضاعفت الحكومة جهودها وازدادت امعانا في عزمها على القضاء على عصابته ! ولما اعيتها الحيل في القبض على ابو جلدة (خاصة بسبب حماية القرى والقرويين للعصابة)لجأت الى وسيلة غادرة بشعة ، حيث استعانت ببعض انصارها واعوانها فيمنطقة نابلس ، للتخلص من زعيم العصابة . وكان بعض القرويين يرسلون الطعام (سرا)الى رجال العصابة ، فأرسل احد اعوان السلطة طعاما الى ابوجلدة، ووضع فيه سما .. فبعد أن تناوله ببضعة دقائق خر صريعا ! فأصدرت الحكومة بلاغا رسميا تعلن فيه أن قواتها تمكنت من ابو جلدة وقتلته عندما رفض الاستسلام . ولما كانت جريدة (الوحدة) قد وقفت على حقيقة ماجرى، فانها نشرت مقالا فندت فيه بلاغ الحكومة ، وكشفت النقاب عن تسمم ابو جلدة ، واتهمتها بالغدر والخديعة ! وفي اليوم الثاني لنشر هذا المقال ، تعرضت الصحف الفلسطينية (المعارضة) لجريدة الوحدة بحملات قاسية ، كان ابشعها مقالا نشرته جريدة (فلسطين) بقلم رئيس تحريرها يوسف حنا ! فقدمتني النيابة العامة الى المحكمة ، ولكن رئيسها (قاض بريطاني) اصدر قرارا بتبرئتي من التهمة المسندة الي ، ودافع عن حرية الصحافة !

اغلاق الوحدة العربية !

ورست احدى البواخر الاجنبية في ١٧ من شهر تشـــرين الاول ١٩٣٥ في ميناء يافا ، وافرغت الى البر حمولة تتألف من (٥٣٤) برميل ، ذكـــر (المانفستو) ـ بيان الشحن ـ الخاص بها انها تحتوي على (اسمنت) ، وانها مرسلة الى احدى الشركات اليهودية في تل ابيب . وفيما كان العمـــال (الحمالون) في الجمرك ينقلون هذه البراميل الى سيارات الشحن من قاعـــة الجمرك ، سقط احدها على الارض وتحطم .. فتبين أنه يحتوي على اسلحة واعتدة وليس على اسمنت . فأوقف ضباط الجمرك نقل البراميل ، وقاموا بمعاينتها فوجدوا انها تحمل أسلحة واعتدة .. فتدخلت السلطات البريطانية المسئولة بالامر و (لفلفت) الموضوع ، وتسترت على الحقيقة .. وسمحـــت بنقل البراميل الى تل ابيب ومنها الى عدة مستعمرات يهودية ، واصدرت الحكومة بلاغا رسميا نفت فيه « الاشاعة » التي راجت ووصفت حمولـــة البراميل بأنها اسلحة واعتدة !

ولم تستطع جريدة (الوحدة العربية) السكوت عن هذه الصفقـــة ، والفضيحة البشعة التي ارتكبتها الحكومة بالتستر عليها . فنشرت مقـــالا افتتاحيا بعنوان : « أرواحنا ايتها السلطة » اتهمت فيه الحكومة البريطانيـــة بتسليحها لليهود واعدادهم عسكريا للاعتداء على الفلسطينيين وقتلهم وذبحهم، ودعا هذا المقال ابناء الشعب الى التسلح والاستعداد ، بشتى الوســـائل ومختلف الطرق ، والى عدم احترام قوانين السلطة وانظمتها ، لان واجـــب الدفاع عن النفس ، هو فوق كل قانون ونظام ... ونشرت (الوحدة) ايضا، في نفس عددها هذا ، تحقيقا صحفيا خطيرا كشفت فيه النقاب عن « الصفقة » المذكورة ، ومرسليها ، والجماعات المرسلة اليها ، وعلاقـــــة الانكليـــــز بها وضلوعهم مــــع مهربيها ، وتضمـــن هذا التحقيق الصحفي عدة وثائق ومستندات تؤكد صحة ما جاء فيه .

وجن جنون الحكام الانكليز لمقال الجريدة الافتتاحي والتحقيق الصحفـــي عن الصفقة ، فاصدروا امرهم الى رجال الشرطة بمصادرة اعداد الجريـــدة من البريد والاسواق ، وبختم دار (الوحدة العربية) بالشمع الاحمر ... وكنت اتوقع بعد هذه الاجراءات التعسفية أن تقدمني الحكومة الى المحاكمة أمـــام القاضي البريطاني المنفرد ، عملا بقوانينها التي كانت قائمة ، ولكنها بدلا من

ذلك لجأت الى « القوانين الاستثنائية وانظمة الطواريء » فأصدر المنـــدوب السامي بموجبها أمرا بالغاء امتياز (رخصة) الجريدة ، واغلاق مطابعهـــا ومكاتبها .

جريدة الاوقات العربية

بعد مرور بضعة ايام على صدور قرار المندوب السامي الانف ذكـــره ، سمحت لي السلطات باعادة فتح مطبعة جريدة (الوحدة العربية) لاعمـــال الطباعة التجارية فحسب ... ولكني شعرت بوجوب اصدار جريدة جديدة، كما شعر بذلك اخواني واصدقائي الشباب ، لا سيما وأن الزميلة (الجامعة العربية) ، وقد اصابها من اضطهاد السلطة ومقاومتها لها مثل ما اصـــاب الصحف التي أصدرتها ، اضطرت الى التوقف عن الصدور .

ونظرا لان الحكومة رفضت اعطائي امتيازا لاصدار جريدة جديدة ... بحجة « تاريخي الصحفي » وأمر المندوب السامي بالغاء امتياز (الوحدة العربية) ومن قبل ذلك الغاء امتياز مجلة الشباب ، فقد تطوع الاخ علي محي الديـــن الحسيني للحصول على امتياز باسمه ، (يضعه تحت تصرفي) ، وبعد جهـــود مضنية حصل على امتياز لاصدار جريدة باسم « الاوقات العربية » ، تصدر اسبوعيا بأربع عشرة صفحة ، نصفها باللغة العربية ونصفها الاخر باللغـــة الانكليزية . وعملا بقانون المطبوعات السائر المفعول حينئذ (عينني) الاخ علي رئيسا لتحرير الجريدة ... فظهرت اعدادها وهي تحمل اسمه كصاحب الامتياز واسمي كرئيس التحرير .

ولكن مصير (الاوقات العربية) لم يختلف عن مصير سائر الصحف والمجلات التي اصدرتها سابقا ... ولنفس الاسباب والعوامل التي ادت الى اغلاقها ... فاضطررنا الى توقيف صدور « الاوقات العربية » بعد ثلاثة اشهر من صدورها ... فانتهى بذلك دوري في الصحافة .. ولكن الى حين كما سيأتي ذكر ذلك .

وقد رفعت الحكومة وخصوم الحركة الوطنية عدة قضايا على علي محي الدين الحسيني ، بوصفه صاحب امتياز الجريدة ، بتهمة الحض على كراهيـــة الحكومة والذم والقدح بانصارها ... وحكمت المحاكم عليه بغرامات مالية ، دفعها بطيبة خاطر .. رحمه الله رحمة واسعة .

•١٥

تجنبت في الفصول السابقة ، الى مدى بعيد ، ذكر اسماء الكثيرين من الذين خدموا القضية الفلسطينية ، وساهموا في الحركة الوطنية مساهمة جدية فعالة ، كما تجنبت ايضا التصريح بأسماء الاشخاص الذين جعلوا دأبهم معارضة الحركة الوطنية ومناهضة المجلس الاسلامي الاعلى ورئيسه الحاج أمين ، وسهلوا للاعداء مهمتهم في الاستيلاء على بعض اراضي فلسطين ، اما عن طريق بيع اراضيهم مباشرة من اليهود أو عن طريق السمسرة عليها لحساب الاعداء . كذلك آثرت ، لعدة اعتبارات ، عدم ذكر حوادث مؤسفة وقعت ، واوضاع محزنة قامت ، واسماء ابطالها ومسببيها ، وابتعدت ، الا في حالة الضرورة القصوى ، عن التحدث ببعض التفصيل عن الاعمال والترتيبات « السرية » التي كان يقوم بها بعض الشباب ، والاخرى التي كنا نسمع ان سماحة المفتي والعاملين معه كانوا يقومون بها في سرية وكتمان شديدين ، تميزت بهما ، في الواقع ، جميع اعمال المفتي ومخططاته وتدابيره .

أما في هذا الفصل ، فاني اشعر بوجوب التصريح ببعض الاسماء والفئات ، والتحدث عن مواقفها وادوارها ، وبضرورة كشف النقاب عن « الاعمال والمخططات السرية » التي دخلت دور التنظيم الجدي ابتداء من ١٩٣٤ ، واسماء الاشخاص الذين كانوا يتولون أمورها . وفي اعتقادي انه من حق التاريخ ومن حق ابناء شعبنا علينا ، أن نكاشفهم بالحقائق والوقائع لا سيما أن قوى الشر والعدوان ، وذوي الاهواء والاغراض ، ما انفكوا يحاولون طمس بعضها وتشويه بعضها الاخر .

تفاقم الخطر اليهودي والاستعماري على البلاد في ١٩٣٤ ، وغدت الهجرة اليهودية المتدفقة واموال اليهودية العالمية ومؤسساتها ، واندفاع بريطانيا وانصار الحركة اليهودية لبلوغ اهداف المؤامرة البريطانية اليهودية المرسومة ضد فلسطين ، والتنظيمات اليهودية السرية العسكرية ، غدت تهدد عروبة فلسطين ومصير شعبها بخطر عظيم وشر مستطير ، وتنذر بصورة اكيدة ،

بقرب تهويد البلاد . وكان من شأن هذه الحقائق الاليمة أن تلهب حماس الفلسطينيين ، وتثير اقصى اهتمام العرب ، وان تدفع بالحركة الوطنية الى مجال العمل الجدي والتنظيم الفعال والمقاومة العنيفة . ولكن العكس هو الذي حدث ، فما أن بدأت سنة ١٩٣٤ هذه ، حتى اصيبت الحركة الوطنية بالشلل والجمود ، وقيادتها — المتمثلة في اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني — بالضعف والانقسام والاحتراب الداخلي ، في حين اخذت في الظهور اتجاهات سياسية « جديدة » تخالف اهداف الميثاق الوطني الفلسطيني، وتتناقض مع المطالب الوطنية الصحيحة المطروحة لحل قضية فلسطين بينما ازداد تغافل العرب عن هذه القضية وتجاهلهم لما كان يجري في فلسطين من احداث ويهدد عروبتها من اخطار .

زعامة الحركة

تحدثت في فصل سابق عن قيام الحركة الوطنية الفلسطينية في مطلع ١٩١٩، وتطوراتها ، وقيادتها التي تمثلت في باديء الامر بالجمعيات الاسلامية المسيحية ، ثم انتقلت الى المؤتمرات العربية الفلسطينية ولجانها التنفيذية .

عندما عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الاول في القدس عام ١٩١٩ ، تطلع العديدون من اعيان البلاد ووجهائها ورؤساء الاسر الكبيرة ، الى اشغال منصب رئاسة المؤتمر ، ولكنهم ما لبثوا أن اتفقوا ، (على الرغم مما كان بينهم من مشاحنات ومنازعات وحزازات ..) اتفقوا على انتخاب موسى كاظم باشا الحسيني رئيسا للمؤتمر ، ثم رئيسا للجنة التنفيذية التي انبثقت عنه . وتبين بصورة جلية واضحة حينئذ أن موسى كاظم كان الشخص الوحيد الذي يستطيع سائر القادة والزعماء والاعيان والوجهاء أن يجمعوا عليه رئيسا للمؤتمر وقائدا للحركة دون أن يشعر احد منهم بأدنى غضاضة . وذلك لاعتبارات كثيرة ، منها تاريخ موسى كاظم المعروف في اشغال ارفع المناصب الرسمية ، وسمو خلقه وطيب سريرته وصدق وطنيته ، وترفعه عن المنعنات المحلية والعائلية والحزبية . وما بدا منه من تضحيات في سبيل الوطن ، وما اظهره من حنكة وصلابة وبعد نظر في معالجة الامور وتصريفها ، فضلا عن أن اهل البلاد عامة كانوا يعتبرونه عين اعيان فلسطين وكبير رجالاتها. وظل موسى كاظم يشغل هذا المركز في اعين ابناء الشعب وقادته وزعمائه، كما ظل الشخص الوحيد الذين كانوا يجمعون على زعامته ويقبلون بقيادته ،

ولذلك ، وعلى الرغم من كل ما ظهر بين الاقطاب والزعماء من منازعات واختلافات ، وما كان يدب ، بين ان واخر ، من تناحر واحتراب ، في الصف الوطني الفلسطيني ، فان المؤتمرات الفلسطينية السبع التي عقدت بين ١٩١٩ و ١٩٢٨ كانت تنتخب موسى كاظم بالاجماع رئيسا لها وللجانها التنفيذية . وكانت هذه المؤتمرات وكذلك لجانها التنفيذية ، تضم اعضاء من مختلف الفئات والطبقات ، وممثلين من جبهة المعارضة (الفلسطينية) والجبهة الوطنية ، كما كانت تضم (ولا سيما بعد ١٩٢٦) بعض اشخاص عرفوا بالتعاون مع الانكليز ، او اتهموا بالتفريط باراضي البلاد ... وقد حاول المعارضون وغيرهم ، في ظروف عديدة ، أن يجعلوا رئاسة المؤتمرات ولجانها التنفيذية من نصيب واحد منهم ... ولكن شخصية موسى كاظم الفذة ، كانت دائما تفرض نفسها على الجميع وتحملهم على الاجماع على زعامة صاحبها وقيادته.

فلما اصيب موسى كاظم (وكان عمره قد بلغ ٨٣ عاما) في مظاهرة يافا في ٢٧ تشرين الاول ١٩٣٣ ،كماذكرناسابقا ، واضطرته حالته الصحية الى الاعتكاف في اريحا ، ريثما تتحسن فيعود الى الميدان ، نشب خلاف (لم يكن في باديء الامر ظاهرا علانية) داخلي بين الزعماء والقادة من رجال اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني السابع ، حول الشخص الذي يجب ان يتولى القيادة في غياب موسى كاظم ... وقد بلغ من هذا الخلاف حدا لم تستطع معه اللجنة التنفيذية عقد اي اجتماع لها ، سوى الاجتماع الذي عقدته في كانون الاول ١٩٣٣ وتولى جمال الحسيني (سكرتير اللجنة التنفيذية) رئاسته ، او بالاحرى ادارته ، وهو الاجتماع الذي تقرر فيه القيام بمظاهرات عامة في اول ايام عيد الاضحى المبارك في مطلع ١٩٣٤ .

وفاة موسى كاظم

واشتد المرض بالشيخ الزعيم ، وفي ٢٣ آذار ١٩٣٤ لاقى وجه ربه شهيدا ، ففجعت فلسطين بقائدها ، وفقدت زعيمها ، وخسر العرب وطنيا عظيما وقائدا ممتازا . واعرب الفلسطينيون عن محبتهم له وتعلقهم به ، وتقديرهم لمواقفه وتضحياته ، بشتى الوسائل ومختلف الاساليب ، كان منها اشتراك أكثر من خمسين الف نسمة في تشييع جثمانه الطاهر الى ساحة المسجد الاقصى المبارك حيث قرر المجلس الاسلامي الاعلى وزعماء الحركة الوطنية دفنه فيها تقديرا لجهوده وخدماته .

اختلاف على الزعامة

وبوفاة موسى كاظم شغر منصب الزعامة والقيادة للحركة الوطنية الفلسطينية ، وقامت حاجة ماسة لملء الفراغ الذي وقع . وبعد مرور بضعة ايام على مصاب الامة بفقد كبيرها وزعيمها ، اخذ القادة والزعماء واعضاء اللجنة التنفيذية يتباحثون فيما بينهم للاتفاق على الشخص الذي يختارونه لرئاسة اللجنة التنفيذية . وتبين من خلال المباحثات والمشاورات التي كانت تجري ، ومن مواقف بعض الجماعات والفئات ، بأن خصوم الحركة الوطنية، ومن ورائهم الحكام البريطانيون ، كانوا يتجهون نحو التعفية على آثار اللجنة التنفيذية والتخلص منها ، وبذلك تترك البلاد بدون قيادة جماعية ،ويخلو الجو لذوي الاهواء والاغراض ، لعمل ما يريدون ... ولتنفيذ ما يؤمرون به. أما الوطنيون (وكانت أكثرية اعضاء اللجنة التنفيذية منهم) فانهم ابدوا حرصا شديدا على استمرار اللجنة ومواصلتها القيام بأعمالها ، لادراكهم أن زوالها في الظروف السائدة حينئذ يشكل ضربة قاسية ، بل مميتة ، للحركة الوطنية ولوحدة الصف الفلسطيني .

واتخذ اصحاب فكرة التخلص من اللجنة التنفيذية ، وحرمان الحركة الوطنية من قيادة جماعية ، اتخذوا من موضوع رئاسة اللجنة سببا ووسيلة لبلوغ هدفهم . فلما اثيرت مسألة الرئاسة والشخص الذي يجب أن يختار لاشغالها، اتجهت انظار الوطنيين وأكثرية الشعب نحو جمال الحسيني ، فرشحه اعضاء اللجنة التنفيذية المنتمون الى الجبهة الوطنية لرئاستها ، ولكن اعضاء اللجنة من حزب المعارضة ، واخرين من المشتبه بوطنيتهم ومن المتهمين بالتعاون مع الانكليز وبيع الاراضي من اليهود ، ثاروا على فكرة ترشيح جمال وقاوموها بشدة ... وبغية تجنب الانشقاق ، ولتفويت الفرصة على الراغبين في القضاء على اللجنة ، عدل الوطنيون عن ترشيح جمال ، وابدوا استعدادا طيبا للتعاون مع سائر اعضاء اللجنة على بلوغ حل معقول وسط لموضوع الرئاسة ، يضمن استمرار قيام اللجنة التنفيذية . فاقترح الوطنيون اسناد الرئاسة لعوني عبد الهادي او معين الماضي ، ولكن هذا الاقتراح لم يصادف قبولا من الفرقاء الاخرين . وكان للجنة التنفيذية نائبان للرئيس ، احدهما يعقوب فراج (وهو من حزب المعارضة) ، فاقترح الوطنيون أن يتولى يعقوب فراج رئاسة اللجنة بالوكالة ، ريثما يجتمع المؤتمر العربي الفلسطيني الثامن فينتخب لها رئيسا اصيلا . ولكن زعماء المعارضة وانصارهم لم يرفضوا هذا

الاقتراح فحسب ، بل ايضا رفضوا التعاون مع الاعضاء الوطنيين لتأمين انعقاد المؤتمر الثامن .

وامعانا من المعارضين في مساعيهم لتقويض اللجنة التنفيذية ، فان بعض اقطابهم تنطحوا لمركز الرئاسة وطلبوا أن يكون لواحد منهم ، على الرغم من تأكدهم باستحالة قبول الشعب بما كانوا يطلبون . فاقترحوا أن تسند رئاسة اللجنة الى راغب النشاشيبي ، او الشيخ سليمان التاجي الفاروقي ، أو عمر الصالح البرغوثي . بل ان صلفهم بلغ حد ترشيح الشيخ أسعد الشقيري لرئاسة اللجنة ! وواصل الوطنيون بذل اضخم الجهود ، وتقديم أكبر التنازلات ، للابقاء على اللجنة التنفيذية والقيادة الجماعية للحركة الوطنية ، ولكن دون جدوى ... ونتيجة للمساعي الضارة والمؤامرات الخبيثة ، قضي على اللجنة التنفيذية ... وكيانها والقيادة الوطنية الجماعية.

وقد ادى هذا كله الى اصابة الحركة الوطنية بالشلل ... وتحقيق رغبة الاعداء في اضعاف المقاومة الفلسطينية وصدع الصف الوطني الفلسطيني .. وترك البلاد بدون قيادة ..

ونظرا لما اصاب الحركة الوطنية من شلل ، وما نزل بقيادتها الجماعية من تصدع ، فقد توفر للاعداء مجال واسع للعمل على تحقيق اهداف المؤامرة المبيتة ضد فلسطين ، ولم يعودوا يخشون أن تواجههم مقاومة وطنية قوية . فراحوا ينشطون في جهودهم ومساعيهم ، الرامية الى الاستيلاء على المزيد من اراضي البلاد وتعميق الخلاف والانقسام والانشقاق الذي دب في الصف الفلسطيني . فوقع على الوطنيين العاملين في حقل القضية الفلسطينية وميدان الحركة الوطنية ، واجب عظيم لانقاذ الموقف واعادة الحياة والنشاط الى المقاومة الفلسطينية . فأخذوا يتباحثون فيما بينهم ويتداولون للوصول الى انجع الوسائل التي تبلغهم هدفهم هذا .

المطالبة بالتطهير

وكان العديدون منهم ، خاصة فئة الشبان « الجدد » ، ينتقدون الاوضاع التي انحدرت اليها اللجنة التنفيذية ، لا سيما بعد مظاهرتي القدس ويافا في خريف ١٩٣٣ ، ويشكون مما كانوا يعتبرونه تخاذلا من القيادة في فرض الطابع

الوطني الصرف على تصرفات اللجنة وعضويتها ، وترددا في تطهيرها من العناصر والعوامل التي ادت الى اضعافها ، كما كانوا يتململون من سياسة « المسايرة والترقيع والمهادنة » الداخلية التي اتبعت ، للابقاء على مظهر الوحدة الوطنية ...

والواقع ان من اهم الاسباب التي انحدرت باللجنة التنفيذية — في اواخر أيامها — الى هوة الضعف والتخاذل ، كان احتواء اللجنة في عضويتها ، على عناصر شتى وفئات مختلفة ، تفتقر الى الانسجام ويعوزها التفاهم والتعاضد. ولم يكن لينقص هذه العناصر والفئات صدق الوطنية والاخلاص فحسب ، بل التعاون والعمل المشترك ايضا . وكان من بين هذه العناصر والفئات عدد من اعضاء اللجنة ينتمون الى جبهة المعارضة ولكنهم لم يلجأوا الى المعارضة لنفس الاسباب التي حملت بعض اقطابها على انتهاجها ، بل لاعتبارات اخرى كان منها اعتقادهم بعدم جدوى السياسة الوطنية المتبعة . وفضلا عن هذه العناصر والفئات فقد احتوت عضوية اللجنة التنفيذية على عناصر مترددة (من وطنية ومن معارضة) واخرى مشبوهة ومطعون في وطنيتها ، ومتهمة بالتعامل مع اليهود وبيع الاراضي أو السمسرة عليها للاعداء .

ولذلك نادى فريق من اعضاء اللجنة ، يؤيدهم الشبان «الجدد» نادوا مرارا وتكرارا بوجوب تطهير اللجنة من مثل هذه العناصر ، وجعل عضويتها مقتصرة على الاشخاص المعروفين بصدق الوطنية والتمسك بالميثاق الوطني والاستعداد للبذل والتضحية ، ولكن قيادة الحركة الوطنية كانت دائما تنصحهم بالتريث والانتظار وتجنب اثارة هذه الدعوة للتطهير ، حرصا على الابقاء على مظهر الوحدة الوطنية المتمثلة حينئذ في كيان اللجنة التنفيذية وكان هؤلاء الاعضاء ينزلون، على مضض ، عند نصيحة الزعامة ! فلما وقع ما وقع من الاعمال والاتجاهات التي ادت الى تقويض كيان اللجنة ، والقضاء على سبب وجودها، بعثت من جديد الدعوة لتطهيرها من العناصر المشكو منها واعادة تشكيلها على اساس الانسجام والتفاهم وتوفر المؤهلات الوطنية في اعضائها ، ولكنه لم يعد من الميسوَر الاقدام على هذه العملية بعد أن تحطم كيان اللجنة . فانطلقت في الاوساط الوطنية دعوة جديدة لتكتيل العناصر الوطنية المنسجمة في اتجاهاتها ، والمتوافقة في اهدافها او مطالبها في هيئة او منظمة واحدة تتولى قيادة الحركة الوطنية . ثم شكل الوطنيون (من الذين كانوا يسمون بالمجلسيين) في اجتماع خاص عقدوه ، لجنة منهم لدراسة الموقف ،والوسائل

التي يؤدي اتباعها الى احياء الحركة الوطنية وقيادتها ، على أن ترفع هذه اللجنة نتائج دراستها وما تتفق عليه من توصيات ، الى الذين عينوها .

وتشكلت هذه اللجنة على ما أذكر تماما من : جمال الحسيني ، ومحمد اسحق درويش ، وفريد العنبتاوي ، وموسى الصوراني ، وكامل الدجاني ، وخالد الفرخ ، وميشيل عازر ، وعلي رضا النحوي ، وحسني الحافظ جرار ، وعبد الله الجوده ، وفؤاد عطا الله ، وصالح عون الله ، وشحاده حسونة ، وعبد الحي عرفه ، وحنا خلف ، وطلال عابدين ، واحمد حجة ، وموسى عيسى عابده واميل الغوري . (١)

تشكيل حزب سياسي

وعقدت هذه اللجنة سلسلة من الاجتماعات في دار كلية روضة المعارف الوطنية بالقدس ، واجرت عدة اتصالات ومشاورات مع زعماء الحركة الوطنية

«١» (ملاحظة — استطاع اليهود عام ١٩٤٨ ، بفضل بريطانيا وتأييد الولايات المتحدة الامريكية ، احتلال القسم الجديد من مدينة القدس ، ومنها حي البقعة الفوقا التي كان بيتنا فيها ، وكنت حينئذ اعمل مع المجاهدين في خارج القدس . وكانت القيادة الوطنية قد قررت أن لا يخرج الفلسطينيون اثاثهم ومقتنياتهم ، وأن لا يغادروا مدنهم وقراهم حتى ولو سقطت تحت الاحتلال اليهودي (وحبذا لو نفذ الشعب هذا القرار) ولذلك لم انقل عفش بيتنا — رغم حتمية سقوطه بأيدي اليهود — باستثناء بعض الاوراق والوثائق . فلما احتل اليهود البقعة الفوقا استولوا على عفش البيت (كما استولوا على اثاث بيوت اخرى) ثم دمروه ... وقد فقد قسم من أوراقي ومذكراتي ، ولهذا فان ما اكتبه حول هذا الموضوع يعود الى الذاكرة لا الى المذكرات المدونة ، لا سيما فيما يتعلق باسماء الاشخاص الذين تولوا تنفيذ عملية تكتيل الوطنيين في منظمة واحدة) .

وبدأ العديدون من الفلسطينيين ، لا سيما من ابناء الطبقة الميسورة ، مغادرة فلسطين الى مصر وسورية ولبنان ، في شهر شباط ١٩٤٨ . فاذاعت الهيئة العربية العليا بيانا تدعو الفلسطينيين الى البقاء في وطنهم مهما تفاقمت الاوضاع وتعاظمت الصعاب ، واصدرت قيادة الجهاد المقدس تعليماتها الى المجاهدين بمنع الفلسطينيين من الهجرة من البلاد ونقل اثاثهم ومقتنياتهم منها . كذلك بعثت الهيئة العربية العليا بمذكرات الى حكومات مصر وسورية ولبنان والاردن تطالبها بها باغلاق حدودها في وجه الفلسطينيين ليبقوا فيها . وتكررت جهود الهيئة العربية والجهاد المقدس في نيسان وايار ١٩٤٨ لمنع نزوح الفلسطينيين ... ولكن الامور سارت على غير ارادة القادة والزعماء ... وسنشرح هذه المسألة فيما بعد.

في سائر المدن والقرى ، ثم اعدت تقريرها وضمنته توصياتها ، وعرضته على اجتماع وطني عقد في القدس ، في ٢٥ نيسان ١٩٣٤ ، حضره خمسة وسبعون شخصا من العاملين في الحقل الوطني . وبعد أن بحث المجتمعون تقرير اللجنة وتوصياتها ، قرروا بالاجماع أن السبيل الامثل ، على ضوء الظروف القائمة ، لاحياء الحركة الوطنية والدفع بها الى ميدان الجد والنشاط ، هو تشكيل حزب وطني سياسي ، من اعضاء ينتسبون اليه ، ويكونون منسجمين في التفكير والاتجاه ، وتتوفر فيهم المبادئ الوطنية السليمة ، والاستعداد للبذل والتضحية ، على أن يبنى دستور الحزب على اساس الميثاق الوطني الفلسطيني والتمسك المطلق به وبمطالب البلاد المعروفة .

واوضح المجتمعون في بيان اصدروه بهذا الشأن ، أن قرارهم بتشكيل حزب سياسي على الاسس الانف ذكرها ، يجب أن لا يعتبر تحديا لاي فريق من ابناء الشعب ، او أن يفسر بأنه ينطوي على خطة لمقاومتهم او هدف لابعادهم عن الميدان الوطني ، فهو مفتوح للجميع ، ولا يمكن أن يكون وقفا على فئة دون غيرها . وجاء في البيان المذكور أن الحزب المقرر تشكيله سيكون مستعدا للتعاون مع سائر الجماعات والفئات ، أو الاحزاب التي قد يرى الاخرون تشكيلها ضمن اطار مصلحة الوطن العليا .

لجنة تحضيرية

واختار المجتمعون لجنة تحضيرية ، جعلوا من اختصاصاتها الاعداد لتشكيل الحزب ، ووضع دستوره وانظمته الداخلية ، وتهيئة الوسائل والاسباب التي تؤول الى انجاح الفكرة ، وقبول طلبات الانتساب والتدقيق فيها ، والموافقة على الاشخاص الذين تعتقد انهم جديرون بالانضمام الى الحزب الجديد ، وتدعو هذه اللجنة ، بعد الانتهاء من مهمتها ، الى عقد مؤتمر عام للاشخاص الذين تتم الموافقة على انتمائهم للحزب ، يعلن فيه تشكيله رسميا . وتألفت اللجنة التحضيرية المذكورة من جمال الحسيني ومحمد اسحق درويش واميل الغوري (القدس) وفريد العنبتاوي ومصطفى البوشناق وجمال القاسم (نابلس) ويوسف ضيا الدجاني ويوسف عاشور وكامل الدجاني والشيخ راغب أبو السعود الدجاني ومشيل عازر وخالد الفرخ (يافا) ومحمد علي التميمي وفؤاد عطا الله واحمد الامام (حيفا) وحنا خليف وصالح عون الله (الناصرة) وموسى الصوراني ويوسف العلمي ويوسف الصائغ (غزة)

وشحادة حسونة واسعد حجازي (اللد) وعلي علاء الدين (الرملة) وطلال عابدين وعبد الحي عرفه (الخليل) وآخرين غابت عني اسماؤهم .

وبادرت اللجنة التحضيرية الى القيام بمهمتها ، ملتزمة جانب الهدوء والتؤدة والانضباط في اعمالها ، التي بنتها على اساس (النفس الطويل) ... والدراسة العميقة والتحقيق الدقيق . واستغرق عمل اللجنة مدة تقرب من سبعة اشهر ، فلما انجزته انطلقت تتخذ التدابير والاجراءات اللازمة لاخراج الحزب الى حيز الوجود ـ كما سيأتي شرح ذلك فيما بعد .

تشكيل الاحزاب

وقابلت الفئات والجماعات السياسية والحزبية الاخرى في البلاد ، قرار الوطنيين باهتمام كبير ، وشعر افرادها وقادتها بأن من مصلحتهم ، وابقاء على تجمعهم وكيانهم السياسي ، اللجوء الى مثل الاجراء الذي قرر الوطنيون (المجلسيون ..) اتخاذه . ونظرا لان رجال هذه الفئات والجماعات لم يكونوا منسجمين ولا متفقين او متعاونين فيما بينهم ، ولا تجمع بين فئاتهم خطة مشتركة أو هدف واحد ، ولان آراءهم كانت متباينة ومختلفة ، فقد قررت كل جماعة متفاهمة منسجمة من هذه الجماعات والفئات تشكيل حزب خاص بها.

وكان زعماء الجبهة السياسية المعروفة بجبهة المعارضة ، اسرع الجميع في انشاء حزب لهم . فاجتمعوا في القدس واعلنوا تشكيل حزب لهم اسموه (حزب الدفاع الوطني) ، وبنوا اهدافه ومبادئه على اساس الميثاق الوطني الفلسطيني والمطالب الوطنية المعروفة ، وعلى الرغم من موقف جبهة المعارضة المعروف من الحركة الوطنية والمجلس الاسلامي الاعلى ، فاني اعتقد واعلم بأن عددا منهم كانوا يتحلون بمزايا وطنية ، وأن اختلافهم مع الجبهة الوطنية كان نتيجة لاجتهادهم بشأن وسائل العمل ، كما اعتقد ايضا أن زعماء الحزب الجديد تقصدوا اعلان تمسكهم بالميثاق الوطني لغرضين : الاول محاولة اقناع الشعب ببطلان الشبهات التي كانت تحوم حول الموقف الوطني للعديدين منهم واتجاههم السياسي ، والثاني : استقطاب اكبر عدد من المؤيدين والانصار ، قبل أن يشكل (المجلسيون) حزبهم . وانتخب الحزب راغب النشاشيبي رئيسا له ، ويعقوب فراج وعمر البيطار نائبين للرئيس ، ومغنم مغنم وحسن صدقي الدجاني وفخري النشاشيبي لسكرتيرية الحزب ، وتشكلت للحزب هيئة ادارية عامة كان من اعضائها الشيخ سليمان التاجي الفاروقي ، والشيخ

أسعد الشقيري ، وعادل الشوا وجورج كته ، وهاشم الجيوسي ، وعيسى العيسى ، وعلي المستقيم ، وعمر الصالح البرغوثي وعبد الله عمرو وتوفيق الفاهوم وتوفيق العبد الله . وضمت هذه الهيئة ايضا رؤساء بلديات يافا (عاصم السعيد) والرملة (الشيخ مصطفى الخيري) ونابلس (سليمان طوقان) وجنين (حسني عبد الهادي) وغيرهم .

وعلى اثر ظهور حزب الدفاع الوطني ، شكل عدد من الزعماء والقادة حزبا باسم (حزب الاصلاح) بزعامة الدكتور حسين فخري الخالدي (رئيس بلدية القدس) وكان من ابرز اعضائه محمود أبو خضرا وحسني خليفة (رئيس بلدية عكا) وعيسى البندك (رئيس بلدية بيت لحم) وسعد الدين الخليلي واسحق البديري .

وبعد برهة من الزمن شكل المحامي عبد اللطيف صلاح (نابلس) منظمة سياسية اطلق عليها اسم « الكتلة الوطنية »، وقال ان غايتها هي العمل على توحيد الصف الفلسطيني ... ولكن « الكتلة الوطنية » لم تلبث أن انقلبت الى حزب سياسي مستقل ، ضم في عضويته بعض الاشخاص من نابلس ويافا وغزه .

وهكذا تشكلت ثلاثة احزاب جديدة في البلاد خلال عام ١٩٣٤ يضاف اليها، حزب الاستقلال العربي الذي كان قد تشكل عام ١٩٣١ ، بزعامة عوني عبد الهادي ، من عدد من رجال الحركة الوطنية المعروفين كما ذكرنا سابقا ،

وفضلا عن هذه الاحزاب الاربعة فقد كانت لجنة مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني قائمة في البلاد ، برئاسة يعقوب الغصين ، وغدت على مر الزمن اشبه بحزب سياسي مستقل . وكان من ابرز اعضاء هذه اللجنة سعيد الخليل وسليم عبد الرحمن وفريد فخر الدين وصليبا عريضة ونمر المصري وعاصم بسيسو ومحمد علي الغصين ، وزيدو عمورة وعاطف نور الله، وادمون روك ويوسف عبدو ، وعيسى دهمش واخرون غيرهم .

وهكذا لم تبلغ سنة ١٩٣٤ نهايتها حتى كانت في فلسطين الاحزاب التالية :

١ ـ حزب الدفاع الوطني برئاسة راغب النشاشيبي

٢ ـ حزب الاستقلال العربي — بزعامة عوني عبد الهادي

٣ ـ لجنة مؤتمر الشباب — برئاسة يعقوب الغصين

٤ ـ حزب الاصلاح — بزعامة الدكتور حسين الخالدي

٥ ـ حزب الكتلة الوطنية — برئاسة عبد اللطيف صلاح

وكان حزب الدفاع الوطني في الواقع ، أكبر هذه الاحزاب ، من حيث عدد اعضائه والمنتمين اليه ونفوذهم في البلاد ، في حين كان حزب الاستقلال يليه من حيث قوته الشعبية في البلاد ، بينما كان يتفوق عليه بنفوذه السياسي ومكانته الوطنية ، أما لجنة مؤتمر الشباب (وغدت تعتبر حزبا) فقد كان لها انصار كثيرون وقاعدة شعبية مرموقة ، وكان أكثر المنتمين اليها يعتبرون ايضا من جماعة الجبهة الوطنية (المجلسيون) مما حمل الكثيرين على النظر الى لجنة الشباب كفرع منها . ولم يكن لحزب الاصلاح ، رغم شخصية الدكتور الخالدي الصلبة القوية ، ووطنية معظم اعضائه ، اي نفوذ ملموس في البلاد ، مما جعل الناس ينظرون اليه كحزب لطبقة خاصة من ابناء الوطن . وأما حزب الكتلة الوطنية فولد ضعيفا وضئيل العضوية والنفوذ ... وظل كذلك طوال مدة بقائه . ومن الثابت أن هذه الاحزاب مجتمعة لم تكن تمثل سوى قسم من الشعب ، حيث أن أكثريته كانت تدين بالولاء لجبهة الوطنيين (المجلسيين)وتلتف حول سماحة المفتي . ومما هو جدير بالذكر أن تشكيل هذه الاحزاب حفز الكثيرين من الوطنيين الى الالحاح على اللجنة التحضيرية المجلسية الانف ذكرها ، للاسراع في اعلان قيام الحزب الجديد .

الحزب العربي الفلسطيني

لما انتهت اللجنة التحضيرية من مهمتها ومن اتخاذ التدابير والاجراءات اللازمة لاعلان انشاء الحزب ، دعت الى عقد مؤتمر عام في القدس يحضره الاشخاص الذين وافقت اللجنة على طلباتهم للانتماء الى الحزب . وعقد هذا المؤتمر في ٢٥ آذار ١٩٣٥ في قاعة فندق (بالاس) ـ عمارة الاوقاف الاسلامية ـ وكانت كبيرة رحبة ، وبلغ عدد الذين اشتركوا فيه ١٥٧١ شخصا من العلماء والقضاة ورجال الدين المسيحيين (العرب) والاطباء والمحامين والصيادلة والمهندسين والتجار والعمال وزعماء القرى وشيوخ القبائل والعشائر . وبرز بين المجتمعين عنصر الشبان « الجدد » بكثرة ملحوظة .

وافتتح المؤتمر قاسم آغا النمر (نابلس) بخطاب وطني قوبل بالتصفيق والهتاف ، وختمه باعلان تشكيل الحزب رسميا باسم « الحزب العربي الفلسطيني » ثم دعا قاسم آغا الى انتخاب رئيسا للحزب فانتخب جمال الحسيني بالاجماع رئيسا له ، فاعتلى المنصة والقى خطابا وطنيا جامعا ، شرح فيه الاسباب والاعتبارات التي حتمت انشاء « الحزب العربي الفلسطيني » وعرض على المؤتمر دستور الحزب وانظمته (كما وضعتها اللجنة التحضيرية) فأقره بالاجماع ، ثم دعا الرئيس الى انتخاب هيئة مكتب الحزب (وفقا لنظامه الداخلي) فاختار المؤتمر بالاجماع الفريد روك (يافا) نائبا للرئيس واميل الغوري (القدس) سكرتيرا عاما وخالد الفرخ وكامل الدجاني (يافا)ووجيه البشتاوي (نابلس) اعضاء في هيئة المكتب .

وقبيل انفضاض المؤتمر انتخب لجنة تنفيذية للحزب ، مؤلفة من اشخاص يمثلون جميع اقضية فلسطين وعشائرها . وأذكر من اعضاء هذه اللجنة التنفيذية الاخوة :

محمد اسحق درويش واحمد حسين الغول وسعيد خلف وعبد الرحيم الطبجي (القدس) ويوسف ضيا الدجاني ويعقوب برتقش والشيخ راغب الدجاني ويوسف عاشور وعلي الدباغ (يافا) وفريد العنبتاوي وعبد الرحيم التميمي ومصطفى البوشناق وصدقي ملحس ومحمد الفارس وفهمي العبدالله وجمال القاسم (نابلس)والشيخ عز الدين القسام وفؤاد عطا الله وحكمت النملي (حيفا) ومحمود اللبابيدي ومحمد رشدي الخياط واحمد العكي (عكا) وعلي رضا النحوي وعز الدين قدوره (صفد) وصدقي الطبري واسماعيل القره شولي (طبرية) وحنا خليف وصالح عون الله وسعيد عبيد الزعبي (الناصرة) وفريد فخر الدين ومبارك الزعبي ومحمد الصالح الغزاوي وحسن الشامخ وسعيد الحلبوني (بيسان) ونافع العبوشي وعبد العفو أمين وحسني الحافظ جرار (جنين) وعبد الله السمارة والشيخ يوسف القبج ويونس العمر وعفيف الحاج ابراهيم (طول كرم) وشحاده حسونة واسعد حجازي واسكندر الحبش (اللد) وعلي علاء الدين (الرملة) وسليم ابو شرخ وسليم الشريف (المجدل) وموسى الصوراني ويوسف العلمي ويوسف الصائغ ومحمد الريس (غزة) وابراهيم الصانع وحسين أبو ستة وشفيق مشتهي وبتروترزي (بئر السبع) ومحمد علي الجعبري ورشاد الخطيب واحمد حجة وطلال عابدين ويوسف اخميس وعبد الحي عرفه ومحمود حجازي (الخليل)وموسى

عيسى عابده ونقولا شاهين واسكندر بدر واسكندر الخوري ومشايخ العشائر (بيت لحم) وجودت الحلبي وصبري خلف واحمد خميس (اريحا) وحنا خلف وعبد الله الجودة وصالح الريماوي وشريف الريماوي (رام الله) وغيرهم من زعماء القرى والعشائر في بئر السبع وقضاء بيسان ولوائي القدس ويافا .

وشكل الحزب ١٧ فرعا له في مختلف انحاء فلسطين ، مرتبطة بمكتبه الرئيسي في القدس ، الذي وسعت عضويته بقرار من اللجنة التنفيذية فضم اليه محمد علي الجعبري ورشاد الخطيب وميشيل عازر وشحاده حسونة.(١)

زيارة الامير سعود

زار فلسطين ، في النصف الثاني من عام ١٩٣٥ ، الامير سعود بن عبد العزيز ، ولي عهد المملكة العربية السعودية ، ونزل في القدس ضيفا على سماحة المفتي ، ورحب اهل فلسطين بالامير سعود ترحيبا عظيما واستقبلوه بحماس . وكان المفتي والقادة الوطنيون قد اعدوا برنامجا لزيارة سمو الامير جميع انحاء فلسطين ، ولكنه لم يستطع ذلك لضيق الوقت الذي حدد لزيارته، ولانه اثر قضاء معظم ايام الزيارة في القدس . وقام الامير بجولة زار خلالها اللد والرملة ويافا وطول كرم ونابلس ورام الله وبيت لحم ، فجرت له فيها استقبالات شعبية ضخمة .

وادى سمو الامير فريضة الجمعة في المسجد الاقصى المبارك فغص المسجد على رحبه بألوف المصلين ، ولما انتهت الصلاة خرج المصلون بمظاهرة عظيمة ابتهاجا بزيارة الامير ، وطافت به ساحة الحرم المقدسي الشريف .واحتشد في صحن الصخرة المشرفة ، الالوف من العرب لمشاهدة الامير الضيف والاحتفاء به . والقى عدد من العلماء والقادة خطبا حماسية في الحشود المجتمعة ، كما

«١» وكان الحزب العربي الفلسطيني ، في الحقيقة والواقع ، اكبر حزب في البلاد ، واقوى جميع احزابها وابعدها نفوذا ، واثرا في فلسطين . وفي عام ١٩٤٧ قدمت حكومة الانتداب البريطانية تقريرا مفصلا عن فلسطين واوضاعها الخ .. الى لجنة الامم المتحدة المشكلة للتحقيق في قضية فلسطين ، فتحدثت في هذا التقرير عن الاحزاب والتكتلات السياسية في البلاد ، وقالت ان « الحزب العربي الفلسطيني » كان اقوى الاحزاب واكثرها تمثيلا للشعب وان اكثريته كانت تلتف حول هذا الحزب وتؤيده ، لانه كان حزب المفتي ، وذكرت الحكومة في تقريرها أن حزب الدفاع الوطني كان الحزب الثاني في البلاد ..

القى الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود قصيدة عصماء خاطب فيها الامير والعرب والمسلمين وحثهم على نجدة فلسطين ونصرة القدس . ولما وصل الى قوله :

المسجد الاقصى اجئت تـــزوره
أم جئت من قبل الضيـــاع تودعه ؟

بكى الامير وبكى الناس معه . . .

انتخابات البلدية ـ ١٩٣٤

تحدثنا في فصل سابق عن انتخابات المجالس البلدية التي جرت في فلسطين سنة ١٩٢٧ ، وما اسفرت عنه من نتائج وما خلفته من آثار سياسية وحزبية في البلاد ، وبينا كيف انتهت معركة هذه الانتخابات لصالح الحركة الوطنية بوجه عام .

وكان من المفروض أن تجري انتخابات جديدة للمجالس البلدية في عام ١٩٣١ ، ولكن الحكومة البريطانية قررت تأجيلها الى اجل غير مسمى ، رغم اعتراض العرب والحاحهم على وجوب اجرائها في الوقت الذي حدده لها القانون .

وقد تجمعت عدة عوامل واعتبارات حفزت الحكومة الى تأجيل اجراء الانتخابات ، من ذلك أن الحكومة كانت تتوقع أن يفوز الوطنيون (اذا جرت الانتخابات عام ١٩٣١) فوزا كبيرا فيها ، حيث كان الشعب الفلسطيني لا يزال حينئذ هائجا ضد الحكومة البريطانية وناقما عليها نقمة شديدة لسحبها الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ (كتاب اللورد باسفيلد) ارضاء لليهود . ومن ناحية اخرى فان عدد السكان اليهود في المدن المشتركة (القدس ويافا وحيفا وصفد وطبرية) لم يكن قد بلغ في عام ١٩٣١ الرقم الذي يمكنهم من السيطرة كلية على المجالس البلدية في هذه المدن، او يتيح للحكومة الفرصة لزيادة عدد الاعضاء اليهود فيها .

وبعد مرور ثلاثة اعوام على عدم اجراء انتخابات المجالس البلدية في الوقت المحدد لها بموجب القانون ، اصدر المندوب السامي ، بصورة مفاجئة ، قرارا

باجراء هذه الانتخابات في ١٩٣٤ . واتضح للعرب بأن الحكومة اتخذت هـذا القرار مدفوعة بسلسلة من العوامل والاعتبارات ، يأتي في طليعتها عاملان هما :

العامل الاول : ارتفاع عدد السكان اليهود ارتفاعا كبيرا في المدن المشتركة، بسبب تدفق الهجرة اليهودية على فلسطين بصورة واسعة النطاق نتيجة لازدياد نفوذ الحزب النازي في المانيا ثم توليه زمام الحكم فيها ، فشعرت الحكومة أن هذا الارتفاع في عدد السكان اليهود سيمكنهم من السيطرة على المجالس البلدية في المدن المشتركة .

العامل الثاني : تصميم الحكومة المستمر على تقويض الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ، فاعتقدت أن ما اصاب الحركة الوطنية من ضعف وتخاذل في ١٩٣٤ ، وما قام حينئذ من احتراب ومن انقسام وانشقاق في الصف الوطني الفلسطيني ، يوفر لها فرصة ذهبية لضرب عصفورين بحجر واحد ، هو حجر الانتخابات ، فاجراؤها في جو الانشقاق القائم يؤدي بصورة تلقائية الى تعميق الانقسام في الصف الوطني الفلسطيني ، الامر الذي يمهد السبيل لتقويض المقاومة الفلسطينية ، ومن ناحية اخرى تستطيع الحكومة استغلال الظروف السائدة والاوضاع القائمة لتمكين انصارها واصدقائها ، من ربح معركة الانتخابات .

واعتبر الوطنيون أن قرار الحكومة باجراء الانتخابات البلدية في ١٩٣٤ يشكل تحديا لهم ، ومناورة خبيثة لتفتيت صفهم وتفكيك وحدتهم . ولكنهم قبلوا تحدي الحكومة والمناورة التي لازمته ، فقرروا خوض غمار معركة الانتخابات، وانطلقوا يستعدون لها ، ويختارون مرشحيهم لكل مجلس من المجالس البلدية في فلسطين ، ونظرا لثقتهم بالفوز في المدن العربية الصرفة ، فانهم راحوا يركزون جهودهم الرئيسية على معركة الانتخابات للمجالس البلدية في المدن المشتركة ، حيث كان محتوما عليهم مواجهة اليهود وخصوم الحركة الوطنية على السواء .

وأعدت الحكومة جداول ولوائح بأسماء الناخبين ، فجاء عددهم في المدن العربية الصرفة يزيد ١٥٪ على عددهم في انتخابات عام ١٩٢٧ ، وهي زيادة معقولة ومنطقية ومتوافقة مع زيادة السكان العرب الطبيعية . وكذلك حددت

الحكومة عدد الاعضاء في كل مجلس بلدي ، فجاء مماثلا ، في معظم الحالات ، لعددهم في ١٩٢٧ .

أما في المدن المشتركة فان عدد الناخبين العرب فيها ازداد ايضا بنحو ١٥٪ عن عددهم في ١٩٢٧ . أما الناخبون اليهود فقد ارتفع في القدس ويافا وحيفا وصفد بنحو ٣٥٪ عما كان عليه في ١٩٢٧ ، كما ارتفع في طبرية بنحو ٥٠٪ وجاءت الزيادة في عدد الناخبين اليهود تجاوزا للقانون ... وعملا كيفيا اقدمت عليه الحكومة بدون حق ، ذلك انها اطلقت حق الانتخاب لاعداد كبيرة من المهاجرين اليهود الذين لم يمض على وجودهم في هذه المدن المشتركة أكثر من عام ! وحددت الحكومة عدد اعضاء المجالس البلدية في المدن المشتركة (على اساس نسبة الناخبين من كل من العرب واليهود) فارتفع عدد الاعضاء اليهود في المجالس البلدية المذكورة ، ونقص عدد اعضائها العرب ، ومن الامثلة على ذلك أن عدد الاعضاء اليهود في بلدية القدس كان في ١٩٢٧ اربعة اعضاء مقابل ثمانية اعضاء عرب ، فاصبح في ١٩٣٤ ستة من العرب وستة من اليهود !

وشهدت فلسطين معركة انتخابية عنيفة دارت رحاها بين مرشحي الوطنيين وبين مرشحي معارضي الحركة الوطنية والمجلس الاسلامي الاعلى . ووقفت الحكومة واليهود ضد مرشحي الوطنيين ، ولجأوا الى مختلف الوسائل وشتى الاساليب لتأييد منافسيهم . ولكن الوطنيين ، على الرغم من موقف الحكومة واليهود ، احرزوا انتصارا كبيرا في جميع المدن العربية ، ففازوا بأكثرية المقاعد في المجالس البلدية في نابلس والخليل وغزة وجنين وبيت لحم ورام الله، ولكن الحكومة عينت رؤساء المجالس البلدية في هذه المدن من بين الاشخاص الذين فازوا (وكانوا اقلية) على لوائح المعارضة ، اما في عكا واللد واريحا والرملة والمجدل وطول كرم وبيسان والفالوجة وبئر السبع فقد فاز الوطنيون بجميع مقاعد مجالسها البلدية تقريبا ، فاضطرت الحكومة الى تعيين رؤساء بلديات هذه المدن من الوطنيين .

وكانت معركة الانتخابات في المدن المشتركة اعنف منها في المدن العربية الصرفة ، حيث جرت على اساس الدوائر ودارت رحاها بين المرشحين الوطنيين ومرشحي جبهة المعارضة الذين قرر اليهود الادلاء باصواتهم الى جانبهم ! ولكن الوطنيين فازوا بأكثرية المقاعد المخصصة للعرب في يافا وحيفا وصفد، فيما خسروا المعركة في طبرية التي تجاوزت نسبة الناخبين اليهود فيها ٦٠٪

من مجموع اصحاب حق الانتخاب .

واتجهت انظار العرب واليهود على السواء ، فضلا عن الحكومة ، الى مدينة القدس ، حيث كانت معركة الانتخابات البلدية فيها اشد عنفا وضراوة من اية معركة انتخابية اخرى . وقدركز الوطنيون معظم جهودهم ، لا لكسب اكبر عدد ممكن من المقاعد المخصصة للعرب في مجلس بلدية القدس فحسب ، بل ايضا ، وبصورة خاصة ، لانتزاع رئاسة بلدية القدس من راغب النشاشيبي وابعاده عن البلدية . فقد كان راغب النشاشيبي (زعيم جبهة المعارضة) رئيسا لبلدية القدس منذ ١٩٢٠، عندما عينته الحكومة لهذا المنصب على اثر استقالة موسى كاظم باشا الحسيني من رئاسة البلدية احتجاجا على سياسة الحكومة البريطانية ، واتهمه الوطنيون بأنه جعل من مجلس بلدية القدس ، وما ينطوي عليه من نفوذ وقوة واثر في البلاد ، اداة قوية فعالة لمناهضة الحركة الوطنية ومقاومة المجلس الاسلامي الاعلى ورئيسه ، وانه احال بلدية القدس قلعة للمعارضة وحصنا ، ما انفك يعرقل جهود الوطنيين ويحبط العديد مما كانوا يضعونه من برامج ويرسمونه من مخططات لمقاومة الحكم البريطاني ، واقتنع الوطنيون بأن ابعاد راغب النشاشيبي عن الرئاسة واحلال احد الوطنيين مكانه ، يزيل اكبر عقبة في وجه الحركة الوطنية ويضمن حسن سيرها ونجاح مخططاتها .

« وتباحث الوطنيون في أمر اختيار الشخص الذي ينافس راغب النشاشيبي فطرحت أمامهم عدة اسماء منها جمال الحسيني ، وفخري الحسيني ، وموسى العلمي والدكتور حسين فخري الخالدي ، وكان الدكتور الخالدي يشغل حينئذ منصب رئيس الاطباء في دائرة الصحة الحكومية ، كما كان يعتبر — الى مدى بعيد — من انصار المعارضة . ولكنه وقف في ثورة ١٩٢٩ موقفا رائعا الى جانب الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ، حيث تصدى — رغم وظيفته الرسمية — لمناورات الحكومة ومؤامرات اليهود وقاومها بضراوة وتصميم . فقد زعم الانكليز واليهود حينئذ بأن العرب في الخليل مثلوا بجثث اليهود الذين قتلوا خلال الثورة . وقامت دعاية عالمية شديدة ضد العرب والحركة الوطنية . فأمر الدكتور الخالدي بوصفه رئيسا لاطباء دائرة الصحة ، بنبش القبور واخراج جثث القتلى اليهود للمعاينة والتحقيق . ونفذ الخالدي أمره رغم معارضة الحكومة واليهود الشديدة ، وعين لجنة من الاطباء العرب والانكليز لمعاينة الجثث والتحقيق في مسألة التمثيل بها التي ادعاها الاعداء . فأصدرت هذه اللجنة بيانا رسميا

نفت فيه هذه التهمة وأكدت انه لم يجر اي تمثيل بأي من القتلى اليهود . وغضب الانكليز واليهود على الخالدي لموقفه هذا ، ولكنه لم يكترث لموقفهم ، وواصل اسداء الخدمات المستطاعة لبني قومه وحركتهم الوطنية» .

ورغب الوطنيون الى الدكتور الخالدي ترشيح نفسه لرئاسة بلدية القدس ، فنزل عند رغبتهم واستقال من وظيفته (وكانت هذه الاستقالة مخاطرة كبيرة بكل معنى الكلمة) ورشح نفسه في الدائرة الاولى ضد راغب النشاشيبي . ولم يكن ليخطر على بال المعارضين أن ينافس الخالدي زعيمهم على منصب رئاسة بلدية القدس .

وقسمت الحكومة مدينة القدس الى ١٢ دائرة ، نصفها لليهود ونصفها للعرب ، وفي الحين الذي كانت الدوائر المخصصة لليهود يهودية صرفة من حيث الناخبين (لم يكن في هذه الدوائر ناخبون عرب) ، فان ثلاثا من الدوائر المخصصة للعرب اشتملت على اعداد كبيرة من الناخبين اليهود ، وثلاثا اخرى لم يكن فيها ناخبون يهود ، ونظرا لان المرشحين اليهود في الدوائر اليهودية الستة فازوا بما يشبه التزكية ، فان المعركة الانتخابية اقتصرت على الدوائر العربية فحسب .

ورشح الوطنيون الدكتور حسين فخري الخالدي ، وسعد الدين الخليلي ونخلة كتن وابراهيم درويش وصبحي عبد الله الدجاني وتوفيق فرح .
ورشح المعارضون راغب النشاشيبي ، ويعقوب فراج ، وزكي نسيبه وانسطاس حنانيا وحسام ابو السعود وحسن صدقي الدجاني .

وأوعزت الزعامة اليهودية الى الناخبين اليهود في الدوائر المخصصة للعرب بالادلاء بأصواتهم الى جانب مرشحي المعارضة .

واشتدت معركة الانتخابات بصورة خاصة في الدائرة الاولى التي كان يتنافس فيها الدكتور الخالدي وراغب النشاشيبي ، وكان في هذه الدائرة ٩٥ ناخبا يهوديا من مجموع نحو ٦٥٠ ناخبا . وانتهت معركة الدائرة الاولى بفوز الخالدي بزيادة ١٥١ صوتا على راغب النشاشيبي ، رغم حصوله على جميع الاصوات اليهودية في هذه الدائرة . وفاز من مرشحي الوطنيين سعد الدين الخليلي وابراهيم درويش ، ومن مرشحي المعارضة يعقوب فراج وانسطاس حنانيا لحصولهما على جميع الاصوات اليهودية في دائرتيهما وكانت نسبة

اصوات اليهود فيهما نحو ٢٥٪ من مجموع الناخبين ، أما في الدائرة السادسة فقد تساوت الاصوات التي نالها مرشح الوطنيين صبحي عبد الله الدجاني ، والاصوات التي نالها منافسه حسن صدقي الدجاني . واجريت قرعة بين الفائزين بالتساوي ، فجاءت نتيجتها لصالح حسن صدقي الدجاني . وبعد تردد وتلكؤ كبيرين من جانب الحكومة ، فانها ، وتحت ضغط الرأي العام بصورة خاصة ، اصدرت قرارا بتعيين الدكتور الخالدي لرئاسة بلدية القدس ...

وحقق الوطنيون ، في معركة انتخابات بلدية القدس ، هدفهم الاول وهو انتزاع رئاسة البلدية من راغب النشاشيبي وابعاده عن البلدية . وقداثبتت الاحداث والوقائع التي تعاقب حدوثها في فلسطين بعد انتخابات عام ١٩٣٤ للمجالس البلدية ، أن فوز الوطنيين فيها ، واحلال احد الوطنيين في منصب رئاسة بلدية القدس ، كان من العوامل الهامة التي قوضت الكثير من المؤامرات التي كانت تبيت ضد الحركة الوطنية ، ومهدت السبيل للدور الجدي الذي قام به الوطنيون عام ١٩٣٦ في ميدان مقاومة الحكم البريطاني والسياسة الاستعمارية اليهودية .

الاسلام وقضية فلسطين

كانت الحكومة البريطانية تخشى ، منذ قيام قضية فلسطين ، أن يتدخل مسلمو العالم في هذه القضية ، لانها كانت تخاف أمرين : الاول أن تقوم حركات في الديار الاسلامية تأييدا لقضية فلسطين وشعبها ، تتطور تلقائيا الى حركات ضد الحكم البريطاني في هذه الديار (كانت معظم الاقطار الاسلامية قبل الحرب العالمية الثانية تحت الحكم البريطاني) . والامر الثاني الذي كانت تخافه بريطانيا هو أن يناصبها مسلمو العالم العداء السافر اذا ما علموا بحقيقة سياستها المتبعة في فلسطين . فضلا عن هذا فان بريطانيا كانت تدرك مدى الضرر الذي يستطيع العالم الاسلامي أن يلحقه بالحركة اليهودية التي كانت بريطانيا تتبناها اذا هو ناصر الفلسطينيين . لاجل هذا انطلقت الحكومة البريطانية تعمل بشتى الوسائل ومختلف الاساليب لابعاد مسلمي العالم عن قضية فلسطين وعزلها عن العالم الاسلامي .

وانطلاقا من موقفها هذا دأبت بريطانيا على مقاومة الجهود التي ما انفك قادة الحركة الوطنية ، يبذلونها لاثارة اهتمام العالم الاسلامي بقضية فلسطين وكسب مسلمي العالم الى جانبها . وكان مما يثير بريطانيا كثيرا أن زعماء فلسطين طفقوا يطرحون قضية فلسطين على العالم الاسلامي كقضية اسلامية ، وهي في حقيقتها كذلك .

وتولى الحاج أمين الحسيني ، بوصفه رئيسا للمجلس الاسلامي الاعلى ومفتي فلسطين الاكبر ، تنفيذ خطة جمع كلمة المسلمين حول فلسطين وحشد قواهم وتعبئة طاقاتهم لنصرة قضيتها والدفاع عنها . وقد استطاع المفتي ، على الرغم من مقاومة الانكليز واليهود لجهوده ومساعيه ومحاولاتهم المتواصلة لاحباط أغراضها ، استطاع أن يحرز نجاحا كبيرا في العالم الاسلامي ، لجهة تأييد قضية فلسطين ، وقد تمثل هذا النجاح في مبادرة العديدين من اقطاب المسلمين وزعمائهم وهيئاتهم ومؤسساتهم الى ارسال التبرعات لاصلاح المسجد الاقصى المبارك واعماره ، وفي قيام عدد من كبار قادة المسلمين في العالم بزيارات متتابعة لفلسطين ، وفي تشكيل منظمات وجمعيات في العديد من الاقطار الاسلامية للدفاع عن قضية فلسطين ، وفي اشتراك عدد من محامي العالم الاسلامي المشهورين في الدفاع عن حقوق المسلمين في البراق الشريف ، أمام لجنة التحقيق الدولية .

وراع الانكليز هذا النجاح الذي حققه الحاج أمين في مضمار العالم الاسلامي ، فراحوا يضاعفون جهودهم لمقاومته واحباط مساعيه ، ولجأوا بصورة خاصة الى سلاح الدعاية ، يشحذونه في وجه المفتي ، فأخذوا ، لا سيما بعد ثورة آب ١٩٢٩ (ثورة البراق) يروجون في اوساط العالم الاسلامي دعايات مغرضة ضد المفتي ، ويشنون عليه حملات مضللة ، ويسندون الى سماحته افتراءات كاذبة واتهامات باطلة ، لغرض تشويه سمعته بين المسلمين ، وحملهم على الابتعاد عنه والارتياب بصدقه واخلاصه .

مؤتمر العالم الاسلامي

وتصدى الانكليز لمقاومة دعوة المفتي الى عقد مؤتمر العالم الاسلامي في القدس ، مستعينين باليهودية العالمية وبخصوم الحركة الوطنية للحيلولة دون عقد هذا المؤتمر . وفي الحين الذي انطلقت اجهزة الاعلام

والدعاية العالمية التي يسيطر عليها اليهود تبث الدعايات وتشن الحملات على الدعوة للمؤتمر ، وتسعى لتشكيك العالم الاسلامي ببراءة فكرة عقده، اجرى المسئولون البريطانيون اتصالات هامة رسمية بالحكام العرب والمسلمين وبعض اقطابهم وزعمائهم يحضونهم على رفض دعوة المفتي لعقد المؤتمر ، ويحاولون اثارة « مخاوفهم » من اجتماع المؤتمر ، واستطاعوا اقناع بعض الحكام العرب والمسلمين بأن من مخططات الحاج أمين « السرية » الكامنة خلف فكرة عقد المؤتمر المذكور « اثارة » موضوع الخلافة الاسلامية ، واستصدار قرار من المؤتمر بانتخاب احد الملوك (من اصدقاء المفتي) خليفة للمسلمين ... أما رجال جبهة المعارضة (الفلسطينية) فانهم قدموا مذكرات الى الحكام العرب والمسلمين ، وبعض زعماء العالم الاسلامي ، يحذرونهم فيها من مغبة عقد المؤتمر ، كما بعثوا بوفود الى القاهرة وعمان وبغداد وصنعاء وغيرها من العواصم والحواضر العربية والاسلامية ، لاطلاع المسئولين فيها على « نوايا » المفتي و « اهدافه » الحقيقية التي حفزته الى الدعوةلعقد مؤتمر لزعماء العالم الاسلامي ،ونتيجة للمساعي البريطانية والحملات اليهودية وجهود الخصوم ... قامت معارضة « رسمية » شديدة في بعض الاقطار الاسلامية (والعربية) لفكرة عقد المؤتمر ... بينما شاع في الاوساط الاسلامية تباين في الاراء وبلبلة في التفكير بشأن هذا المؤتمر .

ولكن المفتي والمؤمنين بجدوى مثل هذا المؤتمر وفوائده العظيمة ،اندفعوا يقاومون مساعي الاعداء وجهود العملاء ، بشتى الوسائل والاساليب ،وقام الحاج أمين بزيارة القاهرة واجتمع بفؤاد الاول ملك مصر ، وباحثه فيموضوع المؤتمر ، واطلعه على الحقيقة ، وبين له الاهداف والاغراض التي سيجتمع المؤتمر لاجلها . فانقلب موقف الملك من معارضة المؤتمر الى تأييد له . كذلك نجحت الاتصالات التي اجراها المفتي مع سائر حكام الاقطار الاسلامية وقادتها ، في ازالة « الشكوك » التي أثارتها في اوساطهم مساعي الاعداء . فقرروا تأييد المؤتمر وتشجيعه . وكما ذكرنا سابقا فقد عقد مؤتمر العالم الاسلامي عام ١٩٣١ في القدس . وفي المسجد الاقصى المبارك ، وكان التوفيق الذي لازمه فوق كل تصور .

مؤتمر الامة الاسلامية

وحنق الاعداء على المفتي والفلسطينيين بسبب نجاح المؤتمر ، فانطلقوا يعملون على التخفيف من « الاثر » الحميد الذي تركه في العالم الاسلامي ،

ويحاولون اقناع مسلمي العالم بأن المفتي وزملاءه لا يمثلون مسلمي فلسطين ، وان هؤلاء المسلمين مستاؤون من عقد مؤتمر العالم الاسلامي وانهم يعتبرون انعقاده « مؤامرة » على المصلحة الاسلامية الصحيحة . وللتدليل على ذلك،

اوعز الانكليز الى « اعوانهم » في فلسطين ، و « عملائهم » في الاقطار العربية والاسلامية ، لعقد « مؤتمر اسلامي عالمي » ردا على المؤتمر الذي عقده الحاج أمين ! فعقد هؤلاء مؤتمرا ، اسموه « مؤتمر الامة الاسلامية » ... عقدوه في قاعة فندق الملك داود بالقدس (ويملكه اجانب ويهود) .. ولكن هذا المؤتمر المصطنع باء بفشل ذريع، ولميجن القيمون عليه والمجتمعون فيهسوى المزيد من نقمة الشعب عليهم . ولم يعد الناس يسمعون شيئا عن هذا المؤتمر ...

في حين لا يزال مؤتمر العالم الاسلامي قائماحتى اليوم يوالي عقد دوراته في الاوقات المحددة لها .

مؤتمر يافا

تطور موقف الفلسطينيين الوطني واتجه نحو التطرف والتصلب على اثر سحب الحكومة البريطانية لكتابها الابيض لعام ١٩٣٠ (المعروف بكتاب باسفيلد) ، وازدادت نقمتهم على الحكم البريطاني ، وسرى في نفوسهم شعور عام بأن لا فائدة ترجى من بريطانيا ولا جدوى من التعاون معها . واصاب الحكومة البريطانية قلق شديد بسبب هذا التطور الجذري في الموقف السياسي الفلسطيني ، فانطلقت تقاومه بما هو معروف عنها من وسائل واساليب .وكان من مساعيها وجهودها المبذولة في هذا السبيل ، العمل على اثارة الاختلافات الحزبية في البلاد وتنمية المنازعات المحلية ، ومحاولة التفريق بين المسلمين والمسيحيين ، ثم بين القرويين والمدنيين ...

وركزت الحكومة واعوانها جهودهم ضد الحاج أمين بصورة خاصة،وانطلق اعداء الحركة الوطنية يعملون على خلق الظروف والاوضاع التي تمكنهم من التخلص منه ... وبالتالي اخراجه نهائيا من ميدان القضية الفلسطينية وحلبة الكفاح الفلسطيني ، فيخبو ويزول .

وتولت الصحف العربية (المعروفة) واليهودية والاجنبية شن الحملات على المفتي ، وتسابق اقطاب جبهة المعارضة في اسناد الاتهامات الباطلة لسماحته، واشاعة الافتراءات والترهات حول مواقفه الوطنية .

محاولة التخلص من المفتي

وشعرت الحكومة البريطانية بأن وجود المفتي على رأس المجلس الاسلامي الاعلى ، ومساهمته الجدية في قيادة الحركة الوطنية وتوجيهها ، والادوار التي اخذ يلعبها في محيط العالم الاسلامي ، هي من الاسباب الرئيسية في صمود الوطنيين واستفحال المقاومة الفلسطينية ، كما تلقت الحكومة « انباء ومعلومات » من دوائر المخابرات البريطانية واليهودية ، تفيد بأن المفتي يعمل « بالسر والكتمان » على الاعداد لثورة ضد الحكم البريطاني ... لذلك قررت، بعد الاتصال بلندن والحصول على موافقتها ، التخلص من المفتي بأي شكل من الاشكال ...

ونظرا لما كانت الحكومة تعرفه من اجماع الشعب على تأييد المفتي والتفافه حوله ، وأن الفلسطينيين عامة لن يسكتوا اطلاقا عن اي اذى ينزله الانكليز أو اليهود أو غيرهم بشخص المفتي ، وأن اي اعتداء على حياته سيترك ردفعل بعيد الاثر في الاوساط العربية والاسلامية ، فان الحكومة آثرت العمل على التخلص منه ... بخلق ظروف واسباب تضطره الى الاستقالة من رئاسة المجلس الاسلامي ، على اعتبار أن اشغاله لهذا المنصب يشكل المصدر الاول لقوته ونفوذه .

ورسم الاعداء (من انكليز ويهود ... ومن لهم من اصدقاء) خطة خبيثة، هدفها حمل الحاج أمين على الاستقالة من رئاسة المجلس الاسلامي الاعلى.. وتنفيذا لهذه الخطة ظهرت في الصحف العربية الفلسطينية (المعروفة بمعارضتها للحركة الوطنية وقيادتها) مقالات وتعليقات تدعو الى وجوب استقالة المفتي من رئاسة المجلس زاعمة ، أن هذه الاستقالة تحرره من « قيود » الوظيفة ، وتمكنه من التفرغ لقيادة الحركة الوطنية مباشرة وعلانية. وانطلق اقطاب المعارضة وصحفها يزعمون بأن منصب رئاسة المجلس الاسلامي الاعلى هو منصب حكومي رسمي ، وأن من يشغله يعتبر موظفا رسميا ، فلا يستطيع مجابهة الحكومة ومحاربة سياستها، وقالوا ان الحاج

أمين هو الشخص المؤهل لزعامة الحركة الوطنية ، وأن الشعب يتطلع اليه لقيادته في جهاد صحيح ضد الحكم البريطاني، ولذلك فان مصلحة الوطن ورغبة الشعب تحتمان عليه الاستقالة . وعلى الرغم من انعدام الاخلاص والنية الحسنة والبراءة في هذه الدعوة ... فان احابيلها انطلت على عدد غير قليل من الوطنيين ، فراحوا بدورهم يكررونها ويرددونها ، ويعلنون تحبيذهم لاستقالة المفتي لما فيها من خير للحركة الوطنية ، ولانها تمكنه من قيادتها مباشرة ، وليس من وراء ستار رئاسة المجلس الاسلامي ...

وفي الوقت نفسه قامت دعوة اخرى في البلاد لعقد مؤتمر شعبي كبير للبحث في اوضاع البلاد الخطيرة ، واتخاذ ما يقتضي من التدابير والاجراءات لصد تيار الهجرة اليهودية الذي جعل يطغى بعد تولي هتلر وحزبه حكم المانيا . فقررت القيادة الوطنية عقد مثل هذا المؤتمر ، في قاعة سينما (ابولو) في مدينة يافا في شهر آذار ١٩٣٣ . وحرصت القيادة على أن يشترك في المؤتمر ممثلون ومندوبون عن جميع الفئات والجماعات والطوائف في البلاد ، فلا يقتصر على الوطنيين ، وعلى هذا وجهت الدعوة الى اعضاء اللجنة التنفيذية والمؤتمر الفلسطيني السابع ، وزعماء جبهة المعارضة ، وقادة الحركة العمالية ،ولجنة مؤتمر الشباب وحزب الاستقلال ، ورؤساء البلديات والمجالس القروية وشيوخ العشائر والقبائل فضلا عن رؤساء الدين والعلماء والقضاة وممثلي النقابات المهنية التي كانت قائمة حينئذ ... كذلك وجهت الدعوة الى فئة من الشبان الذين كانوا يصفون انفسهم « بالمثقفين » ويعلنون انهم لا ينتمون الى اية جبهة من الجبهات الفلسطينية الداخلية ...

وفيما كان الوطنيون الصادقون يتخذون التدابير والاجراءات الضرورية التي تؤدي الى انجاح المؤتمر ، ويهيئون الاذهان ليصدر المؤتمر قرارات حازمة حاسمة لتوجيه المقاومة الفلسطينية ضد بريطانيا مباشرة، كان الاعداء وذوو الاغراض والاهواء من العرب ... يحيكون المؤامرات ويرسمون المخططات في السر والكتمان لتحويل المؤتمر عن اغراضه الاساسية ، ولاستغلال انعقاده لاثارة موضوع استقالة المفتي من المجلس الاسلامي . ونادى هؤلاء بوجوب اشتراك الحاج أمين في المؤتمر .. (ولم يكن المفتي ، لاعتبارات واسباب معروفة ومنطقية يشترك بنفسه في المؤتمرات الوطنية ...) ، وكان غرضهم من هذا الطلب احراج المفتي .. واكراهه على الاستقالة ... !

وفي اليوم المحدد عقد المؤتمر ،وكان بالحقيقة اضخم مؤتمر وطني عرفته فلسطين ، واصدقها تمثيلا للشعب على مختلف فئاته وجماعاته واتجاهاته .

وانتخب موسى كاظم باشا رئيسا له . وما كاد الرئيس يدعو المؤتمر الى مناقشة جدول الاعمال ، حتى فاجأه الحاج أمين الحسيني بحضوره شخصيا ... واقترح بعض اعضاء المؤتمر (من جبهة المعارضة) أن يتولى الحاج أمين قيادة الحركة الوطنية مباشرة ، وأن يستقيل من المجلس الاسلامي ليتفرغ لهذه القيادة . وبغية التغطية على خطتهم المبنية اقترح هؤلاء ايضا أن يستقيل رؤساء البلديات من مناصبهم ..

وانبرى عدد من الخطباء ، كان منهم احمد الشقيري ، يثيرون حماس المؤتمرين لمجابهة الانكليز مباشرة ، وينادون في الوقت نفسه بوجوب استقالة المفتي من رئاسة المجلس ليتحرر من قيود الوظيفة لقيادة الحركة الوطنية .

فهب الحاج أمين من مقعده واعتلى منصة الخطابة والقى كلمة وطنية رزينة قوية ، كان منها قوله :

« علمت قبل حضوري أن هناك خطة مرسومة لاحراجي .. فأقول لكم انني لست بالشخص الذي يحرج ، ولا بالذي يحجم ، او يعمل بالظلام .واني مستعد لا للاستقالة من رئاسة المجلس الاسلامي فحسب بل من الحياة كلها،

اذا كان في ذلك خير للوطن ومصلحة لحركته الوطنية . واني ادعوكم جميعا الى وحدة الصف والكلمة والى القيام بجهاد صحيح لانقاذ البلادمن الاخطار التي تتهددها ، واني اضع نفسي في تصرف المؤتمر ، واعلن استعدادي للسير في صف الطليعة من المجاهدين ... »

وما كاد المفتي ينتهي من كلمته ، حتى دب حماس عظيم في المؤتمر ،وانطلقت أكثرية اعضائه الساحقة يعربون عن تأييدهم للمفتي وتمسكهم بزعامته ويعلنون عن نقمتهم على المؤامرة والمتآمرين . وفجأة اختفى من المؤتمر احمد الشقيري وغيره من الذين تشدقوا في خطبهم وارغوا وازبدوا في دعوتهم ..حيث فر من ابواب قاعة السينما الخلفية ... خوفا من غضب الشعب ! ثم انعقد المؤتمر في جو هادىء ، واصدر سلسلة من القرارات الحازمة الحاسمة ، ولعلها كانت الاولى من نوعها في تاريخ المؤتمرات الفلسطينية حتى هذا

التاريخ ، وكان في طليعة هذه القرارات ما يلي :

١ ـ مقاطعة الحكومة سياسيا واجتماعيا .

٢ ـ مقاطعة التجارة والمصنوعات والمتاجر اليهودية .

٣ ـ الامتناع عن دفع الضرائب الى الحكومة ، على اساس المبدأ المعروف « لا ضرائب بدون تمثيل » .

وفي الحين الذي احبط المؤتمر مؤامرات المتآمرين وخططهم المبيتة ، فانه سجل للحركة الوطنية صفحة مضيئة ووضع ، بمقرراته ، اساسا للاتجاه الوطني الجديد ، الذي دخل دور التنفيذ في خريف ١٩٣٣ .

١٦ · سياسة « فرق تسد »

ان سياسة «فرق تسد» معروفة منذ القديم في تاريخ حكم الاقوياء للضعفاء ، كوسيلة من الوسائل الرئيسية التي يلجأ اليها الحاكمون لارساء قواعد حكمهم وذلك باثارة الاختلافات والمنازعات ، المتعددة الصفات والاشكال ، بين المحكومين، لاشغالهم عن مقاومة الحاكمين ومناهضتهم · وكانت بريطانيا أشد الدول الاجنبية الاستعمارية تمسكا بهذه السياسة ، وايمانا بفائدة تطبيقها في البلاد الواقعة تحت حكمها ، وقد مارستها في مصر والهند وايرلندا واقطار اسيوية وافريقية اخرى ساقها سوء طالعها الى الوقوع تحت نير حكم الاستعمار البريطاني ·

فلما قامت الحركة الوطنية الفلسطينية في مطلع عام ١٩١٩ ، واتسعت نطاقا وشدة في ١٩٢٢ ، لجأت الحكومة البريطانية ، الى سياسة فرق تسد وسعت الى اثارة الاختلافات بين المسلمين والمسيحيين ، والمنازعات بين القرويين واهل المدن ، واشاعة حرب الطبقات بين مختلف فئات البلاد ، كما بذلت جهودا عظيمة لشق الصف الوطني وتمزيقه وخلق «جبهات» لمعارضة الحركة الوطنية · ولكن بريطانيا لم تفلح في تطبيق سياسة «فرق تسد» في فلسطين ، بسبب وعي شعبها ومتانة العلاقات الاخوية التقليدية بين المسلمين والمسيحيين · ولعل النجاح الوحيد الذي أحرزته بريطانيا في ميدان هذه السياسة البشعة هو انها استطاعت ايجاد «فئة» من ابناء البلاد لمقاومة الحركة الوطنية وقيادتها ، وبصورة خاصة لمعارضة المجلس الاسلامي الاعلى ورئيسه ، ولكن حتى هذا النجاح كان يهتز ثم يزول بفضل الوثبات الشعبية التي عرفتها فلسطين واجتياحها لكل ما كان يقف في سبيلها من عراقيل وعقبات ·

ولم تتخل الحكومة البريطانية في يوم من الايام عن سياسة «فرق تسد» ومحاولة تطبيقها في فلسطين · وشعرت بعد ثورة ١٩٢٩ ، ثم بعد انفجار

كراهية العرب لها في ١٩٣٠ ، نتيجة لاستخذائها أمام ارادة اليهود ونزولها عند رغائبهم بسحبها لكتابها الابيض ، شعرت بأن الحركة الوطنية ستشتد وتزداد حدة ومقاومة ، فلجأت الى ما لديها من وسائل واساليب لضربها واضعافها ، قبل اشتدادها · وكانت سياسة «فرق تسد» في طليعة الاسلحة التي شحذتها الحكومة في وجه الفلسطينيين ، واندفعت ، بكثير من التصميم والحماسة ، الى تطبيقها ، غير معتبرة بما كان يلازمها من فشل في الماضي ·· وبالاضافة الى الجهود التي واصلت بذلها لشق الصف الفلسطيني سياسيا ، فان الحكومة البريطانية ركزت مساعيها خلال ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ لتطبيق سياسة «فرق تسد» وأهدافها في المجالات والميادين التالية :

١ ـ اثارة حرب الطبقات

تتألف أكثرية الشعب العربي الفلسطيني الكبرى من أهل القرى ، الذين درج الناس على تسميتهم بالفلاحين ، وكان هؤلاء ، وما زالوا ، الدرع الامنع للحركة الوطنية ، والنبع الذي لا ينضب له معين تغترف الامة من مائه المزن المجاهدين والمناضلين · اما العلاقات بين القرويين وبين «المدنيين» ـ أي أهل المدن ـ فقد كانت أخوية صادقة ، لا تعتريها الاعتبارات المعروفة التي اثارت في بلاد أخرى أسباب الانقسام والاختلاف بين أهل المدن وأهل القرى · ففضلا عن أن معظم أهل المدن كانوا ، من حيث الاصل والمنشأ ، من طبقة القرويين ، فانه لم يكن في فلسطين ، كما كان في غيرها من بعض الاقطار العربية ، اقطاع وعائلات اقطاعية ·· فقل ان وجد بين أهل المدن (من عائلات او افراد) من يملك من ارض اية قرية عربية مساحة أكبر من المساحة التي يملكها أهل القرية (من عائلات أو أفراد) · وكان الاقطاع الوحيد ، المعروف في فلسطين هو الذي نجم عن امتلاك (دون حق أو عدل) بعض الاسر السورية واللبنانية لمساحات واسعة من الاراضي في شمال فلسطين وتسجيلها على اسمائها ، من مثل مرج بن عامر وسهول عكا والحولة وبيسان ، ولكن هذه الاسر باعت أراضيها من اليهود ، فانتهى بذلك البيع الباغي ، المظهر الوحيد للاقطاع في فلسطين ·

وكان القرويون أنفسهم يملكون اراضي القرية ، بموجب حجج وعقود رسمية مسجلة في الدوائر الرسمية ، أما اراضي القرى التي لم تكن مملوكة لافراد أو عائلات من القرويين ، فانها كانت تعتبر ملكا عاما للقرية لاغراض المرعى والتحريج والتحطيب ··

ونتيجة لما كان يسود البلاد من عادات واعتبارات ، ونظم اجتماعية وسياسية ودينية تقليدية ، ولان اهل المدن كانوا بوجه عام ، متقدمين علميا وثقافيا على أهل القرى ، فمنهم رجال الدين والتجار وموظفو الدولة واصحاب المهن الحرة ، فان المدن شغلت مراكز الزعامة في البلاد من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية وعلمية ، وكانت هذه المراكز تشمل القرى التابعة لها اداريا ، فكانت مدينة القدس مثلا مركزا لزعامة قرى جبل القدس ، ونابلس لقرى جبل نابلس، وغزة لقرى وعشائر قضاء غزة وهلم جرا ٠

ولما قامت الحركة الوطنية الفلسطينية تركزت زعامتها ، بصورة تلقائية ، ووفقا للظروف والاعتبارات الانف ذكرها ، في المدن الكبرى ، واستقرت قيادتها الرئيسية في القدس ، العاصمة ٠ ولم تقتصر «زعامة» الحركة الوطنية على أهل المدن ، ولا على الاسر الكبيرة فيها ـ كما انفك الاعداء يزعمون ـ حيث ضمت في كل قضاء ، ثم في مركزها الرئيسي في القدس ، عددا غير قليل من أبناء القرى والعشائر ، وظل هذا العدد ينمو ويتكاثر على مر الايام والاعوام الى درجة أنه تجاوز عدد «أبناء» المدن في القيادات والزعامات ٠

ونظرا لقوة العنصر القروي في الحركة الوطنية ، والادوار الرئيسية التي ما انفك القرويون يلعبونها في ميادين الجهاد والكفاح ، ولالتفافهم حول قيادة الحركة الوطنية وتمسكهم بزعامتها ، فقد حاولت الحكومة بشتى الوسائل ومختلف الاساليب فصم عرى العلاقات بين أهل المدن وأهل القرى ، وايقاع الانقسام والفرقة والتناحر بينهم ٠

وعلى الرغم من فشلها المتواصل في مساعيها التخريبية في هذا الشأن ، فان الحكومة اندفعت خلال ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ في محاولات جديدة ،واسعة النطاق (بالتعاون مع اليهود) لاثارة الاختلافات بين أهل المدن وأهل القرى واشعال نار الفتنة بينهم ٠ فانطلقت تروج الدعايات المغرضة بين القرويين ضد ما أسمته «تسلط» أهل المدن عليهم ٠٠ وتهيب بأهل القرى الى خلع نير زعامة المدن وقيادة «المدنيين» ، الذين زعمت أنهم من فئة اقطاعية ٠٠ ومن طبقة «الافندية» لا يهمها من الحركة الوطنية أي أمر غير دعم نفوذها واستغلال القرويين وتسخيرهم لاغراضها الخاصة والذاتية ! وساهم في بث الدعاية الخبيثة بعض رجال جبهة المعارضة ، وفريق من الشبان الذين كانوا قد اعتنقوا مبادىء دخيلة هدامة ٠٠ ولكن هذه الجهود والمساعي ذهبت أدراج الرياح ٠٠ وتحطمت أغراضها على صخرة وعي القرويين الوطني وشعورهم القومي ٠

وزعمت الحكومة (عن طريق أبواقها واعوانها ٠٠) بأن الفلاحين مغبونون ٠٠ وأن أهل المدن وزعماءها يأكلون «أتعابهم» ويسيطرون على الزراعة ومنتجاتها ، ويتحكمون بأسعارها الخ ٠٠ واستطاعت الحكومة ان تستقطب عددا من «مخاتير» القرى ومزارعيها وغيرهم للمطالبة بما أسموه بحقوق المزارعين والقرويين ٠٠ وعقدت لهم مؤتمرا في بلدة بيت دجن في عام ١٩٣٣ ، على مقربة من مدينة يافا ، اطلق عليه اسم «مؤتمر الفلاحين والمزارعين» ٠ وقد اتخذ هذا المؤتمر عدة مقررات ٠٠ كان منها مطالبة الحكومة بحماية المزارعين والفلاحين من جشع أهل المدن ٠٠ ووجوب تمثيل «القرويين» في قيادة الحركة الوطنية والمجلس الاسلامي بالنسبة لاعدادهم في البلاد ! كذلك قرر الذين اشتركوا في هذا المؤتمر أنه الهيئة الوحيدة التي لها الحق بتمثيل القرويين والنطق باسمهم ٠

واغدقت الحكومة ، كما ثبت للجميع ، مبالغ كبيرة من المال على رجال هذا المؤتمر ، واعرب السكرتير العام للحكومة (وهو بريطاني) عن تأييدها للمؤتمر وتبنيها لقراراته ٠ ولكن أهل القرى عامة ، تبرأوا من هذا المؤتمر وشجبوا قراراته واعتبروه اداة مسخرة بأيدي الانكليز واعوانهم واليهود لضرب الحركة الوطنية وقيادتها ٠ ثم عقد قادة أهل القرى وزعماؤهم الحقيقيون وذوو الرأي والمكانة فيهم مؤتمرا « قرويا » في قرية المسمية في مطلع ١٩٣٤ ، نددوا فيه بمؤتمر «الفلاحين والمزارعين» الانف ذكره ، وشجبوا قراراته،واتهموا المجتمعين فيه بالعمالة للحكومة ولليهود ٠ واعربوا عن تأييدهم المطلق للحركة الوطنية وقيادتها ، وتعهدوا بمقاومة جميع المحاولات الشريرة والمساعي الضارة التي يبذلها ذوو الاهواء والاغراض ، وبايعاز من اليهود والانكليز ، لايجاد الانقسام والاختلاف بين طبقات الامة ، وخاصة بين أهل المدن وأهل القرى ، وبعد شهر عقد زعماء العشائر وشيوخ القبائل العربية في قضاء بئر السبع وغزة مؤتمرا كبيرا في (بيت الحاج ابراهيم الصانع) اتخذوا فيه مقررات مماثلة لمؤتمر المسمية ٠٠ أما «المؤتمر» الذي «خلقته» الحكومة لاغراض اثارة الفتنة فقد ذاب وانتهى ٠٠ ورجع معظم رجاله الى الحركة الوطنية تائبين ٠

٢ ـ الطائفية البغيضة

عندما شرعت بريطانيا ، بعد احتلالها لفلسطين ، تعمل على تنفيذ سياستها الباغية وخطتها الغادرة المرسومة للبلاد ، كانت تظن ان المسيحيين من الفلسطينيين سيقفون الى جانبها ، ويؤيدون برنامجها ، فهي دولة مسيحية ،

وملكها هو « حامي الانجيل » ، ولذلك فانه لم يكن من المعقول (في نظر الانكليز) ، أن يعارض المسيحيون سياسة دولة مسيحية وخطتها ! وكان من العوامل التي حملت بريطانيا على هذا الظن ، اعتقادها بأن المسيحيين مختلفون مع المسلمين ، وان بين الفريقين كراهية طائفية ودينية ، وتباينا في الاراء والاتجاهات ، وان المسيحيين يعطفون ، بوصفهم أقلية في البلاد ، على الاقلية اليهودية فيها !

وكان لبريطانيا ، قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) بعثات ومدارس تبشيرية ، ومنظمات ومؤسسات متعددة أخرى ، تعمل ، تحت ستار أسماء ومظاهر تجارية واقتصادية وخيرية وعلمية ورياضية وسياحية وغيرها ، على الدعاية لبريطانيا وحكمها ، وتحبيب الناس بها ، واستقطاب «انصار» لها ، و«أصدقاء» تستطيع أن تعتمد عليهم في الملمات .. ونظرا لان هذه البعثات والارساليات والمدارس والمؤسسات كانت تعمل بالدرجة الاولى في الاوساط الفلسطينية المسيحية ، فقد اعتقدت بريطانيا انها ضمنت جر المسيحيين الفلسطينيين الى جانبها وربطهم بسياستها وتحقيق تأييدهم لها في السراء والضراء .

ولكنها لم تدرك ولم تقدر ان المسيحيين الفلسطينيين هم ، في أكثريتهم الساحقة ، عرب أقحاح ، وان معظمهم من الارثوذكس الذين يعتبرون أنفسهم عرب فلسطين الاصليين ، كما انها جهلت أن فلسطين لم تعرف الاختلاف والانقسام والاحتراب بين المسلمين والمسيحيين وان الفريقين كانا دائما أبدا شقيقين صادقين تظللهما سماء الارض المقدسة .

لذلك فان بريطانيا فوجئت بوقوف المسيحيين الى جانب المسلمين في وجه سياستها الباغية ، واتفاق الفريقين على مقاومتها .. فانطلقت تحاول اثارة الانقسام والاختلاف بينهم . واشاعة ادران الطائفية البغيضة في اوساطهم ، وراحت تحاول ايهام المسيحيين بأنها دولة مسيحية صادقة واجبها الاول الاهتمام بمصالحهم وكيانهم وصيانة حقوقهم ومقدساتهم .. ولكن جهودها في هذا السبيل ذهبت دون جدوى ، ورد عليها أهل البلاد بتشكيل الجمعيات «الاسلامية المسيحية» لمعارضة السياسة البريطانية اليهودية ؛ وقد اختير هذا الاسم «الطائفي المظهر» لقيادة الحركة الوطنية ، للتدليل على متانة الاخوة وعمق التفاهم والتعاون بين المسلمين والمسيحيين .

وواصلت الحكومة البريطانية بذل جهودها الهدامة للايقاع بين المسلمين والمسيحيين واثارة روح الطائفية البغيضة في فلسطين خلال الاعوام العشرة الاولى لحكمها . ثم اندفعت باصرار وتصميم، خلال عام ١٩٣٠-١٩٣٣ ، لتحقيق أهداف خطة «فرق تسد» ، لتمزيق الجبهة الاسلامية المسيحية ، مستعينة بصورة خاصة بالارساليات والبعثات والمدارس التبشيرية ، وباليهود ومن غدا لهم من «عملاء» ، من فئة ضئيلة من العرب ، ما انفك افرادها يركضون لاهثين خلف الاصفر اليهودي الرنان . وفيما يلي بيان مقتضب بأبرز ما وقع من أعمال وجرى من محاولات بهذا الشأن :

١ - روج الاعداء لفكرة شريرة خبيثة ، مالها ان يعنى النصارى بشؤونهم وأمورهم وان يدافعوا عن حقوقهم ومصالحهم ، في منأى عن المسلمين ، وان استقلالهم بالعمل «كمسيحيين» يكسبهم عطف الدول الاوروبية والشعوب المسيحية .. وان السبيل الامثل لتحقيق هذه الفكرة هو تشكيل «جمعيات مسيحية» في مختلف المدن الفلسطينية ، ثم تجتمع في مؤتمر يمثل المسيحيين . وتولى الدعوة الى تنفيذ هذه الخطة ، وتشجيع المسيحيين على الاقدام عليها ، عدد من كبار موظفي الحكومة البريطانيين الذين جعلوا يتظاهرون بالتدين والاهتمام بمصالح «المسيحيين» وكيانهم في البلاد .. وقام المطران الانكليكاني في القدس (وهو بريطاني) وبعض القساوسة التابعين له .. ببذل جهود واسعة النطاق في هذا السبيل . ومن ناحية أخرى طلبت بريطانيا ، بواسطة سفيرها في روما ، من قداسة البابا ان يدعو اتباعه من المسيحيين الفلسطينيين للمساهمة في تحقيق هذا المشروع ، مؤكدا لقداسته ان مصلحة «المسيحية» في فلسطين تحتم تشكيل جمعيات مسيحية خاصة . وكذلك استعانت الحكومة البريطانية بزميلتها فرنسا ، لاقناع المسيحيين الفلسطينيين بالمبادرة الى تشكيل جمعيات مسيحية .. فأوفدت فرنسا (وكانت منتدبة على لبنان وسورية) صديقها المعروف مطران بيروت الماروني (المطران مبارك) الى فلسطين ؛ للقيام بهذه المهمة .

لكن المسيحيين الفلسطينيين بوجه عام ، والارثوذكس منهم بوجه خاص ، أدركوا كنه هذه المؤامرة التي يبيتها الانكليز ضد فلسطين وأهلها العرب ، فقاوموا الفكرة وعارضوها معارضة شديدة .. فباءت المحاولة البريطانية اليهودية بفشل ذريع ، اذ لم تسفر جهود الاعداء ومساعيهم عن غير تشكيل جمعية واحدة في البلاد .. هي (الجمعية المسيحية) في حيفا في نيسان عام ١٩٣٠ ولكن هذه الجمعية نفسها لم تستطع الصمود أكثر من بضعة اسابيع في وجه

الرأي العام المسيحي ٠٠ فقضت نحبها ٠٠ وزالت من الوجود ٠

٢ ـ وانطلقت الحكومة البريطانية في الوقت نفسه تدعو الى فكرة تشكيل جمعيات اسلامية ٠٠ وعقد مؤتمر اسلامي بعد الانتهاء من تشكيلها ٠ وروج الاعداء في الاوساط الاسلامية مثل نفس المزاعم والادعاءات التي روجوها في الاوساط المسيحية ٠٠ وحاولوا اقناع المسلمين بأن من مصلحتهم تشكيل جمعيات اسلامية ٠٠ لا سيما ان المسيحيين كانوا قد بدأوا بتشكيل جمعيات مسيحية خاصة بهم ٠٠ مدللين على ذلك (بالجمعية المسيحية) التي تألفت في حيفا ٠

وتولى عدد من رجال الدين المسلمين (وهم معروفون بمقاومتهم للمجلس الاعلى ومعارضتهم لرئيسه الحاج أمين) الترويج لهذه الدعوة الضارة المضللة في أوساط المسلمين ٠٠ وعاونهم في مساعيهم وجهودهم عدد من رجال جبهة المعارضة (الفلسطينية) المعروفة ٠٠ وقد استطاع هؤلاء تشكيل جمعيات اسلامية (أسموها الجمعيات الاسلامية الوطنية) في كل من عكا وصفد والناصرة والرملة ويافا ٠٠ ثم عقد في تموز ١٩٣١ ما سمي «بالمؤتمر الاسلامي الوطني» برئاسة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي ، وبزعامة الشيخ أسعد الشقيري ، ولكن المسلمين وقفوا في وجه هذا الخطر الذي يهدد سلامة قضية فلسطين وينذر بفصم عرى الوحدة الاسلامية المسيحية الراسخة ، وثار الرأي الاسلامي على هذه «الجمعيات الاسلامية الوطنية ومؤتمرها» ٠٠ ونددوا برجاله وشجبوا فكرة تشكيل هذه الجمعيات ٠٠ وقد بلغ من غضب المسلمين على هذه الحركة «الطائفية الانفصالية» حدا من القوة والتصميم أدى الى زوال هذه الجمعيات والقضاء على الفكرة التي انبثقت عنها ٠٠

وهكذا تغلبت الوحدة بين المسلمين والمسيحيين على جميع الجهود والمساعي التي بذلت لفصمها ٠٠

في الميدان الاقتصادي

انتقل الاعداء ، بعد فشلهم في الميدان السياسي لتمزيق الوحدة الاسلامية ـ المسيحية ، الى الميدان الاقتصادي يعملون فيه على بلوغ هدفهم القذر ، فقد كان المسيحيون ، لاعتبارات معروفة لا حاجة الى تفصيلها ، متقدمين ـ في الاوساط العربية ـ اقتصاديا وتجاريا على اشقائهم المسلمين ، وكان القسم

الاكبر (في المحيط العربي) من التجارة الخارجية ووكالات الشركات الاجنبية في أيدي أفراد من المسيحيين ٠ وكان المسلمون يغتبطون لهذا التقدم لان فيه تعزيزا اقتصاديا للعرب عامة ، من ناحية ، ولانه ، من ناحية ثانية ، يضعف من السيطرة الاقتصادية اليهودية في فلسطين ، ولذلك فانهم تعاونوا مع المسيحيين وشجعوهم ، بشتى الوسائل والطرق ، في هذا المضمار ٠

واستغل الاعداء هذا الوضع الاقتصادي لاثارة المسلمين واهاجتهم ضد ما اسموه «سيطرة» المسيحيين على الاقتصاد العربي ! واستطاع الاعداء استقطاب بعض الاشخاص من المسلمين للقيام بحملة في الاوساط الاسلامية ضد هذه السيطرة المسيحية ٠٠ وأغدق اليهود مبالغ غير قليلة من المال على هؤلاء المأجورين (نؤثر عدم ذكر اسمائهم ٠٠ لا سيما وان المجاهدين قد قتلوا فيما بعد معظمهم بتهمة الخيانة ٠٠) قبضوا من بنك موصيري اليهودي في الاسكندرية مبلغ ثلاثين ألف جنيه مصري ، كدفعة أولى ، لاشعال نار الفتنة بين المسلمين والمسيحيين ٠ فضلا عما كانوا يقبضونه من مال السحت والحرام من دائرة الاستخبارات البريطانية والوكالة اليهودية (الجمعية الصهيونية حينئذ وكان سكرتيرها الكولونيل كيش البريطاني اليهودي) لهذا الغرض ٠

وقام هؤلاء العملاء بدعاية واسعة النطاق ضد المسيحيين واثارة المسلمين عليهم وحثهم على مقاطعة المتاجر والشركات المسيحية ٠٠ وقد انطلت احابيل هذه الدعاية ، مع الاسف الشديد ، على عدد من المسلمين انفسهم فانطلقوا يدعون بدورهم الى مقاطعة المسيحيين ٠٠ وبالفعل قامت مثل هذه المقاطعة وتولى عدد من الشبان المسلمين (نتيجة للاغراء ودفع المال) التصدي للمسلمين ومنعهم من التعامل مع المسيحيين والحيلولة دون دخولهم الى المتاجر المسيحية والشراء منها ٠٠ وبرزت هذه المقاطعة بصورة خاصة في مدينة القدس ويافا ٠٠ وتركت اثرا سيئا ادى الى قيام شيء من التوتر في العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ٠٠ كان ينطوي استمراره ونموه على وقوع الفتنة التي كان ينشدها الاعداء والعملاء ٠

ولكن زعماء الحركة الوطنية عامة والمسلمين منهم خاصة ، انبروا يقاومون هذه الحركة المؤذية الضارة بكل صدق وتصميم ٠ أما سماحة المفتي ، الذي هاله ما كان يجري ، فانه اندفع يعالج الموضوع بنفسه ، ويبذل جهوده لاحباط الفتنة والقضاء على أسبابها ، وراح يوجه المسلمين الى محاربتها ٠ فقام قضاة الشرع الشريف وأئمة المساجد ووعاظها وموظفو المجلس الاسلامي والاوقاف والمحاكم الشرعية يناهضون هذه الفتنة ويحذرون الامة من شرورها ، ويكشفون

للمسلمين النقاب عن القائمين بها والعوامل والاسباب التي تدفعهم الى ذلك ٠ وتطوع عدد كبير من شبان المسلمين الصادقين لحماية المتاجر والشركات ووسائل النقل المسيحية من العملاء وأذنابهم ، ولقنوا الذين كانوا يدعون الى المقاطعة دروسا قاسية ٠٠ يعرفها أهل القدس ويافا تمام المعرفة ٠٠ وكان عارف الجاعوني وسعيد زايد ومحمد القرة شولي ومحمود العكرماوي وجودت الحلبي وأمثالهم من شيوخ الشباب يقودون الحملة ضد هذه الحركة الهدامة ٠

وبفضل تصدي المفتي لمقاومة هذه الفتنة الباغية ، ونتيجة لما قام به الوطنيون من أعمال وبذلوه منجهود، تغلبت الوطنية العربية الصادقة على المؤامرة والمتامرين ٠٠ ووضعت حدا لشرورها ٠٠ وخرجت الوحدة الاسلامية المسيحية من هذه المعركة (التي اصطنعها الاعداء) قوية راسخة شامخة ٠٠ ونال دعاتها القصاص الذي يستحقونه على أيدي المجاهدين والمناضلين ٠

الوظائف ٠٠

ان هذا الفشل الذريع الذي لازم الاعداء في محاولاتهم المؤذية وجهودهم الضارة ، لم يثبط من عزيمتهم على اشعال النار ـ نار الفتنة بين المسلمين والمسيحيين ، بل زادهم امعانا في خطتهم الغادرة وتماديا في سياستهم البشعة ، حيث انطلقوا الى وسائل اخرى ، أشد خبثا ومكرا ، للوصول الى غايتهم ٠ وعندما نقول الاعداء فاننا نعني الحكومة البريطانية واليهود ومن انضوى تحت لوائهم من بعض العرب ٠٠

كان جهاز الحكومة يتألف من موظفين عرب وانكليز ويهود ، وكانت مناصب الدولة الكبرى والرئيسية وقفا على الانكليز واليهود ، فكان منهم المندوب السامي والسكرتير العام وقاضي القضاة وحكام الالوية ومديرو الدوائر ومدراء الشرطة في الالوية والنائب العام ورؤساء المحاكم العليا والمركزية الخ ٠٠

وكان الموظفون العرب في الحكومة ، أكثر عددا من موظفيها الانكليز واليهود ، ولكنهم لم يشغلوا أيا من مناصبها العليا والرئيسية ٠٠ بل وظائف ثانوية وعادية فيها ، فيما كان القسم الاكبر منهم يشغلون مناصب كتابية بسيطة ، ووظائف مراسلين وحجاب وحرس ٠٠ وكانت أعلى وظيفة حكومية شغلها

موظف عربي هي وظيفة قائمقام أو ضابط بوليس أو عضوية المحكمة العليا أو المحاكم المركزية ٠

وكان موظفو الحكومة العرب من المسلمين والمسيحيين،ولكن نسبة المسيحيين منهم كانت أكثر قليلا من نسبة المسلمين ، ويعود السبب في ذلك الى ان الكثيرين من المسيحيين كانوا يتقنون اللغة الانكليزية عندما احتلت بريطانيا فلسطين ، على عكس اخوانهم المسلمين ، فاختارت الحكومة لاجهزتها الادارية عددا من المسيحيين يفوق عدد المسلمين وفي الواقع فان المسلمين لم يعيروا هذه المحاولة أي اهتمام لانهم كانوا يعتبرون الموظفين المسيحيين عربا ، وكانت شكوى المسلمين والمسيحيين على السواء ـ من حيث الوظائف ـ تقتصر على حرمان العرب من اشغال وظائف الدولة العليا ، وعلى ارتفاع عدد الموظفين اليهود ، بالنسبة للموظفين العرب ، مع أن اليهود كانوا أقلية في البلاد والعرب أكثرية ٠

ووجد الاعداء في موضوع الوظائف وسيلة لاثارة الشقاق والانقسام بين المسلمين والمسيحيين ٠٠ فدفعوا بعض الاشخاص من المسلمين ـ الذين استقطبتهم الحكومة لخدمة سياستها ـ للمطالبة بحقوق المسلمين في الوظائف ، من ناحية ، ومن ناحية اخرى للترويج في الاوساط الاسلامية لدعاية ماكرة مالها ان المسيحيين (وهم الاقلية بين العرب) يشغلون من المناصب والوظائف الحكومية أكثر مما يشغله المسلمون منها ، وعلى حسابهم ٠٠ أي أن المسيحيين هم الذين يغمطون حقوق المسلمين في الوظائف ٠٠ وانه لولا «اعتماد» الحكومة على المسيحيين و «ثقتها» بهم ٠٠ لما فضلتهم على المسلمين ٠٠

وكان الشيخ سليمان التاجي الفاروقي (الذي سبق له أن ترأس مؤتمر الجمعيات الاسلامية الوطنية وبذل أكبر جهد مستطاع لتمزيق الوحدة الاسلامية المسيحية ، تنفيذا لرغبة الحكومة وانصارها) ، قد أصدر عام ١٩٣٢ في يافا جريدة يومية باسم (الجامعة الاسلامية) ، وقيل حينئذ ان هذه الجريدة صدرت بأموال غير عربية .. والمطلعون يرجحون صحة هذا القول ، وتولت (الجامعة الاسلامية) فور صدورها ، مهمة مقاومة الحركة الوطنية ومعارضة المجلس الاسلامي الاعلى ورئيسه ٠٠ واستمرت تنتهج هذا النهج الانحرافي طوال مدة صدورها ٠٠ الامر الذي أقنع الناس بصحة ما قيل عن مصدر تمويلها ٠

فلما قرر الاعداء استغلال موضوع الوظائف لمحاولة اثارة الانقسام والاختلاف بين المسلمين والمسيحيين ، قامت (الجامعة الاسلامية) في عام ١٩٣٣ بحملات شديدة ودعايات مغرضة مضللة واسعة النطاق في هذا الشأن ٠ وجعلت تنشر المقال تلو المقال عن هضم حقوق المسلمين في الوظائف ، وعن غمط المسيحيين لهذه الحقوق ٠٠ وتهيب بالمسلمين للدفاع عن حقوقهم وكيانهم ! (بالطبع لم تتكلم الجامعة الاسلامية اطلاقا عن استئثار الانكليز واليهود بوظائف الدولة العليا والرئيسية ولا عن كثرة عدد الموظفين اليهود في الحكومة ٠٠) ثم أخذت الجامعة الاسلامية تنشر لوائح يومية بعنوان «أرقام تتكلم» عن عدد الموظفين المسيحيين في الحكومة ، وتقارنه بعدد الموظفين المسلمين فيها) ٠

وكانت جريدة (فلسطين) اليومية قد خرجت على الجبهة الوطنية وغدت من صحف المعارضة الرئيسية ، فلما تولت جريدة (الجامعة الاسلامية) – وهي من صحف المعارضة أيضا – التصدي لموضوع الموظفين ٠٠ بقصد اشاعة الانقسام بين المسلمين والمسيحيين ٠٠ انبرت جريدة فلسطين (وأصحابها مسيحيون ٠٠) للرد على (الجامعة الاسلامية) و الدفاع عن المسيحيين وحقوقهم ٠٠ ووظائفهم الحكومية ٠٠

ومن المحزن ان حملة (الجامعة الاسلامية) والحملة «المعاكسة» التي تولت أمرها جريدة (فلسطين) انطلت احابيلهما على الكثيرين من المسلمين والمسيحيين واوجدتا جوا من الخوف والقلق والتحسب بين فئات اسلامية واخرى مسيحية ، بدأت معه بوادر انقسام وتباعد بين الجانبين ٠٠ ازعجت زعماء الحركة الوطنية وقادة المسلمين والمسيحيين على السواء ، فاندفعوا الى العمل الجدي للقضاء عليها واحباط الجهود المبذولة لاثارة نار الفتنة بين الشقيقين ٠٠ واندفع سماحة الحاج أمين بدوره الى تقويض الدعوة الباهتة الرامية الى صدع الوحدة الوطنية وبذل أضخم ما استطاع بذله من جهود ومساع ، يضيق نطاق هذه العجالة عن تفصيلها ، وكان في طليعتها اعلانه بأنه يعتبر الموظفين المسيحيين والمسلمين على السواء موظفين عربا ٠٠ وان الوطنية الصادقة وغير الزائفة ، تحتم المطالبة بحقوق العرب عامة في وظائف الحكومة ، بالنسبة لاعدادهم في البلاد ، لا سيما في وظائف الحكومة العليا والرئيسية ٠

وأدت جهود الحاج أمين ومساعي الزعماء الوطنيين الى القضاء على محاولات

اثارة الانقسام واشاعة الخلاف بين النصارى والمسلمين ، والى انتصار الوحدة الوطنية بين الفريقين وازديادها رسوخا في نفوس ابناء الشعب الفلسطيني ٠

محاولات اخرى لاثارة الفتنة

واستغل الاعداء بعض الرواسب التي خلفتها مسألة الوظائف في بعض الاوساط الشعبية ، لمواصلة جهودهم الشريرة لاشعال نار الفتنة بين المسلمين والمسيحيين ونشر روح الطائفية البغيضة والتعصب الديني الذميم في فلسطين ٠٠ ولجأ الاعداء في هذه المرة الى أبشع الوسائل والاساليب ٠ ففي الحين الذي اطلقوا عملاءهم ومأجوريهم للعمل على اثارة خواطر المسلمين ضد المسيحيين واهاجة المسيحيين على المسلمين ، فانهم «استأجروا» بالمال طبعا ٠٠ بعض الاشرار من المجرمين ٠٠ وشكلوا منهم «عصابات» في المدن للاعتداء على المسيحيين ٠٠ كما أوجدوا «عصابات» اخرى من الاشرار المجرمين مهمتهم الرد على هذه الاعتداءات بمثلها ٠٠

ونتيجة لهذا التدبير الاجرامي وقعت حوادث اعتداء على بعض المسيحيين في القدس ويافا واللد والرملة ، واعتداءات اخرى على بعض المسلمين في هذه المدن ٠٠ ثم حدث اعتداء قذر على كنيسة مار جريس (الخضر) في اللد ٠٠ وبعض الجمعيات المسيحية فيها .. فشاع في البلاد قلق عظيم واستبد بالشعب خوف كبير من وقوع «مذابح» في البلاد بين المسلمين والمسيحيين ٠٠ وكان مما زاد في حالة التوتر والقلق ما طفق الاعداء يروجونه في جميع الاوساط من دعايات ويطلقونه من اشاعات وترهات ٠٠ وقيام الصحف اليهودية والبريطانية ،وبعض الصحف الفلسطينية المعارضة ، بنشر اخبار فيها مبالغة عظيمة ، عن حوادث الاعتداءات المتبادلة ونشوب الفتنة بين المسلمين والمسيحيين ٠

وبغية القضاء على هذه الفتنة ، أو بالاحرى بوادرها ، أذاع رؤساء الدين المسلمين والمسيحيين بيانات مشتركة شديدة اللهجة ينبهون فيها الشعب الى تآمر الاعداء لصدع وحدته ، وتمزيق صفه ، ويحذرونه من مغبة الاندفاع وراء الدعايات والاشاعات ٠٠ ودعا رؤساء الدين ابناء فلسطين الى التمسك بالوحدة القائمة بينهم والحفاظ على قدسيتها ٠ ومن ناحية اخرى تولى زعماء البلاد معالجة الموضوع بشتى الوسائل المستطاعة والاساليب الممكنة ، ومنع وقوع الاعتداءات المتبادلة ٠

وعني الحاج أمين الحسيني بهذه المسألة عناية فائقة ، وصمم على القضاء على الفتنة واسبابها ، ونتيجة لتوجيهاته أخذ خطباء المساجد في فلسطين يحذرون الناس من جهود الاعداء ومساعيهم ويدعون المسلمين الى الضرب بأيد من حديد على كل من يعمل على اثارة الفتنة ، وجعل قضاة الشرع الشريف والعلماء ومديرو دوائر الاوقاف وأئمة المساجد وغيرهم ، جعلوا همهم الاول مكافحة الفتنة والانقسام وتقويض اسبابها ٠

وقام الحاج أمين الحسيني بنفسه يتجول في الاحياء المسيحية والاسلامية في القدس ، ويزور أقطابها وزعماءها ، حاثا على مقاومة الفتنة ووضع حد لاعمال مثيريها ٠ وزار سماحته مدينة اللد حيث جرى له استقبال شعبي حافل ، انقلب الى مظاهرة وطنية ضد الفتنة ومثيريها ٠ كما زار كنيسة مار جريس والنوادي المسيحية في اللد ، واعلن استنكاره الشديد للاعتداءات القذرة التي حدثت ٠

كذلك زار المفتي مدينة يافا ، وكنائسها ، ومساجدها ، وجمعياتها الاسلامية والمسيحية على السواء ، داعيا الى مقاومة الفتنة ومكافحة مثيريها ٠ وأقام النادي الارثوذكسي في يافا حفل تكريم ضخم لسماحته ، حضره اقطاب المدينة وزعماؤها وشبابها وممثلو سائر النوادي والجمعيات الاسلامية والمسيحية ، وفي اليوم الثاني أقامت جمعية الشبان المسلمين في المنشية (يافا) حفلة شعبية كبيرة ، على شرف سماحته ، فغصت قاعاتها الواسعة بزعماء المسلمين والمسيحيين وشبابهم وبممثلي جميع أندية المدينة وجمعياتها ، وفي طريق عودته الى القدس جرت لسماحة المفتي احتفالات شعبية كبيرة في مدينة الرملة ، انقلبت الى مظاهرات ضد الفتنة ومثيريها ٠

وبالفعل قضي على الفتنة قضاء مبرما ٠٠ وعادت مياه الوحدة الاسلامية المسيحية الى مجاريها الطبيعية ٠

مؤامرات لاغتيال زعماء النصارى

ولكن أنى لاعداء العرب وفلسطين أن يكفوا شرورهم عن الفلسطينيين ، فبعد الفشل الذريع الذي منيت به جهودهم ومؤامراتهم الانف ذكرها ، فانهم لجأوا الى اخر ما في جعبتهم من سهام الشر والاذى وأسلحة الفتك والتخريب ٠ فوضعوا خطة خبيثة ، في منتهى الشر والقذارة ، لاغتيال بعض زعماء المسيحيين

من المعروفين بانتمائهم الصادق الى الجبهة الوطنية ٠٠ الامر الذي يؤدي بطبيعة الحال الى أسوأ العواقب واوخم النتائج ٠

وعلم المفتي بهذه المؤامرة الجهنمية ، فجعل يحذر المسيحيين منها ، وينبه المسلمين الى وجوب تطويقها ومنع تحقيقها ٠ ولكن على الرغم من هذا كله فان الاعداء استطاعوا تنفيذ جريمة اغتيال بشعة ، كان من شأنها اشعال نار فتنة حقيقية في البلاد لو لم يتصد المسلمون أنفسهم لانقاذ الشعب من شرورها ٠

كان ميشيل متري ، وهو من أنبه شباب يافا وأشدهم وطنية وأكثرهم تضحية في سبيل المصلحة العامة ، سكرتيرا لجمعية العمال العربية في يافا ، ومعظم أعضائها من المسلمين ، وكان محبوبا جدا في جميع الاوساط المسيحية والاسلامية ٠ فاختاره الاعداء ليكون الضحية الاولى لمؤامرتهم الاجرامية ٠

فاستأجروا بعض المجرمين من قضاء بني صعب ، لاغتياله ٠ ففي احدى الامسيات في تموز ١٩٣٥ ، وكان ميشيل خارجا من اجتماع عقدته جمعية العمال المذكورة اطلق عليه المجرمون الرصاص فأردوه قتيلا واختفوا عن الانظار ٠ وقابل المسلمون والمسيحيون هذه الجريمة البشعة بالغضب والنقمة ، وانقلب موكب جنازة تشييع جثمان ميشيل متري الى مقبرة الروم الارثوذكس ، الى مظاهرة صاخبة هتف فيها المحتشدون ضد العملاء والذين يكمنون خلفهم ٠ على ان الجريمة تركت ، من ناحية اخرى ، اثارا سيئة في الاوساط الفلسطينية ، لا سيما في يافا ، استغلها الاعداء لغرض اشاعة الفتنة واثارة خواطر المسيحيين٠٠ وتخويفهم من «اغتيال» المسلمين لزعمائهم ٠٠

واهتم المسلمون بهذه الحادثة المحزنة اهتماما خاصا ، فانطلق عدد من شبابهم المجاهدين ، يفتشون على القتلة ، ويعملون على الوصول الى اسباب الاغتيال ودوافعه ٠٠ فأدت جهودهم ، وبسرعة فائقة ، الى كشف الستار عن المتامرين٠٠ فهاجمهم الشبان في بيوتهم واطلقوا النار على بعضهم ومن ثم القى المجاهدون القبض على القتلة في قرية (مجدل الصادق) في قضاء طول كرم ، وكان يتزعمهم شخص يدعى علي القاسم ، فقتلوهم فورا ٠

وهكذا قضى المسلمون أنفسهم على «فتنة» أراد الاعداء اشعال نارها بأيدي بعض المجرمين من «المسلمين» لاسباغ صفة طائفية عليها ٠

بالاضافة الى جهود الاعداء ومساعيهم لايجاد انقسام واختلاف بين المسلمين والمسيحيين ، فانهم لم يتوقفوا اطلاقا عن محاولاتهم المتعددة الاشكال والالوان لصدع الصف الوطني الفلسطيني وتمزيقه • ومن المحاولات التي لجأ اليها الاعداء لبلوغ هدفهم هذا ، محاولة بعث حزبية قديمة عرفتها فلسطين (لا سيما في لواء القدس) لاجيال طويلة ، قبل القرن العشرين ، الذي انتهت فيه هذه الحزبية وزالت من الوجود ، باستثناء بعض مظاهر لها صفة محلية هي التي أخذها الاعداء أساسا وقاعدة ينطلقون منها لبعث حدة الحزبية القديمة •

فقد كان الفلسطينيون (المسلمون والمسيحيون على السواء) منقسمين في الماضي الى حزبين أو فريقين أساسيين هما فريق «قيس» وفريق «يمن» ، وفي الغالب نشأت هذه الحزبية القبلية عن منشأ وأصل الجماعات التي يتشكل منها الشعب العربي الفلسطيني •

وقامت هذه الحزبية ، بصورة خاصة ، في متصرفية القدس الممتازة ، التي كانت تتألف من أقضية القدس ورام الله واريحا وبيت لحم والخليل وغزة والمجدل ويافا واللد والرملة • وعلى مر الايام والاعوام تركزت هذه الحزبية فيما غدا يعرف بلواء القدس (اقضية القدس واريحا وبيت لحم والخليل ورام الله)، وقد بلغت من الحدة ، في القرون الغابرة درجة خطيرة ، أدت الى نشوب «حروب» قبلية بين الفريقين القيسي واليمني •

وباستثناء جبل الخليل (قضاء الخليل) الذي كان قيسيا بوجه عام ، فان مدن وقرى سائر الاقضية كانت منقسمة الى قيس ويمن ، في حين كانت عدة مدن وقرى (مثل القدس ورام الله وبيتونيا وغيرها) ينقسم أهلها الى قيسيين ويمنيين •

وتركزت زعامة الفريق القيسي في جبل الخليل ، وفي قرية الراس بقضاء رام الله ، بينما تركزت زعامة الفريق اليمني بالاسرة الحسينية بالقدس وال ابو غوش في قرية العنب الواقعة على مسافة ١٠ كيلو مترات الى غرب القدس ، على طريق يافا ، وكانت أسر القدس الكبيرة اما يمنية (كالحسينيين والنشاشيبيين) واما قيسية كالاسرة الخالدية •

فلما نشأت الحركة الوطنية الفلسطينية انصهرت فيها القيسية واليمنية على السواء ، فلم يعد لهذه الحزبية من وجود سوى الوجود التقليدي ببعض مظاهره •• ودانت المدن والقرى والحمايل والعائلات والطوائف ، من قيسية ويمنية ، الى زعامة الحركة الوطنية التي تركزت لاعتبارات كثيرة سيأتي الحديث عنه في فصل اخر ، في أيدي اشخاص من الاسرة الحسينية في القدس ، وهي أسرة يمنية ، واخرين من افراد عشائر وعائلات من قيسية ويمنية •

ولجأ الاعداء ، من ضمن ما لجأوا اليه من وسائل لصدع الوحدة الوطنية وصف النضال الفلسطيني ، الى محاولة اثمة لبعث الروح الحزبية القديمة (قيس ويمن) ، فاخذ دعاتهم وعملاؤهم يثيرون هذه الحزبية في المدن والقرى ، ويسعون لاثارة القيسيين على اليمنيين واليمنيين على القيسيين •• وجعلوا يحرضون المدن والقرى القيسية على الزعامة ويصفونها بأنها يمنية •• وان تاريخ القيسيين لا يجيز لهم أن يكونوا تابعين لها • وتولى عدد من رجال الحكومة (وفق خطة مرسومة) العمل على احياء التراث القيسي أو التراث اليمني •• ودعوة الناس الى التمسك بحزبيتهم القديمة •• وممارستها ، حفظا لتاريخهم وتقاليدهم الخ •• ووضع هؤلاء الدعاة دراسات متعددة عن تاريخ القيسيين وتاريخ اليمنيين ، والحروب التي قامت بينهم ونشروها على نطاق واسع •• وذلك لقصد اثارة هذه الحزبية القديمة ، بغية ضرب الحركة الوطنية وصدع وحدتها •

لكن جهود الاعداء في هذا السبيل ذهبت ايضا ادراج الرياح ، حيث تحطمت على صخرة الوعي الشعبي الوطني الذي برز بعد قيام الحركة الو طنية ونما وتعاظم عبر ثورات الشعب الفلسطيني وجهاده العظيم الرائع •

١٧

التنظيم السري

ان الاحداث والتطورات المذكورة في الفصول السابقة ، لم تشغل القادة الصادقين ، والشبان المؤمنين عن الانصراف الى التهيئة والاعداد والتنظيم السري لمحاربة الحكم البريطاني في ميدان الجهاد والكفاح ، بل لعل هذه الاحداث والتطورات ، حفزت هؤلاء القادة والشبان الى الاندفاع في هذا السبيل ، وزادتهم قناعة بوجوب الالتجاء الى القوة والنضال للدفاع عن فلسطين وعروبتها .

وثمة عامل خطير اخر حتم على العاملين وجوب الاسراع في العمل والاعداد، ذلكم ما بلغهم ، بصورة اكيدة عن تهريب اليهود للاسلحة والاعتدة ، على نطاق واسع ، وتوزيعها على المستعمرات اليهودية ، لا سيما المجاورة منها للمدن والقرى العربية ، وعن مبادرتهم الى زيادة عدد افراد منظمتهم العسكرية (الهاغانا) ، وتشكيل عصابات « سرية » للارهاب والتخريب ... (وكان ذلك كله يجري بمعرفة الحكومة وتأييدها) .

وكان هناك فريقان عربيان يعملان منفصلين في ميدان التهيئة والاعداد والتنظيم السري ، ينشط كل منهما في ناحيته وبمعزل عن الفريق الاخر ، ولم يكن يجمع بين هذين الفريقين تعاون او تفاهم او خطة مشتركة ، بل كان الواحد منهما يجهل الاخر ولا يعرفه ... ولكنهما لم يلبثا أن اصبحا فيما بعد ، فريقا واحدا ، يعمل وفق خطة موحدة، وتحت قيادة واحدة ، كما سيأتي تفصيل ذلك في سياق الحديث .

ونعتقد أن دور التنظيم السري هو من اخطر الادوار التي مرت بها الحركة الوطنية ، لانه مهد السبيل لتحويل المقاومة الفلسطينية الى حركة جهاد صحيح استمر قويا جدا حتى ايار ١٩٤٨ ، وهو جدير بأن يعرض بوضوح وصراحة،

ولو على حساب افشاء بعض الاسرار والمعلومات التي ما زالت محاطة بالسرية والكتمان . فقد كان العاملون في ميدان التنظيم السري يلتزمون خطة التكتم بشكل عجيب ، وما انفكوا ، رغم مرور زمن طويل على اعمالهم وجهودهم ، يؤثرون السكوت عنها وعدم اعلانها ، لحرصهم على الابتعاد عن التظاهر والدعاية ، ولرغبتهم في أن تسند جميع وسائل العمل واساليبه ونتائجه ، الى الشعب العربي الفلسطيني كمجموع . وهذا النهج الذي انتهجه هؤلاء ، يقطع بأنهم انما كانوا يقصدون في اعمالهم وجه الله والوطن فحسب. ولكن سكوتهم هذا ، ادى الى نتائج غير مستحبة ، حيث حرم الرأي العام ، لا سيما ابناء الجيل الفلسطيني الجديد، من معرفة الحقائق والوقائع على وجهها الصحيح . ومن ناحية اخرى فان ذوي الاغراض والاهواء ، فضلا عن الاتباع والعملاء ، استغلوا حرص العاملين الشديد على السرية والكتمان ، وايثارهم تجنب المكاشفة بأعمالهم وجهودهم ، لتشويه تاريخ الجهاد الفلسطيني ، ومحاولة النيل من زعامته ، والطعن في قيادته ، وتضليل الشعب وابعاده عن معرفة الحقائق والوقائع التي تشرف الجهاد الفلسطيني وقيادته . وما زال هؤلاء المغرضون المضللون ، ينشرون المزاعم الباطلة والادعاءات الكاذبة ، ويروجون لسلسلة من الاباطيل والترهات ، ويبثون دعايات الافك والبهتان ، حول دور الزعامة الفلسطينية الحقيقي في بعث الجهاد واشعال نيران الثورات الفلسطينية المجيدة ، وهذه الحقيقة المرة تضاعف واجب كشف النقاب ، بصدق وصراحة ، عن حقائق ووقائع من حق ابناء الشعب الاطلاع عليها .

عبد القادر الحسيني

وكان (الشبان الوطنيون) يشكلون احد هذين الفريقين في اعمال التهيئة والاعداد والتنظيم السري . وقد تحدثنا في فصل سابق عن (التنظيم السري) الذي اوجده عدد من هؤلاء الشبان وعقدوا لواء قيادته لعبد القادر الحسيني، كما أوردنا اسماء بعضهم ، وشيئا عن الاعمال التي قام بها افراد هذا التنظيم. فلما اصاب الحركة الوطنية ما اصابها من التفكك والتخاذل في مطلع ١٩٣٤، وظهر لهؤلاء الشبان ما ظهر من امعان اليهود في استعداداتهم العسكرية السرية ، فانهم انطلقوا يضاعفون جهودهم ويحثون السير في مجال العمل . وكان عبد القادر الحسيني لولب هذه الحركة وروحها ! وقبل الدخول في شرح

الاعمال والادوار التي قام بها هؤلاء الشبان المؤمنون ، نقدم الكلمة التالية الموجزة عن عبد القادر الحسيني :

« ولد عبد القادر الحسيني عام ١٩٠٧ في القدس ، وهو نجل الزعيم الشيخ موسى كاظم باشا الحسيني . درس في كلية روضة المعارف الوطنية، وانهى دراسته الثانوية في مدرسة صهيون (بيشوب غوباط) الانكليزية ، في القدس . ورأى المغفور له والده أن يلحقه بالجامعة الامريكية في بيروت للدراسة فيها ، ولكن عبد القادر آثر الالتحاق بالجامعة الامريكية في القاهرة ، وكان حافزه الى هذا الاختيار كما اعلمني برسالة منه بعث بها الي وانا في أمريكا ، رغبته في أن يعيش الحركة الوطنية المصرية التي كانت قد بلغت اوج شدتها حينئذ بقيادة مصطفى النحاس باشا ليتمرس على اساليب المقاومة ، وأن يشبع نهمه الى الحياة في جو العروبة والاسلام ومعرفة تاريخهما على وجهه الصحيح ، في قاهرة المعز والى جانب الازهر الشريف .

وكان عبد القادر تلميذا ناجحا ونشيطا في الجامعة الامريكية في القاهرة ، ولكنه كان يتضايق (كما كان يقول لي في رسائله التي كانت تتوالى علي) من « سيطرة الروح الامريكية المتفشية في الجامعة » . وينقم على الجامعة المذكورة « لاتجاهها الاستعماري والتبشيري .. » وقال في احدى رسائله انه مصمم رغم ذلك على البقاء في هذا المعهد اولا لان انتهاء دراسته فيه بات وشيكا ، ولانه من ناحية اخرى ، يرغب في التعمق بدراسة وسائل الاجانب الاستعمارية واساليبهم التبشيرية !

وتخرج عبد القادر من الجامعة الامريكية بدرجة بكالوريوس علوم B. A. وكان في طليعة الطلبة المتفوقين . وكاني به لم يستطع أن ينسى « الطابع الامريكي والاستعماري والتبشيري » للجامعة الذي كان يضايقه كثيرا ، ويتحمله بألم ممض ، فتفجر شعوره بشكل مذهل وصورة عجيبة في يوم احتفال الجامعة السنوي بتسليم شهاداتها للمتخرجين ... ففي هذا الاحتفال ،وكان يحضره حشد كبير من رجال السياسة والعلم وذوي الراي والمكانة من المصريين والاجانب ، جلس عبد القادر في صف المتخرجين المستعدين لتسلم شهاداتهم ، ولما بدأ ، وفق البرنامج الموضوع ، تسليم هذه الشهادات ، نودي على عبد القادر لتسلم شهادته ، فتقدم من منصة الرئاسة بهدوء ووقار ،وتسلم شهادته من رئيس الجامعة ... ولكنه ما أن تسلمها منه حتى مزقها اربا على مرأى من الجميع ، وصرخ في وجه الرئيس قائلا : اني لست في حاجة الى

شهادة من معهدكم الذي هو معهد استعماري وتبشيري ... ثم القى خطبة قصيرة حمل فيها على الاستعمار والتبشير وختمها بتحية فلسطين والهتاف لشعبها ! وذهل الرئيس واساتذة الجامعة من هذه المفاجأة ، كما ذهل المحتفلون ... الذين لم يلبث المصريون والعرب منهم أن صفقوا لعبد القادر الحسيني وهتفوا بحياته ... وجعلوا يحيونه من صميم افئدتهم وهو يغادر الاحتفال ... قبل انتهائه !

وعاد عبد القادر الى القدس ، وبعد مدة من عودته انطلق يزاول نشاطه في التنظيم السري ، وبغية التستر على دوره ولتضليل السلطات ، انصرف يعمل في حقل الزراعة ! ولكنه عدل عن هذه « المهنة » واعلن رغبته في الحصول على وظيفة حكومية . ولما كاشفنا عبدالقادر برغبته هذه ، وبقوله انه مصمم على تحقيقها ، وقع نقاش حاد بيننا وبينه ، فما كنا نريد أن يتوظف عبد القادر الحسيني في حكومة الانتداب ...واشتد الخلاف حول هذا الموضوع بصورة خاصة بيني وبينه ، فقد كنت ، كما ذكرت سابقا ، ضد فكرة توظف الشباب في الحكومة ، ورفضت العروض المغرية الكثيرة التي عرضت علي لاشغال وظيفة عالية فيها ، أما عبد القادر فكان يعتقد أن حصوله على وظيفة حكومية عمل مفيد جدا للحركة الوطنية والتنظيم السري الذي كان هو رئيسه ! وقد كان من رأيه أن اشغال وظيفة في الحكومة يشكل وسيلة عملية لابعاد اشتباه السلطات بأعماله وجهوده ، وسبيلا للتعرف على الموظفين من الشبان العرب ، لغرض اختيار من تتوفر فيه منهم الشروط المطلوبة للعمل الوطني والمؤهلات الضرورية للانضمام الى التنظيم السري . وكان لعبد القادر ما اراد ، فحصل على وظيفة كتابية في احدى الدوائر الحكومية .. في اواخر عام ١٩٣٣ .

وبعد مدة شكلت الحكومة دائرة جديدة باسم « دائرة تسوية الاراضي » وكان الغرض الاساسي الذي حملها على انشاء هذه الدائرة ، رغبتها في ازالة المشاعات في اراضي القرى ، والتدقيق في صحة ملكية الاراضي ، وذلك لتسهيل مهمة اليهود في شراء اراضي القرى (وكان وجود المشاعات في الاراضي يعرقل هذه المهمة) والتمهيد لنزع ملكية مساحات من الاراضي بزعم الحاجة اليها لانشاء مشاريع عامة وفقا للقانون ! وما أن شكلت هذه الدائرة حتى هرع عبد القادر يطلب الانتقال اليها ... فرحبت الحكومة بطلبه وحققته له عام ١٩٣٤ ، لانها كانت تظن أن اشغاله لوظيفة في هذه الدائرة .. يسهل لها مهمتها ! أما عبد القادر فانه رغب في التوظف في الدائرة المذكورة ليعرقل

مساعيها وجهودها لتسوية الاراضي وملكيتها ، ولاثارة العقبات في وجه هذه الخطة الغادرة ، ولانه كان يريد من ناحية اخرى أن يتصل بالقرويين مباشرة ... بغية التعرف على اوضاعهم واحوال قراهم ، وانتقاء الصادقين منهم للانضمام الى التنظيم السري .... والقرويون هم أكثرية الشعب الساحقة ومنبع المناضلين الذي لا ينضب له معين .

نشاط التنظيم

ونعود الى الحديث عن التنظيم السري ، فنقول أن افراده اندفعوا يضاعفون جهودهم في مطلع ١٩٣٤ . ورؤي وجوب اعادة النظر في التنظيم القائم ، ووضع مخططات جديدة للعمل ودراسة الاسباب والوسائل المطلوب توفرها لانجاح التنظيم . فوجه عبد القادر دعوة سرية الى جميع المسؤولين عن اعمال التنظيم السري في سائر انحاء فلسطين ، لعقد اجتماع خاص لهم في القدس في ٢٥ اذار ١٩٣٤ . ونظرا لان وجود هؤلاء الشبان في القدس في اليوم المحدد للاجتماع كان من شأنه أن يلفت الانظار ويثير التساؤلات ، وبغية تضليل الحكومة التي كانت عيون رجال استخباراتها تلاحقنا وتراقبنا ، فقد اعلن الشيخ محي الدين الحسيني (خال عبد القادر) انه دعا بعض اصدقائه واصدقاء عبد القادر الى مأدبة غذاء في مقره في « عقبة جبر » بأريحا ، لمناسبة حصول عبد القادر على وظيفة جديدة محترمة في « دائرة تسوية الاراضي » ، وبالفعل اقام محي الدين الحسيني مأدبة عامرة — وكانت مآدبه كلها عامرة وبيته « مضافة » مشهورة — حضرها اكثر من مائة شخص . وبعد انتهاء تناول الطعام واحتساء القهوة اخذ الضيوف في الانصراف ، في حين تأخر في « عقبة جبر » الاخوة عبد القادر الحسيني ونافذ الحسيني وعلي خلف وعبد الرحمن العلي واحمد العيساوي واميل الغوري « من قضاء القدس » وشريف الريماوي وعاهد الريماوي وحنا خلف وصالح الريماوي ومحمد الاسمر « من قضاء رام الله » وجميل الفارس وشافع سعد الدين « من قضاء نابلس » وخالد الفرخ وعلي الدباغ (يافا) وعبد الحليم الجيلاني وحسان القواسمه واحمد حجة « من قضاء الخليل » وصالح عون الله ورفيق الجريس عويس « الناصرة » وفريد فخر الدين وحسن الشامخ (بيسان) ومنير الريس ورشاد السقا « غزة » وسلمان أبو ربيعة « بئر السبع » وحسن سلامة وشحادة حسونة (قضاء اللد) .

وعقد هؤلاء الشبان اجتماعا برئاسة عبد القادر ، وبعد أن أقسموا اليمين على التمسك بالميثاق الوطني والحفاظ على السرية والكتمان ، انطلقوا يبحثون شؤون التنظيم السري ودراسة خير الوسائل والاساليب التي يؤدي الاخذ بها الى ايصاله الى اهدافه . واستمر الاجتماع أكثر من ثلاث ساعات وانجلى عن القرارات التالية :

١ — تتشكل القاعدة الشعبية العامة للتنظيم من الاشخاص المجتمعين ومن تأخر من زملائهم عن الحضور .

٢ — مضاعفة الجهود والمساعي لتسليح الشبان وتدريبهم .

٣ — اعادة بناء التنظيم السري على اساس الخلايا ، بحيث تتألف كل خلية من خمسة افراد ، يرأسهم مسؤول . وتكون كل خلية منفصلة ومستقلة ولا صلة لها (أو معرفة) بأية خلية اخرى .

٤ — تناط بعبد القادر الحسيني (قائد التنظيم) مهمة انشاء الخلايا ، واختيار المسؤولين عنها ، وتنسيق اعمال التنظيم ووضع اسس العلاقات بين العاملين .

٥ — تعيين « لجنة عليا للتنظيم » من « حسن سلامة ونافذ الحسيني وجميل الفارس وصالح الريماوي واميل الغوري » . لمعاونة عبد القادر في اعماله ومهامه ، وتنمية موارد التنظيم من المال والسلاح .

٦ — تعقد اجتماعات دورية للقاعدة الشعبية للتنظيم بدعوة من القائد العام .

وقبيل انتهاء الاجتماع تبرع المجتمعون (كل فرد منهم حسب استطاعته) لصندوق التنظيم فبلغ مجموع التبرعات (١٦٧) جنيها فلسطينيا (استرليني) وتم الاتفاق على أن يدفع كل عضو في التنظيم اشتراكا شهريا حده الادنى جنيهان . أما عبد القادر الحسيني فقد تعهد بدفع نصف مرتبه شهريا للتنظيم وقد وفى بأكثر من تعهده حيث جعل يقدم كامل مرتبه للتنظيم فيما بعد .

ولما اشتدت حاجة التنظيم الى السلاح والمال باع عبد القادر — دون أن يعرف أحد عن ذلك سوى زوجته — باع اثاث بيته وحلي زوجته (وكانا عروسين جديدين) وقدم المال للتنظيم السري .

وكان الشيخ محي الدين الحسيني الشخص الوحيد (من خارج التنظيم) الذي كان يعلم عن هذا الاجتماع واغراضه ، فلما انتهى الاجتماع تبرع لصندوق

التنظيم بمبلغ (٥٠٠) جنيه فلسطيني .. كدفعة اولى لمساعدة العمـــل . (وظل محي الدين يتبرع باستمرار ، وفي كل مناسبة ، بمبالغ كبيرة من المال، الامر الذي كثيرا ما ساعد التنظيم على مواجهة مشاكله ومسؤولياته المالية).

وبادر عبد القادر ، تعاونه اللجنة العليا الخماسية الانف ذكرها ، الى العمل بكل جد ونشاط . فجمع التنظيم مبالغ من المال من وطنيين موثوقين يستطاع الاعتماد عليهم بعدم افشاء السر . وعلى الرغم من أن الاموال التي جمعت كانت زهيدة وضئيلة بالنسبة لمهمة التنظيم الخطيرة ، فان عبد القادر وزملاءه استطاعوا ، بحسن تصرفهم بالمال شراء (١١٢) قطعة سلاح ــ بين بنادق ومسدسات ــ لاعمال التدريب . واذكر أن ثمن البندقية بلغ عشرين جنيها ومعدل ثمن المسدس ١٤ جنيها . ولم يحل شهر آب ١٩٣٤ حتى كان قد تم تشكيل ٤٧ خلية من خلايا التنظيم، ثم ارتفع هذا العدد الى ٦٣ خلية في ايلول ١٩٣٤ . ورأى التنظيم وجوب تدريب وتسليح اكبر عدد مستطاع من الشبان ، في المدن والقرى ، على أن يتم اختيارهم من قبل التنظيم بموافقة عبد القادر نفسه . ونظرا لكثرة عدد الشبان الذين اقدموا بحماس على التدريب والتسلح فقد وقع على كاهل التنظيم عبء عظيم هو توفير الاسلحة لهؤلاء الشبان ، فضلا عن الخلايا . ولكنه استطاع التغلب على هذه الصعوبة التي واجهته ، حيث أن عددا من هؤلاء الشبان قدموا الى التنظيم ما كانوا يملكونه من اسلحة ، في حين تولى عدد آخر منهم ابتياع السلاح من مالهم الخاص ، وفي الوقت نفسه تمكن التنظيم من الحصول على تبرعات جديدة انفقها على شراء السلاح. وبلغ عدد هؤلاء الشبان في تشرين الثاني ١٩٣٤ نحو ٤٠٠ شخص .

واوجد التنظيم سبعة مراكز سرية للتدريب ، فكان هناك مركزان في قضاء القدس ، ومركز في كل من اقضية نابلس واللد والناصرة ورام الله والمجدل. أما التدريب فقد تولى أمره فريقان : فريق من صغار الضباط السوريين والعراقيين الذين كانت لهم علاقات بعبد القادر وقد تسللوا الى فلسطين للقيام بمهمة التدريب متطوعين ، وفريق آخر من بعض الضباط الفلسطينيين في دائرة الامن العام الحكومية ، كان لعبد القادر ثقة بهم ، وكان من هؤلاء الضباط كامل عريقات وابراهيم جرجورة وتحسين كمال ومصطفى درويش وغيرهم .

ونما التنظيم السري على مر الايام ، وازداد عدد خلاياه ، كما تضاعف عدد الشبان (من خارج التنظيم) الذين كانوا يدربون ويسلحون . وكذلك اتسع نطاق الجباية مما وفر للتنظيم مبالغ جديدة من الاموال (وكانت كلها من فلسطينيين) .

وظلت مشكلة الحصول على الاسلحة والعتاد اخطر مشكلة تواجه التنظيم . فقد كان من الصعب جدا شراء السلاح من داخل فلسطين وشرقي الاردن ، بسبب مواقف الحكام الانكليز ، الذين كانوا يلجأون الى شتى الوسائل ومختلف الاساليب ، للحيلولة دون نقل السلاح الى فلسطين من سورية والعراق ولبنان . ويتشددون في تنفيذ الانظمة والقوانين السياسية الشاذة ، التي كانت الحكومة قد فرضتها لفرض منع العرب من التسلح .

مغامرات بطولية

واشتدت حاجة التنظيم الى السلاح والعتاد ، ولم يستطع التنظيم ملافاة هذه الحاجة لظروف عديدة ، كان من اهمها افتقاره الى المال اللازم . عندئذ اعد عبد القادر (وهو مشهور بالمغامرات والاعمال المفاجئة) ، خطة للاستيلاء على الاسلحة والاعتدة من مخافر الشرطة والجيش . وانطوت هذه الخطة على اخطر المغامرات ، كانت باكورتها في ١٧ كانون الاول ١٩٣٤ ! فقد كان للشرطة مخفر كبير في باب الواد ، وفيه كمية كبيرة من الاسلحة والعتاد ، فيما كان عدد ضباط المخفر وجنوده (من عرب وانكليز ويهود) يتجاوز الخمسين شخصا . فاختار عبد القادر بعض رجال التنظيم (كان لي شرف الاشتراك معهم) للاغارة على هذا المخفر ليلا ، والاستيلاء على ما فيه من سلاح ، وفي الوقت نفسه اتفق عبد القادر سرا مع بعض ضباط المخفر العرب وجنوده على تسهيل نجاح هذه الاغارة . ففي تلك الليلة طوقنا المخفر ، وصعد عبد القادر وبعض اخوانه الى سطح بناية المخفر ، وهبطوا عبر بعض المنافذ الى قاعة السلاح، فاصطدموا ببعض الجنود الانكليز ولكنهم لم يلبثوا ان اسكتوهم واستولوا على اسلحتهم . ثم اقتحم عبد القادر سائر غرف المخفر ــ وساعده اصدقاؤه من الضباط والجنود العرب على تسهيل المهمة ــ فاستسلم الضباط والجنود وتخلوا عن اسلحتهم ... وبغية تضليل السلطات والتغطية على دور بعض الضباط والجنود العرب في هذه العملية ، فقد كبلهم عبد القادر ، كما كبل عددا آخر من الضباط والجنود ، بالحبال ... وانتهت العملية قبل الفجر دون حاجة الى اطلاق النار ... وكانت حصيلتها ٢٧ بندقية و ١٤ مسدسا وبضعة صناديق من الطلقات .

وجن جنون الحكومة لهذه المغامرة ، فانطلق الجيش البريطاني يطوق القرى المجاورة لباب الواد ويفتشها ويعتقل العشرات من ابنائها ... ولكن دون

جدوى ، حيث ان السلاح كان قد نقل الى اماكن بعيدة عن منطقة باب الواد !

وحفزت هذه المغامرة الموفقة عبد القادر واخوانه الى القيام بمثلها في مناطق اخرى من البلاد . فهوجمت مخافر الشرطة خلال شهر كانون الثاني ١٩٣٥ . في النبي صالح (قضاء رام الله) واريحا (قضاء القدس) وسيلة الظهر واللجون (قضاء جنين) وطيبة بني صعب (قضاء طول كرم) وحلحول (قضاء الخليل) . واستولى المجاهدون على كميات كبيرة من الاسلحة والاعتدة ... الامر الذي ادى الى انفراج ازمة السلاح .

وفي الوقت ذاته ، جعل بعض افراد التنظيم ينشئون علاقات « مودة وصداقة » مع عدد من الضباط والجنود الانكليز ... لازمها شيء من الاغراء والتشويق ، فادى هذا كله الى تمكن التنظيم السري من شراء كمية من البنادق والمسدسات ... من هؤلاء الانكليز !

وبدأ التنظيم في مطلع ١٩٣٥ اعمالا (عسكرية) كان الغرض منها ازعاج الحكومة واشغال قواها ، واثارة الرعب في نفوس اليهود . فقد تشكلت من التنظيم وبعض الشبان المدربين عصابات محدودة العدد ، جعلت تهاجم بعض المستعمرات والمزارع اليهودية ليلا ، وتتعرض لدوريات الشرطة في المناطق الجبلية ، باطلاق النار عليها ، ونصب الكمائن امامها ، وبتعطيل بعض الطرقات ونسف الجسور .

وشعرت الحكومة بقلق عظيم ، واصاب اليهود خوف كبير ... فانطلق الاعداء يقومون بأعمال البطش والارهاب في القرى ، وفي ملاحقة الوطنيين والتضييق عليهم واعتقال العشرات منهم ... وسارعوا الى تزويد المستعمرات اليهودية بكميات جديدة من الاسلحة ... وتشكيل قوة من رجال البوليس اليهودي لحماية المستعمرات !

ان ما تقدم عرضه هو خلاصة وجيزة فحسب لتشكيل التنظيم السري (الجهاد المقدس) وتدريب الشبان وتسليحهم ، والاعمال التي قاموا بها خلال النصف الاول من عام ١٩٣٥ .

دعايات وحملات

ما انفك الخصوم يروجون الدعايات المغرضة ضد المفتي ويعرضونه الى حملات واسعة النطاق من الافتراءات والاتهامات ، مدفوعين الى هذا العمل

الوقح برغبتهم الملحة في تشويه سمعته ، واظهاره أمام الراي العام العالمي بأنه رجل شرير ، وسفاح يثير الفتن والاضطرابات لاشباع نهمه الى سفك الدماء ، حتى اذا ما اقدموا على اتخاذ اي اجراء قاس او شاذ للتخلص منه ، قابله الراي العام الخارجي بالارتياح والتأييد . ومن ناحية اخرى فان الاعداء كانوا يعتقدون أن مثل هذه الادعاءات والحملات تترك رد فعل شديد في الاوساط الشعبية الفلسطينية نفسها ، فتنأى بنفسها بعيدا عن سياسة المفتي واتجاهاته ، وتقلع عن تأييده والالتفاف حوله . ولكن خطة الاعداء لم تنلهم بغيتهم ، لا سيما في الاوساط الفلسطينية ، التي ردت على دعايات الافك والبهتان باعلان المزيد من تعلقها بالحاج أمين وتمسكها بزعامته . وبالاعراب عن استهجانها الشديد لتحامل الاعداء المتواصل على زعيمها .

ورسم الاعداء خطة غادرة جديدة في دعاياتهم المغرضة وحملاتهم المضللة على المفتي ، هدفها طعنه « من الداخل » واثارة الراي العام الفلسطيني ضده ، وتشكيك الشعب بوطنيته ومخططاته واهدافه . واختاروا ظروف ١٩٣٤ ، وما لمسوه من اتجاه الشباب الوطني بشكل جدي ملموس نحو محاربة الحكم البريطاني ، وما قام في البلاد حينئذ من اعمال عنف ضد الحكومة واليهود ، لتنفيذ خطتهم الجديدة ، فجعلوا يزعمون ان المفتي انما يقاوم اليهود كيهود فحسب ، وانه لا يعارض الحكومة البريطانية ولا يناهض سياستها ، ولا يؤيد فكرة محاربة الانكليز او يقرها ، وراحوا يحاولون التدليل على صحة مزاعمهم بالادعاء بأن المفتي « موظف » في الحكومة وانه لم يحدث اي اصطدام بينه وبينها !

وتولى خصوم الحركة الوطنية ومعارضوها الترويج لهذه المزاعم ، وانطلقوا يسندون الى الحاج أمين (الاتهام) بانه (صديق) للانكليز وانه ليس عدوا لهم .. بل لليهود فقط . وتبارت صحف (الجامعة الاسلامية) و (فلسطين) و (مرآة الشرق) و (الصراط المستقيم) و (الكرمل) و (النفير) وغيرها من الصحف التي كانت تصدر حينئذ . تبارت في اسناد هذه الاتهامات والافتراءات الى سماحته . ونظرا لان قيام مظاهرتي القدس ويافا الداميتين في تشرين الاول ١٩٣٣ ، جرى خلال غياب المفتي عن البلاد (وكان في رحلة الى العالم الاسلامي) ، ولان المظاهرات العامة (السلمية) التي قامت في اول ايام عيد الاضحى في مطلع كانون الثاني ١٩٣٤ ، جرت بموافقة او عدم معارضة الحكومة بعد عودته الى فلسطين ، انطلق الاعداء والخصوم على السواء يحاولون

اقناع الشعب بأنه لو كان المفتي موجودا في البلاد في ١٩٣٣ لما سمح بقيام المظاهرات ولا حدثت الاصطدامات الدامية ، لانه ضد فكرة الاصطدام بالحكومة ! ثم راحوا يمعنون في الترويج لمزاعمهم بالادعاء بأن المفتي (توسط) لدى الحكومة للترخيص بالمظاهرات العامة التي جرت في مطلع ١٩٣٤ ، فحال دون قيام اصطدام مباشر بين العرب والحكومة ! بالاضافة الى هذه الدعايات والحملات ، فان الاعداء والخصوم جعلوا يدعون أن الحاج أمين غذى الانشقاق الذي قام في الصف الفلسطيني واستشرى خطره بعد وفاة موسى كاظم باشا الحسيني ، وانه لعب دورا خطيرا في الحيلولة دون جمع كلمة القادة والزعماء والابقاء على اللجنة التنفيذية ، وذلك بغية تحقيق هدفين : الاول الحفاظ على مركزه ومصالحه الشخصية والانفراد بالزعامة ، والثاني ضمان عدم قيام جبهة وطنية متحدة في وجه الحكومة البريطانية ! .

اجتماع ومصارحة

وكنا معشر الشبان نستنكر هذه الدعايات والحملات ونستهجن المزاعم والادعاءات التي كانت تروج حينئذ على نطاق واسع ضد الحاج أمين .ولكننا، ولا أنكر ذلك اطلاقا ، تأثرنا الى بعض المدى بالقول بأن المفتي كان يقاوم اليهود فحسب وانه لا يناهض الحكمالبريطاني . تأثرنا بهذا القول ولكننا لم نصدقه كلية ، ورأينا من واجبنا استيضاح الحقيقة من المفتي نفسه ومكاشفته بما كان يقال حول موقفه وسياسته . وكنا حينئذ قد قطعنا شوطا بعيدا في ميدان « التنظيم السري » دون أن تكون لنا علاقة مباشرة بهذا الشأن مع سماحته ، وكنا حتى ذلك الوقتنعتقد ، نظرا لما احطنا به عملنا من سرية وكتمان ، ان لا الحاج أمين ولا غيره يدري عن « تنظيمنا » شيئا !

واختير للاتصال بسماحته والتحدث اليه بهذا الصدد الاخوان نافذ الحسيني وعبد القادر الحسيني وصالح الريماوي وجميل الفارس واميل الغوري . وحدد يوم ١٢ تموز ١٩٣٤ لمقابلة الحاج أمين . وقبل ظهر ذلك اليوم استقبلنا سماحته في مكتبه في المجلس الاسلاميالاعلى ، ورحب بنا وقدم لنا القهوة .. وطلب الينا أن نحدثه بما نريد .واذكراننا رأينا في « لمعان » عينيه وقوة شخصيته المسيطرة ، ما جعلنا فيهيبة من مجلسه ، وتردد في الحديث .ومضت بضعة دقائق ونحنلا نتكلم ... ثم اسعفتنا « الشجاعة » فكاشفناه بحقيقة مهمتنا ، ورجوناه أن يشرح لنا موقفه وسياسته .. فابتسم المفتي (وأكاد اظن

انه كان يسخر منا) بعد أن استمع الى اقوالنا وملاحظاتنا .. ثم قال : ما رأيكم لو قمتم انتمبمقاتلة الحكم البريطاني ، بينما انا اقوم بمقاومة اليهود فقط؟ وما هو الضرر من تقسيم اعمالنا ؟.. واحسب أن المفتي كان قد بلغ من السخرية بنا حدا بعيدا في اقتراحههذا . وبعد تبادل الحديث حول مختلف المواضيع الوطنية ، انتصب المفتي بقامته المهيبة وابرقت عيناه بقبس العزم والتصميم ، فقال : اسمعوا يا اخوان ... اني اربأ بكم أن تصدقوا هذه الاقاويل ... وانكم تعلمون اني كنت اول شخص قاتل الانكليز مباشرة عام ١٩٢٠ ... وأنا لست من الذين يبدلون اتجاههم او يغيرون مواقفهم .ولكن الامور مرهونة بأوقاتها ... وليس من مصلحة الشعب والبلاد أن يقوم اصطدام جدي مع الانكليز قبل أن تتم التهيئة الكاملة له . وهنالك أمور واشياء ستعلمونها في الوقت المناسب ... واود أن احيطكم علما بأني عالم بما تفعلون وتدبرون ... وان نجاحكم في مهمتكم هو أمنيتي الغالية ، ويمكنكم الاعتماد علي لمعاونتكم ، ضمن المستطاع ، دون معرفة احد غيركم ، وسيأتي الوقت ، واظنه قريبا ، الذي يطلب فيه منكم التعاون وتنسيق العمل مع آخرين ما انفكوا يعملون ، بهدوء وسكون ، لمثل ما تعملون له بل اكثر .

لم نكن الوحيدين !

خرجنا من هذا الاجتماع ونحن نشعر بشيء من الخجل لما ادلينا به من أحاديث وملاحظات .. ولمنا انفسنا لاننا انحدرنا الى درك « التأثر » بدعايات المغرضين واباطيل المضللين ... وجعلنا نتحدث فيما بيننا عن هذا الاجتماع ، ونقيم نتائجه الحقيقية ، فشعرنا بأنه كان مفيدا جدا ، وأن ما سمعناه من سماحته يجب أن يزيدنا قناعة بصدق موقفه وايمانا بتصميمه وبعد نظره وقوة شكيمته .

واسترعى اهتمامنا بشكل خاص ، امران مهمان ، في كل منهما مفاجأة ... الاول قول سماحته انه كان يعرف اعمالنا ويعلم بجهودنا وان نجاحها يحقق له أمنية غالية ، أما كيف علم الحاج أمينما علم عن تنظيمنا وانجازاته ، فمسألة لم نستطع فهمها .. ولا تقديرها،علما بأن اطلاعه على نشاطنا لم يزعجنا اطلاقا بل جاء في الحقيقة حافزا جديدا لنا الى العمل .

اما الامر الثاني الذي استرعى انتباهنا واثار اهتمامنا فهو قول المفتي أن هناك أمورا واشياء « ستعلمونها في الوقت المناسب » وأنه ليس من « مصلحة الشعب والبلاد أن يقوم اصطدام جدي مع الانكليز قبل أن تتم التهيئة الكاملة له » .

وايقنا — دون معرفة حقيقة الواقع — أن الحاج أمين واخرين كانوا ايضا يعملون بسرية وكتمان ، لاعداد الشعب وتسليحه وتدريبه وتهيئته « لاصطدام جدي مع الانكليز .. » ، وقد دفعنا هذا اليقين الى محاولة الوقوف على الحقيقة ... ومعرفة ماذا كان يجري في الخفاء ... بل اذا ما كان هناك من شيء يجري في الخفاء ... والواقع اننا حرنا في أمرنا ، فكنا نعتقد (ولعل غرورا أصابنا من حيث لا ندري ولا نشعر) اننا الوحيدون في الميدان واننا ابناء بجدتها .. تسترا وتكتما واعدادا وتهيئة .. !

اصطدامات وعصابات

كان الناس يسمعون ، ابتداء من ١٩٣٠ ، عن اصطدامات مسلحة ، تقع، بين الفينة والفينة ، بين اشخاص « مجهولين » وبين قوات الحكومة ، في مختلف انحاء فلسطين ، وبصورة خاصة في جبال صفد والجليل ومنطقة حيفا . ولما لم يكن الشعب يعرف الحقائق عن هذه الاصطدامات واسبابها ودوافعها ، فان الناس انصرفوا الى تصديق ما كانت الحكومة تصدره من بلاغات رسمية او تذيعه من انباء ، بأن هذه الاصطدامات كانت تقع بين « عصابات » مؤلفة من بعض « اللصوص » و (قطاع الطرق) لاغراض السلب والنهب ، وبين قوات الأمن العام الحكومية التي كانت تطاردهم وتلاحقهم ، ونظرا لاستمرار هذه الاصطدامات ، وعدم استطاعة الحكومة تحديد حادث سلب او نهب واحد قام به هؤلاء « اللصوص وقطاع الطرق » ، ولانها كانت تنتهي في اكثر الاحيان بقتل او جرح رجال الامن فقد سرت في الاوساط الشعبية اشاعات وتكهنات بأن العصابات المذكورة هي « عصابات » وطنية صرفة شكلها « مجهولون » لغرض ازعاج الحكومة ومقاومة قواتها . ولكن عدم معرفة الناس بافراد هذه العصابات ، بسبب تشددهم في السرية والكتمان في جميع اعمالهم ، من ناحية ، ومن ناحية اخرى جهلهم « بالجهة او الجهات » التي تقف خلف هذه العصابات ، جعل الشعب في حيرة من أمره ، ودفع بعض افراده الى الشك في صحة ما يقال عن الدوافع « الوطنية » لهذه العصابات وافرادها.

واتسعت هذه الاصطدامات نطاقا فيما بعد ، ولازمتها هجمات شديدة على بعض المستعمرات اليهودية في مرج بن عامر ، والقاء القنابل والمتفجرات في داخلها كما حدث في مستعمرة « ناهالال » على الطريق الرئيسي الذي يؤدي الى حيفا . وفي الوقت نفسه جرت في منطقة حيفا خاصة عمليات فردية وصفت بعمليات « التأديب » ضد بعض ضباط البوليس و « الجواسيس » وعدد من الاشخاص اتهموا بالتعاون مع الحكومة او بيع الاراضي من اليهود او السمسرة عليها لحساب اليهود . وعلى الرغم من اطار السرية والكتمان الكثيف الذي ظل يحيط بهذه العصابات ورجالها ، فان الرأي العام الفلسطيني اخذ يعتبرهم « مجاهدين » وانطلق الشعب يمجد اعمالهم ويشيد بجهودهم لا سيما بعد أن ازدادت عمليات الاصطدام والتأديب والهجوم على المستعمرات اليهودية .

وكان رجال تنظيمنا السري ، قد بدأوا يقومون ايضا ببعض الاعمال لازعاج السلطات واليهود ، اتخذت شكل الاصطدام بالقوات البريطانية ، ونصب الكمائن لدوريات الجيش والشرطة ، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية . ونظرا لان عبد القادر الحسيني كان يحيطنا علما بهذه الاعمال ونتائجها والاماكن والمراكز التي كانت تحدث فيها ، فقد ايقنا بأن هناك جماعات مسلحة مستقلة تعمل من جانبها دون معرفة احد بها ، وأن جهة أو تنظيما سريا اخر « مجهولا » يقف خلف « العصابات » الانف ذكرها ، ويتولى ادارتها وتوجيهها .

من يقف خلف العصابات ؟

واستبدت بنا حيرة عظيمة ،وصدمنا بحقيقة هامة بأن هناك اخرين من الفلسطينيين يعملون مثل ما نعمل بل أكثر منه . وصار همنا أن نعرف ماهية هذه العصابات ، والجهة او الجهات التي تشرف عليها . فبذلنا جهودا واسعة النطاق في « التفتيش » عن الحقيقة ، ولكننا لم نوفق الى اختراق جدار السرية والكتمان الذي كان يلف هذه العصابات ويكتنف اعمالها ويخفي وراءه الجهة التي تنظمها وتوجهها . وتشعبت الاراء واختلفت وجهات النظر بيننا بشأن الشخص او الاشخاص الذين يقفون خلف العصابات المذكورة . فبعض « الاخوان » ظنوا أن حزب الاستقلال هو الذي شكل هذه العصابات ،وبعض اخر اعتقد بأن الحزب القومي السوري هو صاحبها ، فيما اتجه فريق ثالث

من اخواننا الى الاحتمال بأن تكون هذه العصابات من عمل الشيخ محمد الاشمر وزملائه في دمشق . وشعر اخرون منا بأن فئة من الشبان الوطنيين المتحمسين في شمال البلاد يعملون سرا على تنظيم هذه العصابات وتموينها وتوجيهها .

وفي خضم هذا التباين في الاراء الذي قام بيننا وعجزنا عن بلوغ معرفة الحقيقة ، عادت بنا الذاكرة الى المقابلة التي اجراها بعضنا مع الحاج أمين ، وما قاله لنا خلالها حول العمل والاصطدام مع الحكم البريطاني ووجود جهات تعمل على التهيئة والاعداد ، فاتجهت انظارنا الى سماحته ، وسادنا شعور قوي بانه هو الجهة « المجهولة » التي كنا نتوق كثيرا الى معرفتها . وازداد هذا الشعور رسوخا في نفوسنا لقناعتنا التامة بأن الحاج أمين يحذق ممارسة خطة السرية والكتمان ، ويتقن عملية اخفاء اعماله ومخططاته وتضليل الحكومة وخصوم الحركة الوطنية بشأن جهوده الوطنية ودعمه لحركة التمرد والعصيان التي كانت تنمو وتزداد حدة في الاوساط الشعبية . واخيرا استقر الرأي على أن يجتمع بعض منا بسماحته ومفاتحته بصراحة بشأن هذا الموضوع ، فلما تم عقد هذا الاجتماع ، كاشف وفدنا سماحة المفتي بما كان يجول في خواطرنا ، والتمس منه أن يطلعه على الحقيقة ، ولاحظ اخواننا أن الحاج أمين كان يتخلص بلباقته المعروفة المشهورة عن كل حديث مباشر عن العصابات واعمالها ، ويفرط في التأكيد بجهله بها وعدم معرفته بالذين كانوا يوجهونها . ولكننا بقينا مقتنعين بأن الحاج أمين كان يعرف كل شيء عن هذا الموضوع .

ظهور الحقيقة

وبعد مرور برهة غير طويلة من الزمن ، اشتدت خلالها اعمال العصابات وعمليات « التأديب » وتفجير القنابل والالغام في المستعمرات اليهودية في لواء حيفا ، واتسعت اعمال « تنظيمنا السري » ، حدثت المفاجأة وظهرت الحقيقة المذهلة .. وهي أن المفتي نفسه كانت الجهة «المجهولة» وراء هذه العصابات الوطنية واعمالها وانه كان قد بدأ في تشكيلها وانشاء « تنظيم سري » للتسلح والتدريب والاعداد ، فور انتهاء ثورة آب ١٩٢٩ ، وبصورة خاصة بعد أن رضخت وزارة رامزي ماكدونالد البريطانية (وكانت من حزب العمال) لارادة اليهود فسحبت كتابها الابيض لعام ١٩٣٠ (الكتاب المعروف بكتاب اللورد باسفيلد) .

وبلغ التذمر من الحكم البريطاني ذروة قوته في صيف عام ١٩٣٥ ،واكتسحت البلاد دعوة جارفة لمحاربته ومقاومته ، في حين اتسعت اعمال العصابات في شتى الميادين ، وازداد « تنظيمنا السري » نشاطا وجراة ، وتفاقمت بصورة خاصة الاصطدامات الدامية بين اهل القرى العربية المجاورة للمستعمرات اليهودية وبين العصابات اليهودية السرية المسلحة وقوات (الهاغانا) . وغدا الناس يتوقعون حدوث اصطدام عنيف شامل بين العرب وبين الحكم البريطاني واليهود . وراحت الصحافة الاجنبية تتحدث عن توتر الاوضاع في فلسطين واستبداد حالة القلق والتطير بالاوساط اليهودية ، واشتدت في الوقت نفسه الدعايات المغرضة والحملات المضللة ضد المفتي بصورة واسعة.

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر تموز ١٩٣٥ ، التقى سماحة المفتي (والارجح أنه تعمد قيام هذا اللقاء) ببعض اخواننا المسؤولين عن التنظيم السري ، وعلى رأسهم عبد القادر الحسيني ، وفهمنا من ثنايا الاحاديث التي دارت في هذا اللقاء أن المفتي يعتقد أن الوقت المناسب للاصطدام المباشر بالحكم البريطاني بات وشيكا ، وأن على جميع الفلسطينيين أن يعدوا انفسهم له ، ثم دار حديث عام تناول موضوع وجوب توحيد جميع القوى والتنظيمات السرية ، والوسائل والطرق التي يجب أن تتبع في مجابهة الحكم البريطاني ، واستدرجنا سماحته ، وربما من حيث لا نريد ، الى التحدث عن تنظيمنا واعمالنا . ونظرا لتأكدنا بأن الحاج أمين كان يعلم الكثير عن جهودنا ورغم ما كان يبديه من « جهل » بها ، فقد كاشفناه صراحة بجميع امورنا وتشكيلاتنا وتنظيماتنا وما كان قد اصبح لدينا من قوات مستعدة للمجابهة ! فرحب المفتي بما قلناه بكل صدق واخلاص . ولكنه آثر — حتى ذلك الوقت — عدم كشف النقاب عما كان يقوم به هو من اعمال التهيئة والاعداد ، أو اطلاعنا على ما كان قد اوجده من تشكيلات وتنظيمات . واكتفى بالقول بأن هناك منظمات وعصابات ذات شأن كبير ، يجدر بنا التعاون معها بشكل صحيح يؤدي الى التحام حقيقي بين جميع العاملين وتوحيد جهودهم ... ووعد المفتي بأن يبذل مساعيه « لمعرفة » هذه التنظيمات والتشكيلات الاخرى ودعوتها الى التعاون والعمل المشترك !

وبعد ايام ، وقد تفاقمت تطورات الاوضاع العامة في فلسطين خطورة ، كشف المفتي الستار عن الحقائق ... ثم عمل على توحيد جميع التشكيلات والتنظيمات والعصابات ، بما فيها تنظيمنا السري (وقد بدا لنا أنه اقل شأنا

بكثير مما كان المفتي قدعمله) في جهاز (الجهاد المقدس) الذي جعل تحت اشراف الحاج أمين وقيادته (السرية) المباشرة . وهكذا قامت في فلسطين — في صيف ١٩٣٥ — منظمة فلسطينية عسكرية عامة ، هي منظمة (الجهاد المقدس) التي تولت اعمال الجهاد الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨ . ولكن منظمة عسكرية سرية غاية في الخطورة والاهمية ظلت وفقا لاتفاق وخطة اجمع عليهما المسؤولون — ظلت خارج هذا التنظيم وهذه المنظمة هي « منظمة القساميين » التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

سبيل الجهاد

وعلى الرغم من جميع الدعايات والحملات ، والحاح العديدين من الوطنيين على المفتي بوجوب التصدي بشكل صريح سافر للحكم البريطاني ، وتولي حركة عصيان وتمرد حقيقية ضده ، فان سماحته اعتصم بالصبر والسكوت ، فظل يشغل منصبه كرئيس للمجلس الاسلامي الاعلى ، ويؤثر عدم خوض غمار ميدان المقاومة « على المكشوف » ، ويرد على الذين كانوا يطالبونه بترك المجلس وتزعم المقاومة الفلسطينية جهارة وعلانية بالتأكيد لهم بأنه من مصلحة فلسطين وحركة المقاومة أن يبقى على رأس المجلس ويواصل اعماله وجهوده الوطنية دون ما ضجة او دعاية .

وجاء وقت غدونا فيه نشكو (بين انفسنا وفي حلقاتنا الخاصة) مما اعتقدنا انه « تلكؤ » من المفتي و « تردد » في مجابهة الانكليز مباشرة ... ولما اتسع نطاق الدعاية التي روجت بأنه لايقاوم الحكم البريطاني بل اليهود فحسب تركت هذه الدعاية شيئا من التأثير في افكارنا وآرائنا بشأن موقفه من الانكليز ، مما حفزنا الى محادثة الحاج أمين بصدد هذا الموضوع ومكاشفته بشعورنا بشأنه ، كما شرحنا ذلك سابقا ببعض تفصيل . وليس من شك في أن سكوت المفتي عن الرد على هذه الدعاية ،وتفنيدها ، وجهل الشعب « وجهلنا » نحن بما كان يقوم به من اعمال ويبذله من جهود في سبيل التهيئة والاعداد ، بسبب طوق السرية والكتمان الذي ضربه حول هذه الاعمال والمساعي ، كان من العوامل التي ادت الى انطلاء اباطيل الاعداء واحابيل المغرضين على الكثيرين من الفلسطينيين (وعلى فريق منا ايضا) . ثم جاءت الاحداث والتطورات التي

وقعت في ١٩٣٥ والتي سبقت الاشارة اليها ، تكشف النقاب عن الحقيقة وتضع الامور في نصابها وتبين لنا جميع الامور بوضوح كامل .

وتجمعت لدينا حينئذ معلومات وثيقة وأكيدة ، وتوفرت عدة ادلة قاطعة وبراهين ساطعة ، على أن المفتي كان يعمل بهدوء وبعيدا عن كل دعاية وتظاهر ، منذ اعوام ، على تهيئة الشعب واعداده للقيام بحركة تمرد وعصيان وانقضاض على الحكم البريطاني ... في الوقت المناسب. ويشهد الله انه لولا يقين المفتي وايمانه بسلامة خطته ، وقناعته المطلقة بأنه كان يقوم بواجبه على الوجه الاكمل ويشعر بنجاحه التدريجي في مضمار مساعيه ، ولولا حرصه على توفير أسباب التوفيق والفوز لنضال الشعب ، لما تحمل ما تحمله من الدعايات المغرضة والافتراءات البذيئة الكاذبة ، ولما صمد كالطود الراسخ في وجه حملات المضللين وانتقادات العديدين من ابناء الشعب .

ومما هو جدير بالذكر أن الحاج أمين كان مقتنعا منذ البداية بأن السبيل الوحيد للحفاظ على عروبة فلسطين والحيلولة دون تهويدها هو سبيل الجهاد والقوة ، بل انه كان اول من خاض غماره بشخصه في ١٩٢٠ ... وكان هدفه الحقيقي أن ينتهج الشعب هذا الطريق ، ولكن الظروف والاحداث التي تعاقب وقوعها في البلاد خلال السنين العشر الاولى للحركة الوطنية ، اقنعته بأن الشعب لم يكن مهيئا للثورة ، وأن اية حركة تمرد وعصيان يقوم بها سيقضى عليها بسهولة ، ويكون في القضاء عليها اجهاض لفكرة محاربة الحكم البريطاني مباشرة ، وهي الفكرة التي ما انفك المفتي يعمل على تنميتها وتغذيتها بشتى الوسائل والاساليب التي كان يستطيع اليها سبيلا . ومن ناحية اخرى فان القسم الاكبر من الشعب ، وأكثر زعمائه وقادته ، كانوا يعتقدون ، او يظنون ، قبل ١٩٣٠ ، بأنه في الامكان الوصول الى حل معقول ومقبول لقضية فلسطين عن طريق الاتصال ببريطانيا ومفاوضتها والدعاية في اوساطها لاقناعها بخطل سياستها واخطارها على العرب . وبرز هذا « الاتجاه السياسي الفلسطيني » خلال ١٩١٩ — ١٩٣٠ في سلسلة المباحثات التي جرت مع الانكليز ، والوفود التي امت بلادهم ، والاتصالات الكثيرة التي جرت مع حكامهم في فلسطين ، واضطر المفتي نفسه الى مسايرة هذا الاتجاه ، فخاض بنفسه ميدان الدعاية والاتصال والمباحثة والمفاوضة ، رغم قناعته بعدم جدواه وحده ودون أن يتوانى ، في الوقت نفسه ، عن مواصلة الترويج لدعوة التمرد والعصيان والجهاد ، كسبيل وحيد لنيل المطالب وصيانة الحقوق . كذلك كان المفتي يعتمد

على الوقت والزمن ، ليرى الشعب بنفسه الحقيقة ، فيؤمن على ضوء الاحداث والتجارب ، بأن الكفاح هو الطريق الامثل للحفاظ على عروبة فلسطين .

وفي الحين الذي كان الحاج أمين يقوم بواجباته نحو وطنه وشعبه ويسعى لخلق الاجواء التي يمكن أن يقوم جهاد صحيح في ظلالها ، فانه ظل ينتظر ،بثقة واطمئنان ، أن تنجلي للشعب حقيقة عدم جدوى الاعتماد على احتمال حدوث تبديل او تغيير في السياسة البريطانية ، فيتجه بحافز الحرص على كيانه وسلامة وطنه وقضيته ، نحو الاعتراف بأن الكفاح المسلح والجهاد السليم ينطوي على الامل الوحيد لانقاذ فلسطين من اخطار الاستعمار والحركة اليهودية . وبدأ هذا « الانقلاب » المنتظر في شعور الشعب واتجاهه بعد ثورة ١٩٢٩ (المعروفة بثورة البراق) وما عقبها من احداث وتطورات ، كان من ابلغها سحب بريطانيا لكتابها الابيض لعام ١٩٣٠ ، فتحطمت على صخرتها اسطورة فوائد التعاون مع الانكليز وخرافة مزايا الدعاية والمفاوضة والاتصال ... واصبحت تربة « الرأي العام الفلسطيني » صالحة ، الى مدى بعيد ، للتهيئة والاعداد والتنظيم لمحاربة الحكم البريطاني مباشرة ... فسارع الحاج أمين الى اهتبال هذه المناسبة الملائمة وانطلق يضاعف جهوده ومساعيه ، بما كان لديه من وسائل وامكانيات (وكانت محدودة وضئيلة ..) لاعداد الشعب والبلاد لجهاد صحيح ، يعاونه في مهمته فئة قليلة مؤمنة من اخوانه العاملين الذين نذروا انفسهم وارواحهم وأموالهم فداء لفلسطين . (لازم هؤلاء العاملون الصادقون سماحة المفتي منذ ١٩١٩ ، ولا يزال من بقي منهم الى اليوم على قيد الحياة الى جانبه اوفياء للعهدالذي قطعوه على انفسهم) .

الاعداد والتهيئة

وان ما عمله الحاج أمين فيهذاالسبيل كثير وفير ، غير أننا لا نعرف عنه سوى القليل ، اولا للستار الحديديمنالسرية والكتمان التي كان يغلفها ،وثانيا لان الحاج أمين لا يزال يؤثر (حتى كتابة هذه المذكرات وايداعها للنشر) عدم البوح بالاسرار كاملة . ولكننانستطيع أن نذكر في هذا المجال بعض اعمال سماحته ، التي وقفنا على حقيقتها وعلمنا بها وتأكدنا من صحة ثبوتها ،والتي جرت بين ١٩٣٠ و ١٩٣٦ ...

وضع المفتي مخططا عاما للعمل الثوري الجدي ، تضمن الوسائلوالاساليب التي يجب أن تنتهج لتحقيقه والسبل والطرق التي يتحتم اتباعها لبلوغ اهداف

هذا المخطط . وليس من شك في أن« وجود » المفتي على رأس المجلس الاسلامي الاعلى ، وما يتبعه مندوائر واجهزة ومن يعمل تحت لوائه من علماء وقضاة وأئمة ومرشدين ومدرسين ومعلمين وموظفين ، كان من العوامل الرئيسية التي مكنته من تحقيق اعمال التهيئة والاعداد . وهذه الحقيقة تدحض بصورة قاطعة الحجج الكثيرة التي كان يطرحها الذين كانوا يرون وجوب تخلي الحاج أمين عن رئاسة المجلس وتولي قيادة الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية « على المكشوف » .

عمل المفتي على تشكيل فرق كشفية ورياضية ونواد ادبية في المدارس الاهلية (التابعة للمجلس) وبعض المعاهد الوطنية المستقلة ، وذلك لغرض تنظيم الشباب وتهيئته وطنيا ونشر المبادىء السليمة في اوساطه ، ليكون عدة منيعة للحركة الثورية القادمة . ثم شكل الحاج أمين منظمة « الجوال المسلم» ... فضمت نيفا والفي عضو ، لخدمة قضية فلسطين والدفاع عنها . وكانت الشروط التي يجب أن تتوفر في طالب الانضمام الى هذه المنظمة ، شروطا قاسية ومتزمتة الى مدى بعيد ... كان الغرض منها أن لا ينضم للمنظمة المذكورة في عضويتها غير الشبان الذين يؤمنون بالجهاد والنضال ، ومن الثابت انه لما اعلن الجهاد المقدس في ربيع ١٩٣٦ كان عدد غير قليل من الذين انضووا تحت لوائه ، من افرادمنظمة « الجوال المسلم » ، وشكل المفتي جمعيات من العلماء ورجال الدين والوعاظ ، باسمجمعيات « الدعوة للمعروف والنهي عن المنكر » كان من اهدافها وواجباتها ازالة الاختلافات والمنازعات في المدن والقرى ، وتوعية الشعب والحض على مكارم الاخلاق والمبادىء السامية ومقاومة بيوع الاراضي لليهود .

وركز الحاج أمين اهتمامه وعنايته على « الحصول » على السلاح .. فالف لجانا خاصة « سرية بالطبع » من شبان فلسطينيين لشراء السلاح من داخل فلسطين نفسها ، ومن سورية ولبنان وشرق الاردن والعراق ونقله الى فلسطين . ونظرا للصلة المتينة والثقة المتبادلة التيكانت تربط سماحة المفتي برجال الحركات الوطنية في شرق الاردن والعراق وسورية ولبنان ، فقد اطلع عددا من كبار قادتهم المجاهدين على الخطوط العريضة لمخططه ، فتولى هؤلاء السادة فضلا عن العمل على تسهيل مهام لجان التسليح الفلسطينية في ديارهم ، جمع كميات من الاسلحة بأنفسهم ، وبوسائلهم الخاصة ، وارسالها الى فلسطين . وكان المفتي والعاملون معه قد اعدوا عدة مراكز سرية في مختلف انحاء البلاد لاخفاء الاسلحة والعتاد فيها ، لتوزيعها في الوقت المناسب على المجاهدين .

وأقام المفتي واخوانه مراكز سرية في عدة مناطق فلسطينية لتدريب الشبان « المؤهلين » على استعمال السلاح وحروب العصابات ، واستعان للقيام بمهمة هذا التدريب بعدد من كبار الضباط العرب المتقاعدين (وكانوا من فئة الضباط الناجحين المبرزين في العهد العثماني) وبنفر من الضباط الشبان في سورية والعراق . ومما هو جدير بالذكر أن سماحة المفتي كان يتقصد أن يختار للانضمام الى التنظيمات السرية رجالا من الذين خدموا في الجيش العثماني ومارسوا العمل العسكري ، وذلك بالاضافة الى الشبان الصادقين غير المدربين الذين كان يتقن اختيارهم .

ولما توفرت كميات (لم تكن كبيرة على كل حال) من الاسلحة في فلسطين ... وبدأت عمليات التسليح والتدريب ... شكل المفتي عصابات مسلحة من الوطنيين الصامدين في بعض انحاء فلسطين ، خاصة في اقضية صفد والناصرة وبيسان وحيفا في شمال البلاد ، وانطلقت هذه العصابات الى مقاتلة الحكم البريطاني وازعاجه ، وارهاب اليهود وتخويفهم ، فقامت بمناوشة القوات البريطانية ، والتصدي لدوريات الشرطة والامن العام ، ونصب الكمائن لها ، وتخريب طرق مواصلاتها ، وتدمير الجسور ، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية الخ ... وكانت هذه العصابات هي التي شغلت الرأي العام (فضلا عن الانكليز واليهود) خلال ١٩٣١ — ١٩٣٥ دون ان يعرف احد (بما فيها تنظيمنا السري على ما ذكرنا) شيئا عن كيفية تشكيلها والجهاز الذي يديرها ويوجهها ويشرف عليها . وفي الحين الذي بدأت هذه العصابات اعمالها ، وسارت عمليات التدريب على احسن وجه مستطاع ، واصلت لجان التسليح الفلسطينية « جمع » السلاح والعتاد بشتى الوسائل والاساليب واخفائه في المخابيء السرية التي انشئت له ، لتوزيعه على المجاهدين في الظرف المناسب .

هذا هو بالاختصار ما فعله الحاج أمين والفئة القليلة المؤمنة التي عملت معه ، في سبيل التهيئة والاعداد حتى ١٩٣٥ ... أما ما فعله بعد هذا العام فسيوفى حقه من التفصيل في فصول قادمة .

القساميون

نعود الان الى التحدث عن اخطر منظمة سرية ، واعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية بل تاريخ الجهاد العربي الحديث ،

تلك هي منظمة او حركة « القساميين » ، ونظرا لابتعاد قائدها وزملائه عن التظاهر والتبجح والتشدق والدعاية ، وتمسكهم بخطة السرية والكتمان الشديد ، في جميع اعمالهم وتصرفاتهم ، فان اكثر المعلومات الصحيحة عن هذه الحركة ظلت مجهولة ، ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا على الرغم من كثرة ما كتب عن « القساميين » . ولذلك فقد غدا الحديث عنها واجبا نحو الوطن والتاريخ ليطلع العرب عامة والفلسطينيون خاصة على حقائق راسخة ووقائع ثابتة عن هذه الحركة وكيفية تشكيلها وانشائها ، ودورها العظيم في ميدان المقاومة الفلسطينية ، ولدحض المزاعم والادعاءات وتفنيد الاباطل والترهات التي ما انفك ذوو الاغراض والاهواء ، والاتباع والعملاء ، يطلعون بها على الشعب ، لطمس معالم هذه الحركة واخفاء حقائقها وتشويه تاريخها ، والتطاول على القيادة الوطنية الفلسطينية والطعن برجالها عن طريق الادعاء الباهت بأنه لم يكن لهم علاقة بحركة القساميين .. وانهم كانوا يعارضون رأي زعيمها القسام في اشعال نار الثورة ضد الحكم البريطاني ، ونعتقد أن ما سنذكره فيما يلي عن حركة القساميين يعطي اصدق الحقائق والوقائع واوضح صورة عنها ، مستندين فيما ندون ونسجل الى ما اشتملت عليه مذكراتنا من معلومات وتفصيلات عن المنظمات السرية والعصابات الفلسطينية (١٩٣٤ — ١٩٣٥) ومعتمدين على ما وقفنا عليه فيما بعد ذلك من حقائق وبينات عن بعض المصادر الوطنية الواسعة الاطلاع ، ومن عدد من كبار رجال « القساميين » المسؤولين عن منظمتهم واعمالها .

ان مؤسس هذه الحركة هو الشيخ عز الدين القسام ، فعرفت بحركة « القساميين » نسبة الى اسم رئيسها ، والشيخ عز الدين القسام عربي سوري من قضاء اللاذقية ، ساهم في الحركة الوطنية السورية واشترك في أعمال الجهاد ضد الحكم الفرنسي ، وعرف بمواقفه العنيدة . وعلى الرغم من انتهاء الثورة السورية في ١٩٢٧ وبدء عهد المفاوضات الرسمية بين الكتلة الوطنية وحكومة الانتداب الفرنسي ، فان الفرنسيين ظلوا يلاحقون الشيخ القسام بالاضطهاد والمضايقة . فانتقل الى فلسطين واقام في مدينة حيفا ، وكان غرضه من المجيء الى فلسطين (سورية الجنوبية) فضلا عن التخلص من أذى الفرنسيين ، الحصول على عمل في المجال الديني ، فهو عالم مسلم قدير ، والاسهام في حركة الدفاع عن فلسطين .

وكان الحاج أمين ، بفضل دوره القيادي في الثورة السورية (كما اشرنا الى ذلك سابقا) ، يعرف الشيء الكثير عن جهاد القسام وصلابته الوطنية وما

يمتاز به من ذكاء وفطنة ومقدرة على التنظيم وحرص على سلامة الدين ومبادئه السامية . فرحب بقدومه الى فلسطين وجعل يحيطه بعنايته واهتمامه . واتصل الشيخ عز الدين بالحاج أمين وزاره مرارا في القدس ، ودارت بينهما احاديث هامة تناولت مختلف الشؤون الدينية والوطنية . وقرر الحاج امين الاستفادة من مواهب الشيخ القسام ومزاياه ، لدعم الحركة الوطنية وتعزيز المقاومة الفلسطينية . فعينه مدرسا وواعظا لجامع الاستقلال في حيفا ، وافسح امامه مجالا واسعا للتعاون مع قادة الحركة الوطنية وزعماء المؤسسات الاسلامية في حيفا والقضاء الشمالي . فغدا القسام من صميمهم وبين الطليعة من رجالاتهم .

وقام القسام بوظيفته الدينية خير قيام ، واحالت دروسه ومواعظه جامع الاستقلال الى مدرسة وطنية حقيقية ، وجعلت منه اشهر جامع اسلامي في القضاء الشمالي ، فكان يغص بالمصلين يأتونه من مختلف انحاء القضاء ، لا لحضور دروس القسام ومواعظه فحسب ، بل ايضا للتعرف على شخصه ، والاستماع الى توجيهاته الوطنية ودعوته المسلمين الى الجهاد واتباع الصراط المستقيم والتمسك بالعروة الوثقى . واثار ما صار القسام يتمتع به من سمعة ونفوذ في حيفا وقضائها ، مخاوف الانكليز وقلقهم ، فوضعوه تحت مراقبة شديدة ، وراحوا يعدون عليه انفاسه . . . ولكنه صمد في موقفه واستمر على خطته الخيرة .

ثم انضم القسام الى الحركة الوطنية الفلسطينية علانية ، وكان احد ممثلي مدينة حيفا في الاجتماعات الوطنية الخاصة التي كانت تعقد في القدس . . . (ولما تشكل الحزب العربي الفلسطيني في ربيع عام ١٩٣٥ كان القسام احد اعضائه البارزين ، وانتخبه مؤتمر الحزب ممثلا في لجنته التنفيذية عن حيفا بالاضافة الى زميليه وصديقيه حكمت النملي والمحامي فؤاد عطاالله)

ولوحظ أن القسام كان يعقد اجتماعات سرية مكتومة في بيته ، وفي بيوت بعض اصدقائه ، يحضرها عدد من الاشخاص المغمورين (غير البارزين او المعروفين في ميدان الحركة الوطنية) من الذين كانوا يحضرون باستمرار دروسه ومواعظه ! فلفتت هذه الاجتماعات الانظار ، وكثرت حولها التكهنات وتعددت بشأنها التفسيرات . وظهرت في ذلك الوقت العصابات المسلحة المشار اليها سابقا ، فدار همس في بعض الاوساط بأن للقسام دخلا بها وعلاقة . ولم تكن اقوال الهمس هذه بعيدة عن الحقيقة . . .

فبعدما قطع الحاج امين شوطا هاما في تنفيذ عملية التهيئة والاعداد ، وانشاء التنظيمات السرية وتشكيل العصابات المسلحة ، شعر بوجوب قيام منظمة سرية لها صفة خاصة ، يمتزج فيها الشعوران الديني والوطني ، وتقتصر عضويتها على نفر من المؤمنين الصادقين الذين لديهم الاستعداد الكامل للتضحية والفداء . وتباحث سماحته بهذا الشأن مع الشيخ عز الدين القسام وتم الاتفاق بينهما على أن يتولى القسام مهمة تأسيس هذه المنظمة ، وقيادتها .

فقام بهذه المهمة خير قيام ، ووضع للمنظمة الجديدة ميثاقا دينيا — وطنيا ، وانظمة وقوانين داخلية في منتهى الفعالية والاتقان ، جاءت شيئا جديدا بالمرة في عملية التنظيم السري ، أما افراد او اعضاء هذه المنظمة فكان القسام يختارهم ، بعد تجربة واختبار ووفق شروط قاسية متزمتة ، من بين تلامذته واصدقائه الموثوقين .

واحيطت هذه العملية بأكثف اطار من السرية والكتمان عرفه تاريخ التنظيم السري في فلسطين والبلاد العربية . وامعانا في التعاون على الكتمان ، وابعادا لاشتباه السلطات البريطانية وخصوم الحركة الوطنية ، توقفت الاتصالات والاجتماعات والزيارات بين الحاج أمين والشيخ القسام الى درجة ظن معها الكثيرون أن خلافا نشب بين الرجلين ادى الى حدوث قطيعة بينهما . . . فأسفوا لذلك اسفا عظيما !

وكان الزعيم السوري المعروف الشيخ كامل القصاب قد هاجر بعد الثورة السورية من دمشق الى حيفا حيث جعل يمارس الاعمال التجارية فيها . وكان للقصاب صلة وثيقة وعلاقة متينة بالحاج أمين نشأت ايام الثورة السورية ونمت واتسعت على مر الايام . وفي الوقت نفسه كان القصاب صديقا حميما للشيخ القسام ، وكلاهما من المجاهدين في الثورة السورية . فاختير الشيخ كامل القصاب ليكون صلة الوصل بين الحاج أمين والقسام ، ومعتمدهما في جميع الامور المتعلقة بالمنظمة واعمالها وتوجيهها . وكانت اعمال الشيخ القصاب التجارية قد امتدت الى القدس ، فاتخذ منها ذريعة للتردد على المدينة والاجتماع بالحاج أمين ، فيبدو اجتماعهما المتكرر امرا عاديا . وكان الشيخ كامل القصاب ينقل توجيهات الحاج أمين الى المنظمة ، ويتسلم منه الاموال المطلوبة ، لنفقاتها واعمالها وتسليحها الخ . . . ويسلمها بدوره للشيخ القسام ليتولى انفاقها ، وكان دائما ابدا ينفقها على الوجه الصحيح .

أما الاعمال التي قام بها « القساميون » فكانت من أروع ما قام به المجاهدون في فلسطين ، وعلى الرغم من كثرتها وتعدد اشكالها ومظاهرها ، فانها ظلت محاطة بالرية والكتمان ، الى مدى كان معه اكثر الناس يجهلون مصدر هذه الاعمال ، بل كانوا لا يعرفون اطلاقا بوجود حركة القساميين . وكان من هذه الاعمال ، ملاحقة و (تأديب) الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه ، من مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية ، او التجسس لحساب المخابرات البريطانية ، أو بيع الاراضي من اليهود أو السمسرة عليها لحساب الاعداء .

وكان من اعمال القساميين العديدة الواسعة النطاق ، التصدي لداوريات الجيش والشرطة والاصطدام بها ، وقطع طرق المواصلات والاغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشرطة ، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية وزرع الالغام والمتفجرات فيها .

ولم ينكشف « سر » الشيخ عز الدين واخوانه « القساميين » للشعب الفلسطيني والامة العربية ، الا بعد مرور ما يقرب من خمسة اعوام على انشاء منظمتهم ! وكان ذلك في تشرين الثاني ١٩٣٥ ... ففي صيف عام ١٩٣٥ ، وقد اتسعت اعمال القاميين نطاقا ، خاصة في شمال فلطين ، شعر الشيخ عز الدين بأن اتباعه (اعضاء منظمته) غدوا على مدى من القوة وحسن التنظيم والتدريب والتسليح يسمح لهم باعلان ثورة (مكشوفة) على الانكليز ... واتصل القسام بالحاج أمين بهذا الشأن للوقوف على رأيه فوافق المفتي على رأي القسام واقر خطوته ، وتعهد بمد « الثورة » العتيدة بالرجال والاموال والسلاح . فعزم القسام وتوكل وفي اليوم الثاني من تشرين الثاني ١٩٣٥ (الذكرى الثامنة عشرة لصدور تصريح بلفور) قاد الشيخ عز الدين القسام بنفسه عددا من زملائه المؤمنين في حملة ضد القوات البريطانية في منطقة جنين تمهيدا لاعلان الثورة على الحكم البريطاني . واختار القسام احراش « يعبد » مكانا للاصطدام بالقوات البريطانية . وحدث أن علم احد ضباط الامن العام في حيفا بخطة القسام فابلغها الى السلطات البريطانية ، فحشدت قوات ضخمة في احراش يعبد ، فلما بدأ القسام حركته ، طوقته هذه القوات البريطانية فنشب قتال عنيف بين المجاهدين وبين هذه القوات التي كانت متفوقة عليهم عدة وعددا ... واستمر القتال بضعة ايام ... وتبين بأن الانكليز سيتمكنون من القضاء على المجاهدين . وكان باستطاعة القسام وزملائه شق طريقهم عبر القوات البريطانية والنجاة من الطوق المضروب عليهم ، ولكن القسام آثر الصمود والاستشهاد ، على النجاة والفرار ، وايده اخوانه

في موقفه ، فوقعت معركة فاصلة في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٠ استشهد فيها القسام وعدد من زملائه ، وجرح اخران منهم .

(وعلم المجاهدون فيما بعد بالخيانة التي اقترفها ضابط الامن العام (أحمد نايف) المذكور آنفا ، فاغتالوه في مدينة حيفا في وضح النهار) .

ولم يثبط استشهاد القسام من عزيمة اخوانه ، ولم يثنهم عن خطتهم واعمالهم فواصلوها بشكل رائع ، وبشتى الوسائل والاساليب ، ولما قامت ثورة فلسطين في نيسان ١٩٣٦ (كما سيأتي ذكر ذلك) انضم اليها القساميون فكانوا درعا من دروعها وقوة من اعظم قواها .